المركز القومي للترجمة

أرنولد توينبي

مختصر دراسة للتاريخ

الجزء الرابع

ترجمة: فؤاد محمد شبل
مراجعة: أحمد عزت عبد الكريم
تقديم هذه الطبعة: عبادة كحيلة

ميراث الترجمة
1717

مختصر دراسة للتاريخ

(الجزء الرابع)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر سنة ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1717
- مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الرابع)
- أرنولد توينبى
- فؤاد محمد شبل
- وأحمد عزت عبد الكريم
- عبادة كحيلة
- 2011

هذه ترجمة كتاب:

A Study of History (Vol. IV)

By: Arnold J. Toynbee

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

مختصر دراسة للتاريخ

(الجزء الرابع)

تــــــــأليف : أرنولـــــد تـــوينبي

ترجمـــــــــة : فـــؤاد محمـــد شـــبل

مراجعـــــــة : أحمد عزت عبد الكريم

تقديم هذه الطبعة : عبـــــادة كحيلـــــة



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

توينبى، أرنولد، ١٨٨٩ - ١٩٧٥
مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الرابع) / تأليف: أرنولد توينبى،
ترجمة: فؤاد محمد شبل، مراجعة: أحمد عزت عبد الكريم.
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١
٣٢٨ص ، ٢٤ سم
١- التأريخ
(أ) شبل، فؤاد محمد (مترجم)
(ب) عبد الكريم، أحمد عزت (مراجع)
(جـ) العنوان ٩٠٧,٢

رقم الإيداع ٤٩٧٠ / ٢٠١١
الترقيم الدولى : 978-977-704-486-8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

صورة تذكارية

١٨ إبريل ١٩٦٤

(القاهرة)



فى الوسط : الأستاذ آرنولد توينبى مؤلف الكتاب
وإلى يمينه الدكتور أحمد عزت عبد الكريم مراجع الترجمة
وإلى يساره الأستاذ فؤاد محمد شبل مترجم الكتاب

للمترجم

---

١ – تقرير غرفة الإسكندرية التجارية عن الأحوال الاقتصادية لمصر والعالم ١٩٣٦ / ١٩٣٧

٢ – النظام المالى فى الإسلام

٣ – عصب الحرب

٤ – الدستور السوفييتى – دراسة تحليلية انتقادية (رسالة جامعية)

٥ – المدينة الفاضلة – بحث فى النظام الاقتصادى والاجتماعى عند الكتاب المثاليين

٦ – السياسات الاقتصادية الدولية

٧ – دراسات فى اقتصاديات القارة الإفريقية

٨ – ترجمة كتاب مختصر دراسة للتاريخ للأستاذ توينبى – ترجمة (أربعة أجزاء)



مقدمة

فلسفة التاريخ عند توينبى

أمضى العلامة « أرنولد توينبى » أربعين عاماً فى تأليف موسوعته العظيمة « دراسة للتاريخ » . إذ شرع يعمل فيها عام ١٩٢١ وانتهى منها عام ١٩٦١ :

فنى عام ١٩٣٤ نشر الأستاذ توينبى الأجزاء الثلاثة الأولى ، وأتبعها عام ١٩٣٩ بالأجزاء الثلاثة التالية . ثم نشر عام ١٩٥٤ الأجزاء الأربعة الباقية . وكان أغلب الظن أن تنتهى دراسته عند هذا القدر ؛ لولا توالى التعليقات والانتقادات ، فحفزته إلى إصدار الجزء الحادى عشر ويضم خرائط تاريخية . ثم نشر الجزء الثانى عشر عام ١٩٦١ ، يرد فيه على نقاده ويوضح الكثير من النقاط التى غابت عليهم ، كما يصحح طائفة من الوقائع التى وردت فى أجزاء مؤلفه الماضية على ضوء الكشوف الأثرية الحديثة والتطورات الدولية :

وليست الدراسة التاريخية الواضحة المعالم عند توينبى ، هى الأمم أو العصور ، لكنها المجتمعات ؛ أو بالأحرى الحضارات . وقد قسمها إلى إحدى وعشرين حضارة ، لم يتبق منها سوى خمس هى : المسيحية الغربية ، والمسيحية الأرثوذكسية ، والإسلامية ، والهندية ، وحضارة لشرق الأقصى . وتضاف إليها مخلفات المجتمعات المتحجرة الغير المعينة الشخصية ؛ مثل حضارة اليهود والبارسيين .

لكن الحضارات الخمس القائمة فى الوقت الحاضر تنتسب إلى حضارات أقدم منها . من ذلك :

اتصال حضارة المسيحية الغربية (أى حضارة البلاد التى اعتنقت اللون الغربى من المسيحية — الكاثوليكية والبروتستانتية ، وحضارة المسيحية الأرثوذكسية (أى حضارة البلاد التى اعتنقت المذهب الأرثوذكسى من المسيحية — بلاد البلقان وروسيا) بصلة البنوة بالمجتمع الهلينى (أى اليونانى) ؛ الذى ينتسب بدوره إلى المجتمع المينووى (مركزه كريت) .

وإذا تتبعنا المجتمع الإسلامى إلى أصوله ، نجد أنه حصيلة إندماج مجتمعين كانا متمايزين فى الأصل هما : الإيرانى والعربى . وباقتفاء أثر هذين المجتمعين نجد وراءهما مجتمعاً مندرساً يدعى المجتمع السورى ، الذى تفرع بدوره عن المجتمع السومرى .

ويذكر المؤلف عن المجتمع المصرى أنه مجتمع فذ للغاية « إنبعث فى الجزء الأسفل من وادى النيل فى غضون الألف سنة الرابعة قبل الميلاد ، وانقضى فى القرن الخامس الميلادى ، بعد أن ظل باقياً — من بدئه إلى نهايته — ثلاثة أمثال عمر المجتمع الغربى منذ قيامه حتى الآن . ولم يكن للمجتمع المصرى آباء ولم يخلف ذرية ، ولا يجوز لأى مجتمع حالى أن يدّعى الانتساب إليه . وهذا مما يزيد من شأن انتصار فكرة الخلود التى رنا إليها المجتمع المصرى وحققها على الصخر . وإن الأهرام — كما يقرر الأستاذ المؤلف — ما تنفك تحمل منذ خمسة آلاف سنة ، الدليل الصامت على وجود منشئيها » ويُتوقع بقاؤها مئات آلاف أخرى من السنوات القادمة بعد نهاية أصحابها . ولا يُستبعد — كما يتوقع الأستاذ توينبى — أن تظل حتى بعد نا الإنسان نفسه .

ويرى الأستاذ توينبى أن للأحداث التاريخية جانبين : مادى وروحانى ، وهنا يفترق عن غيره من المؤرخين الذين إما يقتصرون على سرد الأحداث التاريخية دون استقصاء دوافعها ، وإما يفسرونها تفسيراً مادياً مثلما يفعل فلاسفة الاشتراكية الذين ابتكروا فلسفة التفسير المادى للتاريخ .

ومدار هذه الفلسفة ؛ تفسير الأحداث التاريخية وسير الأجيال من حروب ومجاعات وقيام دول وفنائها ، ونشوء عروش وسقوطها . . . تفسيراً مستنداً إلى العوامل الاقتصادية المجرّدة . فكان أن جرّتهم هذه النظرة فى تفسير التاريخ ، إلى إستخلاص مبدأ الصراع الطبقى الذى يعتبرونه نذير للثورة الاجتماعية .

وعلى أساس الناحيتين المادية والروحانية يعرض توينبى لبدايات الحضارات وارتقاءاتها وانهيارها . . الخ .

١ – بدايات الحضارات

لا يقبل المؤلف الفكرة القائلة بوجود حضارة واحدة هى الحضارة الغربية . كما يدحض نظرية إستطارة الحضارة القائلة بأن مصر هى أصل جميع الحضارات . وعنده أن من بين المجتمعات الحضارية الإحدى والعشرين ؛ ثمة خمس عشرة حضارة تتصل بصلة البنوة بحضارات سابقة . لكن ثمة ستة مجتمعات فقط قد انبعثت مباشرة من الحياة البدائية ؛ تلك هى :

المصرية – السومرية – المينووية – الصينية – المايانية – الأنديانية ؛ (والأخيرتان نشأتا بأمريكا الجنوبية) .

ولا يمكن أن يُعزى قيام الحضارات إلى صفات مُعيّنة فى جنس من الأجناس ، إذ لا يمكن أن يرتبط التفوق الروحي والذهنى بلون البشرة ؛ فالواقع أن جميع الأجناس قد ساهمت فى إنبعاث الحضارة .

وتتداعى بالمثل النظرية القائلة بأن توافر ميزات خاصة فى بيئة ، يكفل إنبعاث الحضارة فيها . فهل تعتبر مثلا – البيئة الخاصة التى أتاحها النيل لمصر « ميزة إيجابية » إليها وحدها ، يُعزى بدء الحضارة المصرية ؟ هنا

تصمد النظرية للاختبار فى منطقة مجاورة تتوافر فيها الشروط المطلوبة . تلك هى المنطقة الدُّنيا من وادى دجلة والفرات : إذ نجد ظروفا طبيعية مماثلة ومجتمعاً مماثلا هو المجتمع السومرى . لكن النظرية تنهار فى وادٍ أصغر وإن كان مشابها هو وادى الأردن الذى لم يكن يوما مركزاً لأية حضارة ، ولعلها تنهاركذلك فى وادى السند ، كما تنهار تماماً فى وادى نهر نيوجراندى ووادى نهر كلورادو .

وبالأحرى ؛ لا يمكن إعتبار البيئه هى العامل الإيجابى الذى جلب الحضارات إلى الوجود ، وإن كان بلا ريب عاملا عظيما له خطره فى التشكيل الثقافى : إذ ما يزال هناك عامل لا يمكن تحديده : هو — على ما يظهر — سيكلوجى فى طبيعته ، وهو أهم عوامل إنبعاث الحضارات أهمية وأشدها ارتباطا بالقضاء والقدر :

هنا يلتجئ توينبى إلى إستعراض الأساطير الكبرى التى أودعها الجنس البشرى حكمته ، كما يلتجئ إلى الأديان . فاستخلص فكرة مدراها أن الإنسان قد حقق الحضارة : لا نتيجة لمواهب بيولوجية عُليا (أى التفوق العنصرى) : أو ثمرة بيئة جغرافية ؛ ولكنه حققها إستجابة لتحدى موقف ذى صعوبة خاصة ، استثار الإنسان لبذل جهد ما ، لم يبذله من قبل : وأبرز مثال يُطالعنا فى هذا الشأن ، إنبعاث الحضارة المصرية . فلقد كان السهب الأفراسى (الصحراء الكبرى والصحراء العربية) قبل فجر الحضارة ؛ أرض رعى عامرة بالمياه . وطالع الجفاف الطويل المتتالى هذه المراعى ، فجابه سكانها بتحدٍّ ؛ استجابوا له بطرائق مختلفة :

تمسك البعض بأرضهم وغيروا عاداتهم : فابتكروا نمط الحياة البدوية .

ونقل آخرون مواطنهم صوب الجنوب إلى المناطق الاستوائية ؛ متتبعين أثر المراعى المرتدّة ؛ فاحتفظوا — من ثم — بطريقة حياتهم البدائية التى

ما يزالون يعيشونها حتى الآن . وهم القبائل النيلية (الشيلوك والدنكا والنوير) .

وآخرون ولجوا مستنقعات وغابات دلتا النيل ؛ فجابهوا بذلك التحدى الذى تمثله . وعملوا على تجفيفها ؛ فكان أن أقاموا الحضارة المصرية .

وهكذا ، يمكن تفسير بدايات الحضارات فى الفرض القائل بأن الأحوال الصعبة – أكثر من السهلة – هى التى تولد هذه الأعمال المجيدة . ولا تقتصر هذه الفكرة على البيئة المادية ، بل تجاوزها إلى البيئة البشرية . وتجد البيئة المبتدعة فى كل حالة ، هى التى لقيت صعوبات مادية أو بشرية . فالأرض البكر تبرز استجابات أشد حيوية ، عن الأرض التى سبق اقتحامها بالفعل وشغلها مقيمون متحضرون ، فيسروا المعيشة فيها . كما أن الهزيمة الساحقة الفجائية ، كفيلة باستثارة الجانب المهزوم لترتيب نظام داره ، والاستعداد لتحقيق استجابة منتصرة . ويبدى استقراء التاريخ أن الشعوب التى تشغل مواقع حدود وتتعرض لعدوان متصل ، تظهر استطالة أشد إشراقاً من جيرانها أصحاب المواقع المحمية . وتستجيب بصفة عامة – الشعوب والطوائف التى أصابتها النقم ، لتحدى الحرمان من المشاركة فى فرص ومزايا معينة ؛ بإبراز طاقة استثنائية وإظهار أهلية غير عادية فى الاتجاهات المفتوحة أمامها . ومثلها فى هذا الشأن ، مثل الأعمى الذى تقوى لديه حاسة السمع ، قوة خارقة .

٢ – ارتقاء الحضارات

يحدث الارتقاء – وفقا لرأى الأستاذ توينبى – وقتما تصبح الاستجابة لتحد معين ؛ لا ناجحة فى نفسها فحسب ، لكنها تستثير تحديا إضافيا ، تقابل باستجابة ناجحة .

فكيف يتأتى قياس مثل هذا الارتقاء ؟

هل يقاس وفقاً لسيطرة متزايدة على بيئة المجتمع الخارجية ؟

يجيب الأستاذ توينبي على هذين السؤالين بأن ثمة نوعين من السيطرة المتزايدة ،

الأول — سيطرة على البيئة البشرية التي تتخذ عادة شكل غزو الشعوب المجاورة .

الثاني — سيطرة على البيئة المادية ، تتكشف عن تحسينات في الأسلوب التكنولوجي المادي .

بيد أنه لا يعتبر التوسع السياسي والحربي أو تحسين الأسلوب الفني ، قاعدة مناسبة تكفل قياس الارتقاء الحقيقي للمجتمع : فإن التوسّع الحربي هو — عادة — مظهر نزعة حربية ، تعتبر بدورها قرينة على تدهور المجتمع ، لا ارتقائه .

ولا تبدي التحسينات التكنولوجية — سواء أكانت زراعية أو صناعية — سوى ارتباطا قليلا — أو لا شيء البتة — بينها وبين الارتقاء الصحيح ، وحقاً ، فقد يرتقي تماماً الأسلوب الفني وقلما يكون التحضّر الفعلي في مرحلة انحطاط . والعكس بالعكس .

أما قوام الارتقاء الحقيقي ، فهي عملية يطلق عليها توينبي كلمة « التسامي » ويعني بها التغلّب على الحواجز المادية . وتعمل عملية « التسامي » على إطلاق طاقات المجتمع من عقالها « لتستجيب للتحديات التي تبدو بعد ذلك داخل النفس أكثر منها خارجها ؛ أي أنها روحانية الطابع أعظم منها ماديته .

ولكن ما هي علاقة المجتمع بالفرد في ظل عملية الارتقاء التي انتهى المؤلف إلى تقرير أن « التسامي » أساسها ؟

ثمة رأيان شائعان :

الأول — يجعل من المجتمع ، مجرد حشد من ذرات هي الأفراد ،

الثانى – يعتبر المجتمع كائناً حياً ، وما الأفراد إلا أجزاء منه ، ولا يُدركون إلا أعضاء أو خلايا فى المجتمع الذى ينتسبون إليه .

وهذا ما لا يرضى عنه توينبى : فإن المجتمع عنده ، نظام للعلاقات بين الأفراد ، ولا يتأتى للكائنات البشرية أن تحقق وجودها الحقيقى إلا بتفاعلها مع رفاقها . وهنا يكون المجتمع ميدان عمل عدد من الكائنات البشرية ، على أن الأفراد هم « مصدر الفعل » . ذلك لأن جميع أسباب الارتقاء تنبعث عن أفراد مُبدعين أو أقليات صغيرة من الأفراد . ويتكون عملهم من جزءين :

الأول : تحقيق إلهامهم أو كشفهم ، مهما يكن من أمره .

الثانى : هداية المجتمع الذى ينتمون إليه ، إلى سبيل الحياة الجديد هذا .

ويتأتى – من الناحية النظرية – حدوث هذه الهداية بطريق أو بآخر :

إما بتعريض الجميع للتجربة الواقعية التى حوّلت الأفراد إلى مبدعين .

وأما تقليد الناس لمظاهر الهداية الخارجية . وبعبارة أخرى الهداية ، بفضل المحاكاة .

ويعتبر الطريق الأخير – من الناحية العملية : هو مجال الاختيار الوحيد المفتوح أمام جميع الأفراد ، ما خلا أقلية بسيطة من الجنس البشرى : وإن المحاكاة هى « طريق مختصر » ؛ لكنه طريق فى وسع عامة الناس جميعاً سلوكه فى إثر زعمائهم ، ليصلوا إلى مرتبة الارتقاء .

وظاهر أن الارتقاء – وفقاً لما سبق – يتضمن تمايزاً بين أفراد المجتمع الذى يسير فى مرحلة النمو . إذ ستُبرز بعض الأجزاء استجابة ناجحة فى كل مرحلة . وسينجح بعضها فى تتبع خطاها بفضل المحاكاة ، وسيفشل بعضها فى تحقيق الأصالة أو المحاكاة على السواء ، ومن ثم تتهاوى . وسيكون ثمة كذلك تمايزاً بين مصائر المجتمعات . فواضح أن للمجتمعات المختلفة سمات مختلفة . إذ يتفوق بعضها فى الفن ، والبعض فى الاستنارة الدينية ، والآخر

فى الابتكارات الصناعية : بيد أن غايات الحضارات تتماثل فى جوهرها مثلها مثل البذور من نوع واحد ، فلكل حبة مصيرها ، لكن يبذرها جميعها « باذر » واحد ، ليجتنى نفس المحصول .

٣ – إنهيار الحضارات

لم يتبق من الإحدى والعشرين حضارة التى ظهرت فى الوجود ، سوى خمس حضارات . وبالتالى انهارت ست عشرة حضارة .

فما هى أسباب انهيارها ؟ .

يمكن إجمال طبيعة الانهيار الحضارى ، وفقاً لآراء توينبى فى ثلاث نقاط :

الأولى : إخفاق الطاقة الإبداعية فى الأقلية المبدعة : وعندئذ تتحول تلك الأقلية التى كانت تفتتن بها الأغلبية فتحاكيها ، فتسير فى طريق الارتقاء بفضل هذه المحاكاة ؛ ثم تتحول إلى أقلية مسيطرة .

الثانية – ترد أغلبية المجتمع على طغيان أقليته ، بسحبها ولاءها ، والعدول عن محاكاتها .

الثالثة – يستتبع فقدان الثقة بين أقلية المجتمع الحاكمة وأغلبيته المحكومة ، ضياع وحدة المجتمع الاجتماعية ، فانهياره .

ويخالف توينبى فى رأيه هذا ، آراء من سبقه من المفكرين :

١ – رأى بعض المفكرين القدامى ، أن انهيار الحضارة مبعثه تشيخ الكون . لكن علماء الطبيعة المحدثين ، أبعدوا عصر « التشيخ الكونى » إلى مستقبل قصى لا يسهل تصوره . وهذا يعنى انتفاء تأثيره على الحضارات سواء فى الماضى أو فى الحاضر .

٢ – اعتنق شبنجلر وغيره فكرة أن المجتمعات كائنات لها صفات

التحوّل الطبيعى من الشباب والنضج إلى الاضمحلال ، مثلها فى ذلك مثل المخلوقات الحية . لكن المجتمع ليس – فى حقيقته – كائنا من هذا النوع .

٣ – نادى آخرون بوجود شىء حتمى من شأنه تعويق سير الوراثة ، الأمر الذى يؤثر تأثيراً سيئا فى الحضارة وفى الطبيعة البشرية . وأنه بعد انقضاء فترة من التحضّر لا يتيسر إنعاش الجنس إلا بفضل « سكب دم جديد همجى » . ويعنى هذا ، تسامى جنس معين على غيره من الأجناس البشرية . وهذا يجافى المنطق والعلم على السواء .

٤ – أبدى أفلاطون فى كتابه « تيابوس » فكرة مدارها أن التاريخ يكرر نفسه . أى أن التاريخ أجدر بصفة عامة أن يكون « إعادة أحداث » منه إيراد سير . وهذا غير منطقى .

٥ – ثمة قول يعزو انهيار الحضارات إلى اضمحلال العمل الفنى الفذ ، أو يعزوه إلى عدوان يشن على الحضارات . بيد أن التاريخ يبين أن الاضمحلال هو نتيجة انهيار الحضارة لا سببا له .

٤ – تحلل الحضارات

يرى الأستاذ توينبى أن الحضارة تصاب بالتحلل (أو ما يطلق عليه التحجّر) ، وأورد طائفة من الأمثلة فى الجزء الخامس من موسوعته . وأبرز تلك الأمثلة ، الحضارة المصرية . فإنه بعد انهيار المجتمع المصرى تحت العبء الجسيم الذى فرضه عليه بُناة الأهرام ، وبعد اجتياز مراحل الإنحلال الثلاث أى : عصر اضطرابات – دولة عالمية – فراغ ، نجد هذا المجتمع المشرف على الموت بشكل واضح ، يرتحل بغتة – عكس المنتظر – فى اللحظة التى كاد يستكمل خلالها سير حياته . بيد أن المجتمع المصرى أبى عند هذه اللحظة أن يموت ، ومضى يضاعف فترة حياته . وإذا ما حسبنا مقياس زمن المجتمع المصرى لحظة رد فعله الاستثارى ضد الغزاة الهكسوس

فى إبان الربع الأول من القرن السادس عشر قبل الميلاد ، حتى طمس آخر معالم الثقافة المصرية فى القرن الخامس الميلادى ؛ نجد أن فترة الألفى سنة هذه ، تبلغ استدامتها مجموع طول ميلاد المجتمع المصرى مع ارتقائه وانهياره ، الجانب الأعظم من فترة انحلاله : وتحسب هذه الفترات مجتمعة ؛ من تاريخ إعادة توكيد المجتمع المصرى نفسه فى إبان القرن السادس عشر قبل الميلاد ، حتى انبعاثه لأول مرة فوق المستوى البدائى ، فى تاريخ ما — غير معروف — خلال الألف الرابعة قبل الميلاد : بيد أن حياة المجتمع المصرى فى غضون النصف الثانية من بقائه ، كانت نوعاً من « الموت فى الحياة » . وفى خلال هاتين الألفى سنة اللتين تعتبران زائدتين عن المقدر فى حياة المجتمع المصرى ؛ أخذت حضارته التى حفلت حياتها الجارية بالحركة والمعنى ، تتباطأ فى فتور وتعطل ، وفى الواقع ؛ عاش المجتمع المصرى بفضل صيرورته متحجراً .

ويعتبر الأستاذ توينبى ميزان التحلل الحضارى فى انقسام الجسم الاجتماعى إلى كسور ثلاثة : أقلية مسيطرة — بروليتاريا داخلية — بروليتاريا خارجية .

فأما الأقلية المسيطرة ؛ فإنها تلك الطبقة المبدعة التى كانت أغلبية المجتمع تقتدى بها وتحاكيها وتقتفى أثرها فى طريق الارتقاء ؛ لكنها تحولت إلى أقلية مسيطرة بعد أن فقدت طاقتها الإبداعية .

وأما البروليتاريا الداخلية ؛ فإنها الجماهير التى باتت تحكمها الأقلية المسيطرة .

وأما البروليتاريا الخارجية ؛ فإنها الشعوب التى تحيط بالدولة والتى تتربص بها ، وتسعى إلى الانقضاض عليها إن ألم بها ضعف ؛ وتنشئ مكان المجتمع القديم مجتمعاً حديثا .

ولكل جزء من أجزاء المجتمع وظيفته :

١ ـ تُنشئ الأقلية المسيطرة دولة عالمية .

٢ ـ تستجيب البروليتاريا الداخلية إلى نداء الروح ، فتعتنق ديانة عالمية .

٣ ـ تؤلف البروليتاريا الخارجية عصابات حربية بربرية ، تبتكر أشعار الملاحم مثل الإلياذة والأوديسية لهوميروس .

■ ـ الدول والأديان العالمية

يقرر الأستاذ توينبي أن ثمة ثلاثة مظاهر بارزة للدول العالمية :

الأول ـ تنبعث الدول العالمية بعد إنهيار الحضارة ، لا قبلها . وتتولى الدولة العالمية تحقيق الوحدة السياسية لكيان الحضارة الاجتماعي . ولا يعتبر قيامها بشيرا بهدوء الحال واستقرار أوضاع الجسم الاجتماعي .

الثاني ـ تنبعث الدولة العالمية عن الأقلية المسيطرة . والأقلية المسيطرة هي الأقلية الحاكمة ، بعد أن فقدت طاقتها الإبداعية ؛ فخسرت ولاء الجماهير المحكومة وإعجابها .

الثالث ـ يعتبر إنبعاث الدولة العالمية محاولة لمّ الشعث إبان التحلل .

فإن أُخذت هذه المظاهر معا ؛ تطالعنا صورة للدول العالمية تبدو للوهلة الأولى مبهمة . فبينما هي ظواهر تحلل اجتماعي ، إذا بها في نفس الوقت محاولات لكبح جماح هذا التحلل ومناوأته .

والدول العالمية يفرضها بُناتها ؛ ويتقبلها رعاياها دواء شافيا لجميع أوجاع عصر الاضطرابات . وهي وفقا للتعبير السيكلوجي ، نظام يرنو إلى تحقيق الوفاق الاجتماعي والمحافظة عليه . وهي دواء ناجع لداء يتمثل ؛ في بيت انقسم على نفسه انقساما يحصد الجانبين على السواء . والانقسام نوعان : نوع أفقي ـ يحدث بين الطبقات التي تصارع بعضها بعضا ، وهذا هو الصراع الطبقي

أساس نظريات كارل ماركس ومريديه ، ونوع رأسي يتخذ سبيله بين الدول المتحاربة .

وفى غمار عصور الاضطرابات وتحلل المجتمعات تنبثق الأديان العالمية .

ويتساءل المؤلف :

كيف يتأتى للنفوس فى نشدانها الإله أن تنتزع جوهر الدين من أحداث التاريخ .

وكيف تأتى للمسيحيين والبوذيين والمسلمين والهندوكيين — منفصلين عن بعضهم بعضا — أن يحرزوا مزيدا من التقدم والازدهار فى عالم بات متحدا على نطاق واسع ؟ .

ويجيب على هذين السؤالين بأن الباحثين عن ضياء الروح ؛ يرهقهم فى العصر الحديث صراع بين القلب والعقل ، ولا حل له إلا مزيد من الدفع الروحى للنفوس البشرية . وظاهر أنه قد أصبح للحقيقة فى العصر الحديث أسلوبان فكريان يدعى كل لنفسه الحق المطلق ، ولكن يجافى أحدهما الآخر ؛ هذان هما : الوحى النبوى ، والعقل الفلسفى . ولا نجد إزاء هذا الموقف الأليم إلا بديلين فحسب :

فإما أن يتمكن أسلوبا الحقيقة من التوفيق بينهما ، أو أن يصارع أحدهما الآخر حتى يصرعه ، فيتم له إخراج خصمه من الميدان .

وإذا كان العلم قد انتصر على الدين فى البلاد المتحضرة ، انتصارا ماحقا ؛ فإن هذا الانتصار يعتبر كارثة لا على الدين وحده — ولكن على العلم كذلك . فإن كلا من الدين والعقل ملكة جوهرية من ملكات الطبيعة البشرية .

فالحق ؛ أن سيطرة الإنسان على الطبيعة المادية — التى منحها العلم

للإنسانية – هي للإنسان أقل أهمية – إلى أقصى الحدود – من أهمية علاقاته بنفسه ، وبإخوانه البشر وصلته بالله . فما كان ليتأتى للعقل البشرى أن يجعل من الإنسان سيّدا على العالم ، لولم يوهب سلفه فى المرحلة السابقة على الإنسانية ، القدرة على التحوّل إلى حيوان اجتماعى . ولكن الإنسان البدائى لم يرتفع إلى ذلك النبع الروحى ، بحيث يستطيع أن يتعلم ويأخذ من هذه المقوّمات الاجتماعية التى تكوّن الظروف التى لا غنى للإنسان العامل عنها ، كى يؤدى الأعمال القائمة على التعاون والتآزر . ولقد أثار العلم الحديث قضايا معنوية بالغة الأهمية ، ولكنه لم يشارك فى إيجاد حلول لها ؛ وما كان فى وسعه أن يفعله .

والواقع – كما يقر الأستاذ المؤلف – إن أهم الأسئلة التى ينبغى للإنسان الإجابة عنها ، ليس للعلم فيها قول فصل . وهذا هو الدرس الذى سعى سقراط إلى تعليمه ؛ وقتما نبذ دراسة علم الطبيعة ، بغية نشدان الاتحاد مع الطاقة الروحية التى تعلن عن الكون وتحكمه .

ويرى الأستاذ توينبى أنه لن تتحقق للبشرية وحدتها المرتجاة ، من غير مشاركة الله . فلو أسقطت المرشد العلوى من اعتبارها ، لاندفع الإنسان إلى الفتنة والتنافر ، وهو ما يجافى طبيعته القائمة على الألفة وحسن المعاشرة . ولعذبه ذلك الحس من العناء الكامن فى نفسه ؛ بحكم كونه كائنا اجتماعيا . ذلك العناء الذى يزداد حدّة كلما ازداد الإنسان قدرة على أن يرتفع بحياته إلى تحقيق الاحتياجات المعنوية لطبيعته الاجتماعية ، طالما سعى الإنسان أن يلعب دوره فى مجتمع نبذ الإله الواحد الحق الصمد . وهذا العناء ناجم عن أن الجهد الاجتماعى الذى يبذله المرء ليستكمل ذاته ، يتعدى بمراحل حدود حياته على الأرض زمانا ومكانا . وعلى هذا يصبح التاريخ عند كل امرئ يشارك فيه – على حدة – مجرد حكاية يرويها أبله ؛ لكن هذا الشىء الذى لا معنى له ، يكتسب معنى روحانيا عندما يكشف المرء فعل الإله الواحد الحق .

وعلى هذا النحو : قد تكون الحضارة — أية حضارة — ميدانا للدراسة مفهوما بعض الوقت ؛ إلا أن ملكوت الله « هو ميدان العمل الوحيد المسلّم به أخلاقيا .

وعند الأستاذ المؤلف ؛ أن الأديان العليا ، تهيئ للنفوس البشرية اكتساب رعوية ملكوت الله — هذه الدولة الإلهية — على الأرض ، فيتاح للإنسان — من ثم — المساهمة بقسط غاية فى الضآلة فى سير التاريخ الدنيوى . وهو قسط يكفل له تأدية دوره على الأرض ، ولكن على اعتبار أنه مساعد إرادى لإله يُضفى سلطانه على جهود الإنسان لتأدية رسالته على الدنيا ؛ يضفى عليها قيمة ومعنى ربانيين .

٦ — تلاقى الحضارات

تتلاقى الحضارات وتتصادم ، ولهذا أهميته الكبرى فى التاريخ البشرى . وليس أدل على أهمية الدور الذى أداه التلاقى بين مختلف الحضارات فى عملية تكوين الأديان العليا ، من استعراض ما قامت به منطقتان صغيرتان نسبيا هما :

أولا — حوض نهرى سيحون وجيحون — إذ كان مسقط رأس البوذية المهايانية على الصورة التى انتشرت بها فى عالم الشرق الأقصى .

ثانيا — سوريا — ففيها تبلورت المسيحية فى الشكل الذى انتشرت به فى العالم . كما انبعثت اليهودية فى سوريا الجنوبية . وإذا اعتبر الحجاز امتدادا لسوريا — صوب الجنوب — لأمكن إدخال الإسلام فى نطاق العقائد الدينية التى ظهرت فى تلك البقعة .

فى سوريا تتلاقى الطرق الآتية من حوض النيل ومن البحر المتوسط ومن الأناضول (مع ظهيره ، الأرض الأوربية الجنوبية الشرقية) ومن حوض دجلة والفرات ، ومن السهوب العربية .

وكذلك تتلاقى فى آسيا الوسطى الطرق الآتية من حوض دجلة والفرات عن طريق الهضبة الإيرانية وتلك الآتية من الهند عبر الممرات الواقعة فوق جبال هندوكوش . ومن الشرق الأقصى عن طريق حوض نهر تاريم . وكذلك الطرق الآتية من السهوب الأوراسية المتاخمة التى أخذت مكان « منطقة بحر متوسط أخرى » وورثت خاصية التوصيل هى الأخرى. وشهد على وجودها فيما مضى بقاياها الماثلة فى : بحر قزوين ، وفى بحر آرال ، وفى بحيرة بالكاش .

فالقدر – والحالة هذه – قد رسم دوراً لهذين المركزين القويين لحركة التجارة . وقد أداه كل منهما فى واقع الأمر – المرة بعد الأخرى ، وذلك فى غضون الخمسة آلاف أو الستة آلاف سنة منذ إنبعاث الحضارات الأولى .

فقد ظلت سوريا فترات متعاقبة مسرحاً للمصادمات بين الحضارتين : السومرية والمصرية ؛ وبين الحضارات : المصرية والحيثية والمينووية (الكريتية) ؛ وبين الحضارات : السورية والبابلية والمصرية والهلينية (اليونانية) ؛ وبين الحضارات : السورية والمسيحية الأرثوذكسية والمسيحية الغربية . وفى نهاية المطاف ، شهدت هذه المنطقة الاتصالات بين الحضارات : العربية والإيرانية والغربية .

وكذلك كان حوض سيحون وجيحون مسرحاً للمصادمات خلال فترات متعاقبة بين الحضارتين : السورية والسندية ؛ وبين الحضارات : السورية والسندية والهلينية والصينية ؛ وبين : الحضارة السورية وحضارات الشرق الأقصى .

وترتب على تلاقى الحضارات – كما يقرر الأستاذ المؤلف – أن كلا من هاتين المنطقتين الحاملتين للإشعاع الدينى ، قد دخلت فى نطاق الدول العالمية التى انتظمت فى عدد من الحضارات المختلفة . وهذا التمازج الفعّال – الذى لانظير له – بين الحضارات فى هاتين المنطقتين ؛ يفسّر التركيز الغير العادى – داخل حدودهما – كمواطن إنبعاث الأديان العليا .

وقد عرض الأستاذ المؤلف فى خلال الجزء الثالث من هذه الترجمة ، لطائفة من مظاهر التلاقى بين الحضارات المختلفة . وأخص بالذكر تلاقى الحضارة الغربية مع كل من : روسيا – البلقان – الهند – العالم الإسلامى – اليهود – الشرق الأقصى .

ويرى الأستاذ المؤلف أنه مهما يكن من أمر النكبات التى حلّت بالعالم الإسلامى فى خلال القرن التاسع عشر ، فإنه ما حل النصف الثانى من القرن العشرين ، حتى كانت دار الإسلام سليمة الجوهر ، فلم ينتقص منها سوى بضع مقاطعات من أطرافها . وأمكن هذا الجوهر إنتزاع نفسه من طوفان الإمبريالية البريطانية والفرنسية والهولندية . وللعالم الإسلامى – فى الوقت الحاضر – أهميته القصوى كمصدر للسلع الأساسية وفى طليعتها النفط وكمعبر للمواصلات الرئيسية . الأمر الذى يجعله نقطة الصراع الدولى بين الكتلتين المتنابذتين .

ويعتبر الأستاذ المؤلف اليهودية ظاهرة اجتماعية شاذة ، بحسبانها فضلة متحجّرة من حضارة بادت وانقضت فى كل مظاهرها . ولما فقدت اليهودية صفتها كدولة ، استثار هذا التحدى اليهود ليُبدعوا لأنفسهم طرازاً من الكيان الطائفى ، استعاضوا داخل نطاقه عن فقدان دولتهم وبلادهم ، بالاحتفاظ بذاتيتهم فى صورة تشتت وانتشار بين ظهرانى أغلبية أجنبية ، وفى ظل حكم أجنبى . وحافظ اليهود على ذاتيتهم بفضل التخصص فى مجالات جديدة من العمل تقوم خاصة على تنمية مهارة خاصة فى شئون التجارة وغيرها من الحرف الحضرية . ويرى المؤلف أنه مهما يكن من أمر التسامح الذى ما برح الناس فى الدول الغربية يبذلونه لليهود المقيمين بين ظهرانيهم ، فإن الفرد المسيحى الغربى ما برح يجابه تضامناً وثيقاً – ماسونية – يربط اليهود بعضهم ببعض ، كما يواجه طموحاً يهودياً إلى المطالبة بمزيد من المزايا التى يُسبغها المجتمع الموحّد فى الغرب – رسمياً – على جميع أفراده – بما فى ذلك

اليهود . لكن اليهود ليسوا على استعداد من جانبهم لمنح غيرهم أية مزايا ، فكان أن أصبح الغربيون يضعون اليهود فى معتزل نفسانى . ويجد اليهودى نفسه – عملياً – منبوذاً بمختلف الأساليب ، وإن كان المجتمع المسيحى الغربى من الوجهة الرسمية يقرر المساواة بين مواطنيه .

ثم يعرض المؤلف لاضطهاد اليهود عرب فلسطين ، على غرار اضطهاد النازى لهم . ثم تكلم فى الجزء الثالث – من هذه الترجمة – عن سياسة كل من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة تجاه مشكلة فلسطين

٧ – مستقبل الحضارة الغربية

أسفرت أبحاث الأستاذ توينبى عن إنهيار الحضارات وتحللها ؛ على أن السبب فى كل حالة ، نوع من الإخفاق فى تقرير المصير . ومداره تفريط المجتمع فى حق نفسه ، بصدوفه عن توجيه إرادته صوب عمل نافع . ويتمثل هذا التفريط ، فى تردّيه فى التعلق بنوع من الوثنية ، أقامه هو نفسه لنفسه :

ويطبّق توينبى هذا الرأى على المجتمع الغربى . فيجده قد سلك مسلك الإنسان الضال العاكف على عبادة بضعة أوثان . إلا أن من بين هذه الأوثان ، وثناً سادت عبادته الأوثان الأخرى بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية ؛ هذا هو وثن الدولة الإقليمية القومية .

ويعتبر توينبى ظاهرة تقديس الدولة الإقليمية إلى حد العبادة ، بمثابة نذير رهيب للغرب ؛ من ناحيتين :

الأولى – أن هذا التعلق الوثنى بالدولة الإقليمية ، هو العقيدة الدينية الحقيقية للغالبية العظمى لسكان العالم المصطبغ بالصبغة الغربية .

الثانية – أن هذه العقيدة الباطلة ، هى السبب فى انقضاء أجل ما لا يقل

عن الأربع عشرة حضارة – وقد يكون عددها ست عشرة – من الحضارات الإحدى والعشرين »

وحقاً ، ما برحت الحرب التى يقتل فيها الأخ أخاه ، ويشتد فيها استعمال العنف – وهى نتيجة التعلّق بفكرة الدولة الإقليمية – هى إلى أبعد حد أكثر عوامل الفناء شيوعاً .

ويرى توينبى أن أزمة المجتمع الغربى ، روحانية ، وليست مادية . إذ رغما عن بلوغ هذا المجتمع الذروة فى تقدمه المادى ، إلا أنه يحس بجوع روحى .

وإذا كانت النفوس الغربية قد استبدّ بها قلق الفراغ الروحى فألزمها بفتح الباب لشياطين مثل النازية والفاشية وما إليها ، فإلى متى تحتمل العيش بدون عقيدة دينية ؟

هنا يقول توينبى : « إن التائهين فى بيداء المجتمع الغربى قد انحرفوا عن طريق الرب الواحد الحق الذى آمن به أجدادهم . أولئك الذين علمتهم التجربة الواقعية بأن الدول الإقليمية – مثل الكنائس الطائفية – أوثان تجلب عبادتها الحرب ، لا السلام . وهذا ما يجعل التائهين يندفعون صوب التعلّق بهدف بديل : هو النظم السياسية الشاذة » .

ويرى توينبى أن الإنسان المتأثر بالحضارة الغربية قد استجلب على نفسه الكوارث بتكريسه جهوده لزيادة رخائه المادى وحده . فإن قُيّض له أن ينشد الخلاص ، يصبح سبيله الوحيد « مشاطرته نتائج جهوده المادية مع غالبية الجنس البشرى ، تلك التى لم توفّق فى المجال المادى ، توفيق الإنسان الغربى . . . .

ويخلص توينبى إلى تقرير ضرورة تنظيم العالم على أساس دولى ، ينتفى منه التعصب القومى . ويتم ذلك بإقامة حكومة عالمية توجه شئون العالم

لمنفعة جميع أجناسه دون تمييز . فإن أبت دول العالم ذلك بحكم – حرصها على سيادتها الإقليمية – يصبح الفناء والدمار ، نصيبها جميعها .

وعنده أن حل جميع مشاكل العالم يكمُن فى تطبيق نظام اشتراكى ، يحصل فيه كل فرد على نصيبه العادل من إنتاج المجتمع ، فى ظل نظام عالمى الطابع . وأن يتجه الناس جميعاً إلى خالقهم ، يلتمسون الهداية والرشاد .

وإنى إذ أنتهى من ترجمة هذا المختصر لموسوعة توينبى عن « دراسة للتاريخ » أزجى خالص الشكر وعميق التقدير للأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم لتفضله باستكمال مراجعة هذه الترجمة بعد وفاة أستاذنا الكبير محمد شفيق غربال الذى راجع رحمه الله الجزءين الأول والثانى والباب الأول من الجزء الثالث . ولقد كان لتوجيهاتهما السديدة خير مرشد لى فى إبراز هذا العمل الثقافى الفذ فى إطار عربى .

والله تعالى أسأله العون والتوفيق .

٢٤ مارس سنة ١٩٦٥ — فؤاد محمد شبل



الباب العاشر

الاتصال بين الحضارات فى الزمن



الفصل الرابع والثلاثون

عرض لحركات البعث

(١) تقديم – البعث

يبدو أن كاتبا فرنسيا يدعى إ . ج . دوليكلوز E.J. Delecluze (١٧٨١ – ١٨٦٣) كان أول من استخدم اصطلاح « البعث La Renaissance »[١] لوصف تأثير الحضارة الهلينية المندرسة فى المسيحية الغربية فى زمان معيّن وفى مكان بذاته ، هما شمال إيطاليا ووسطها فى غضون العصر الوسيط المتأخر .

وهذا التأثير – بالذات – ليس بأية حال من الأحوال ، المثال الفريد من نوعه الذى يسجّله التاريخ . وسنستخدم هنا الاصطلاح « باعتباره مدلولا عاما لمثل هذه الظواهر ؛ ونتابع طريقنا لدراستها . ويقتضينا هذا الأمر ، إلتزام الحرص فى البعد عن تضمين الاصطلاح أكثر مما نقصد . ولما كانت هذه الثقافة الهلينية فى مجالى الفن والأدب – لأن هذا الاصطلاح فى الاستخدام المتعارف عليه مقصور على هذين المجالين – قد وفدت إلى إيطاليا عن طريق الاتصال بالعلماء من بيزنطة ، فإن هذه الثقافة لم تكن بالطبع « تلاقيا » فى الزمن مع حضارة مندرسة ، بل كانت تلاقيا فى المكان مع حضارة حيّة . وتنتمى إلى الموضوع الذى نوقش فى الجزء السابق من هذه الدراسة[٢] .

---

(١) يرجع العهد بأول استعمال فى اللغة الإنجليزية للاصطلاح إلى عام ١٨٤٥ . فقد عمل ماتيو آرنولد على إشاعة استعماله فى صورة إنجليزية renas[illegible] عوضا من الصورة الفرنسية renaissance (المؤلف)

(٢) انظر صفحات ٢٦٥ – ٤٣٨ من الجزء الثالث من هذه الترجمة .

كذلك ؛ فإنه عند ما « عبَرت تأثيرات اليونان الثقافية جبال الألب « وأثرت حركة البعث الإيطالية فى الفن والأدب فى فرنسا وفى غيرها من البلاد الغربية الواقعة وراء الألب ؛ لم يُعتبر هذا — بحكم أنه وَفَد عن طريق إيطاليا المعاصرة مباشرة من الإغريق القديمة — حركة بعث بالمعنى الدقيق للاصطلاح ؛ بل كان لا يعدو أن يكون توصيل منجزات قطاع رائد عن مجتمع ، إلى سائر القطاعات من نفس المجتمع . فهو — والحالة هذه — ينتمى إلى موضوع « نمو الحضارات » الذى سبق بحثه فى هذا السياق من الباب الثالث من هذه الدراسة[١] .

— على أن هذه الفوارق المنطقية ، قد تبدو أنها خُططت تخطيطا بُولغ بعض الشيء فى دقته . وفى التطبيق العملى ؛ قد يظهر عسيرا وعديم الجدوى ، أن نُميز بين حركة بعث « خالصة » (بمعنى كونها تلاقيا مباشرا مع مجتمع بائد) وبين نهضة تمازجت بشكل أو بآخر من الأشكال التى أسلفنا الإشارة إليها .

وينبغى أن نلاحظ كذلك — قبل التوغّل فى جوب آفاق حركات البعث — أن هذه الظواهر « أجدر أن تُميَّز عن نمطين آخرين من تلاقى الحاضر بالماضى :

الأول — يتمثل فى علاقة « التبنى » و « الانتماء » بين حضارة محتضرة — أو بائدة — وخليفتها الحضارة الوليدة ، أو غير تامة التكوين .

وهذا موضوع أمعنا فعلا فى الكتابة فيه . وقد يمكن النظر إليه كظاهرة طبيعية وضرورية مثّلناها بالعلاقة بين الأبوين والأبناء . ومن الناحية الأخرى ؛ فإن حركة البعث ، هى تلاق بين حضارة نامية و « شبح » حضارتها الأصلية

---

(٣) انظر صفحات ٢٢٣ — ٤٠٦ من الجزء الأول من هذه الترجمة .

التى بادت منذ أمد بعيد . وهذه حالة — وإن كانت مألوفة تماما — قد توصف بالشذوذ ؛ وغالباً ما تسفر دراستها ؛ عن إظهار ضررها الوبيل .

والنمط الآخر للتلاقى بين الحاضر والماضى الذى يجب أن (نفرق بينه وبين حركات البعث) يتجلى فى الظاهرة التى دعوناها فى موضع سابق بـ « السلفية »[1] . واستخدمنا هذه الكلمة للدلالة على محاولات الارتداد إلى مرحلة سابقة من مراحل إرتقاء المجتمع ؛ مرحلة ينتسب إليها أصحاب السلفية أنفسهم .

وما برحت هناك نقطة أخرى ؛ لتوضيح الفارق بين هذه الأنواع الثلاثة من تلاقى الحاضر بالماضى :

فى علاقة « التبنى » و « الانتماء » ؛ واضح أن المجتمعين اللذين يتصل أحدهما بالآخر ، يتباينان تباينا بينا ، بل ويتعارضان فى مراحل النمو . ذلك لأن المجتمع الأصلى (الذى يتفرع عنه المجتمع الآخر) مجتمع متحلل ؛ فى حين أن « عقبه » طفل وليد متسم بالمشاكسة والعناد .

كما أن المجتمع السلفى » قد تملكه الإعجاب بأوضاع تختلف تماما عن أوضاع عصره هو . وإلا ؛ فما الداعى لاعتناق نزعة السلفية ؟

ومن الناحية الأخرى ؛ فلربما يكون المجتمع الذى يبدأ مرحلة البعث ، أميل إلى العزوف عن إستعادة شبح الأب ، وقدما كان يمر هو بالذات بمرحلة النمو التى يمر بها وليده الآن . فهل كان فى استطاعة « هملت » اختيار نوع شبح والده الذى قدر له ملاقاته على المعاقل : إما شبح والد صبث المشيب بلحيته ، أو شبح والد مثل عمره ؟

---

(١) انظر مبحث السلفية فى صفحات ٣٨٤ — ٤٠١ من الجزء الثانى من هذه الترجمة .

(٢) بعث الآراء والنظم السياسية

أظهرت حركة البعث الإيطالية للثقافة الهلينية فى العصور الوسطى المتأخرة ، تأثيرا على المنحى السياسى للحياة الغربية ، أبقى مما أظهرته على صعيدى الآداب والفنون . يُضاف إلى هذا ، أن هذه المؤثرات السياسية ، لم تعمِّر أكثر مما عمّرته المؤثرات الجمالية فحسب ؛ بل لقد استأثرت بها أيضاً .

وبدأت هذه المؤثرات ، وقتما خرجت المدن اللومباردية من سيطرة أساقفتها إلى أيدى المجالس الشعبية التى كانت تُديرها لجان من القضاء مسئولين أمام المواطنين . وهذا الإحياء الذى شهدته إيطاليا فى القرن الحادى عشر لنظام دولة المدينة الهلينية ، قد مضى قُدُماً تحت تأثير إشعاع الثقافة الإيطالية فى أقاليم المسيحية الغربية الواقعة وراء جبال الألب ، فكان أن أثّر على شعوب الممالك الغربية الإقطاعية .

وكان لإحياء هذا النظام ؛ تأثيره المماثل ، سواء فى مجاله المبكّر والضيّق النطاق ، أو فى مجاله الأرحب والأكثر حداثة . وتبلور التأثير الظاهرى فى إشاعة الإيمان بالحكم الدستورى الذى خلّع على نفسه فى نهاية المطاف اللقب الهلينى « ديمقراطية » . بيد أن المصاعب التى جابهها النظام الدستورى ، والفشل الذى مُنى به ؛ مهّدت السبيل لظهور صورة أخرى من نُظُم الحكم اليونانية تتمثّل فى شخص « الطاغية » . وقد انبعث الشكل الديكتاتورى فى بداية الأمر فى مدن الدول الإيطالية ؛ ثم انتشر بعد ذلك ، إنتشارا واسعا حمل بين طياته ـ بالتبعية ـ نتائج أشد وبالا .

وظهر طيْف هلينى آخر على مسرح العصور الوسطى ، وقتما توّج البابا ليو الثالث شارلمان إمبراطورا رومانيا فى كنيسة القديس بطرس عام ٨٠٠ ميلادية . وبالمثل ؛ أصبح لهذا النظام ـ فيما بعد ـ تاريخ حافل . وكان أوتو الثالث

الساكسونى (حكم ٩٨٣ — ١٠٠٢ ميلادية) أكثر هؤلاء الأباطرة الأطياف[١] تمسكا بالحذلقة الهلينية . فإنه هو الذى نقل كرسى حكومته إلى روما ، وكانت تقع وقتذاك على رقعة من الأرض المشتركة ، تداخل فيها مجالا نفوذ المسيحيتين : الغربية والشرقية[٢] . ولقد رنا أوتو الثالث بتنصيبه نفسه فى المدينة الرومانية السابقة ، إلى تعزيز الدعامة الواهية لسلطان الإمبراطورية الرومانية الذى أقيم فى جزء من العالم المسيحى الغربى . وذلك عن طريق تقويتها بمعدن أصلب عودا ، مستجلب من « مصنع بيزنطى » .

وكما مر بنا فى موضع سابق ، رأينا أن تجربة أوتو الثالث — التى انهارت بعد وفاته المبكرة — قد كررها رجل عبقرى هو فردريك الثانى هوهنشتوفن Frederick II Hohenstaufen بعد ذلك بأكثر من قرنين ، وفى ظروف أكثر ملاءمة .

ولقد روج جان جاك روسو بعد ذلك بعدة قرون ، للأسلوب الهلينى الذى اصطنعه بلوتارخ[٣] . ومن هنا ، أن الثوريين الفرنسيين لم يسأموا قط

---

(١) باعتبارهم يمثلون طيف (أو شبح) الأباطرة الرومانيين القدامى . (المترجم)

(٢) المسيحية الشرقية هى المسيحية الأرثوذكسية ، والغربية هى الكاثوليكية . إذ لم يكن المذهب البروتستانتى — وقتذاك — قد عرف بعد . (المترجم)

(٣) بلوتارخ : عمدة فلاسفة اسبرطة . وقد كتب كتاباً عن حياة ليكورجوس واضع قوانين اسبرطة (كما تذكر أساطيرها) . ويقول بلوتارخ إن ليكورجوس أمضى سنوات طويلة فى زيارة كريت وآسيا ومصر ، دارسا أحوالها ونظمها السياسية ، لوضع قواعد الحكم فى بلاده على أساس علمى وطيد . وبدأ بأن أقام مجلس شيوخ عدد أعضائه ثمانية وعشرون ، ويشترك مع الملك فى تحمل أعباء الحكم وله نفس حقوقه ويوازن سلطانه . ويعاون مجلس الشيوخ ، جمعية الشعب ، وتنحصر سلطتها فى الموافقة على المشروعات التى يقترحها الشيوخ والملك ، أو رفضها .

واهتم ليكورجوس — كما يذكر بلوتارخ — بالمشكلات الاجتماعية . فعمد إلى إعادة توزيع أراضى الطبقة الحاكمة على أفرادها ، ليكونوا أقرب إلى التناسق والانسجام ، ولمحاربة الترف والجشع والحسد فيما بينهم . كما أنه أعاد توزيع الأراضى الأخرى على أفراد الشعب ، بحيث تنال كل عائلة كفايتها من العمل والطعام ، مع مساواتها بغيرها فى الملكية .

وألغى ليكورجوس التعامل بالذهب والفضة ، واستعاض عنهما بالحديد فى الأغراض =

تكرار التنويه بصولون Solon وليكورجوس Lycurgus ، كما أنهم زيّنوا نساءهم ورؤساءهم في حكومة الإدارة — على السواء — بالزّي الذي ظنوه من أزياء الإغريق الأقدمين .

ترى ما الذي يجعل أقرب إلى طبيعة الأشياء مما تقدم ؛ ما عمد إليه نابليون الأول — وقبلما رغب في التسامي بشخصه عن مرتبة القنصل — من التسمّي بـ « الإمبراطور » وخَلْع لقب « ملك روما » على ولده ووريثه ، علماً بأن هذا اللقب كان يحمله إبان القرون الوسطى الغربية ، المرشحون لمنصب « الإمبراطور الروماني المقدس » إلى أن يتوّجهم البابا في روما (وهذه الرسامة البابوية لم تُقيَّض لكثير من المرشحين) ؟

أما نابليون الآخر (المعروف بالثالث) فقد كتب فعلا — أو دعا إلى أن يُنشر باسمه — سيرة يوليوس قيصر . وأخيراً فقد عبَّر هتلر عن تبجيله لطيف الطيف[1] ، بتشييده مقره الريفي على صخرة شامخة تُشرف على ذلك الكهف المقدس المسحور الذي كان لبارباروسا في برختسجادن Berchtesgaden[2] ، وبتقبّله شعار مُلك شارلمان المسروق من متحف للهابسبرج .

= النقدية ، حتى يتساوى المواطنون في الثروة المنقولة . وحارب الترف بجميع أشكاله ؛ فحتّم تناول الطعام في المطاعم الشعبية العامة .

والواقع يتزع ليكورجوس في جميع قوانينه ونظمه ، إلى تقييد حريات الأفراد منذ مولدهم حتى مماتهم . فينظم تربيتهم وتثقيفهم وطعامهم ولهوهم ؛ تقييد لا يقاس إلى جانبه أي نظام ديكتاتوري آخر — انظر كتاب « المدينة الفاضلة » للمترجم . (المترجم)

(١) طيف الطيف : يقصد نابليون الذي كان طيفا للأباطرة الرومان الأقدمين . (المترجم)

(٢) باربا روسا : هو لقب فردريك الأول (حوالى ١١٢٢ — ٩٠) . ويعني اللقب ، ذا اللحية الوردية . كان رئيس الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وتم في عهده إقرار النظام في ألمانيا بأسرها . وامتد سلطانه إلى إيطاليا ، وتوّجه البابا أدريان الرابع إمبراطورا على الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وتمتاز أيامه بانتشار الرخاء والأمن في ربوع إمبراطوريته . وقد مات غرقا في غاليسيا عام ١١٩٠ .

ولكن طيفاً آخر أطيب وأخيَر ، يحوم حول نظام الملكية المسيحية الغربية . فإن المراسم الدينية التي أُضفيت على الإحياء الشكلي للإمبراطورية الرومانية فى الغرب فى يوم عيد الميلاد من عام ٨٠٠ ميلادية — وقتما جُعل من ملك الفرنجة إمبراطور رومانى بموجب تتويج البابا إياه — إن هذه المراسم الدينية لا نظير لها فى تاريخ اليونان : على أن ما أُجرى من طقوس فى روما فى ذلك اليوم ، له سابقة تشاكله ، فيما أُجرى من طقوس فى سواسون Soissons عام ٧٥١ ميلادية ؛ وقتما نصب القيّم الأوسترَاسى « بيبن Pepin » ملكاً على الفرنجة بموجب تتويج القديس بونيفاس Saint Poniface (مندوب البابا زكريا) ومَسْحه إياه . فهذه السُّنّة الغربية للرسامة الكَنَسية — وكانت مألوفة بالفعل فى أسبانيا تحت حكم القوط الغربيين — هى إحياء لسُنّة سُجّلت فى سِفرى صمويل والملوك . إذ ورد فيهما تتويج النبى صمويل للملك داوود ، وقيام كل من صادوق الكاهن وناتان النبى بتتويج الملك سليمان ؛ وكلها سوابق لكافة مراسم تتويج الملوك والملكات فى الغرب المسيحى .

(٣) بعث النظم القانونية

أشرنا قبل الآن إلى الجهود المضنية التى بذلت خلال عشرة قرون تنتهى بمدونة يوستنيان لوضع قانون رومانى يكفل احتياجات الشعب

— وثمة أسطورة يرددها عامة الألمان بأن بارباروسا وأتباعه ينامون داخل كهف ، نوماً عميقاً (أسوة بأهل الكهف الوارد ذكرهم فى التوراة وفى القرآن الكريم) . وأنه عندما تزهر أشجار الكرز الواقعة أمام الكهف « يستيقظ بارباروسا وأتباعه ليعيدوا إلى ألمانيا مجدها الغابر وسلطانها البائد اللذين كانت عليهما فى عهده . ولقد روّجت الدعاية النازية بأن هتلر هو باربار وسا باسم جديد . وهذا ما دعا هتلر إلى إتخاذ برختسجادن مكاناً أثيراً لرسم خططه السياسية والعسكرية .

وجدير بالذكر ؛ أن القادة العسكريين الألمان — وعلى رأسهم هتلر طبعاً — قد أطلقوا اسم « باربار وسا » على خطة غزو روسيا فى الحرب العالمية الثانية ، إيماناً بأن نجاح الخطة سيجعل ألمانيا سيدة العالم وسيعيد إليها المجد الذى فقدته بعد باربار وسا . (المترجم)

الرومانى أولا ، ثم احتياجات المجتمع الهليني بأمره : بيد أن انهيار أسلوب الحياة — الذى وضع القانون الرومانى لتنظيمه — قد أوهنه ، فتداعت قوائمه . ولم يقتصر الأمر على النصف الغربى من العالم الهلينى ، بل تعداه كذلك إلى نصفه الشرقى .

ثم تلت أعراض الاضمحلال « أعراض إنبثاق حياة جديدة على الصعيد القانونى ، مصداقاً لما حدث على الصعيد السياسى . على أن الدافع لإيجاد قانون حىّ لمجتمع حىّ ، لم ينشأ فى أول الأمر من أى حركة لبعث الحياة فى القانون الرومانى الذى كان فى القرن الثامن الميلادى ينتصب عالياً محلقاً فوق رؤوس المعاصرين كما لو كان « قوس قزح » فوق الهيكل الضخم لثقافة هلينية مندرسة .

وللتدليل على الإخلاص فى الإيمان بقانون مسيحى ، سعى المجتمعين المسيحيين الجديدين — كلاهما (شرقية وغربية) لأن يوجدا — قبل كل شىء — قانونا مسيحيا لشعب مفروض أن يكون مسيحيا . لكن تبع هذا التحوّل الجديد فى كلا العالمين :

أولا — إنبعاث الشريعة الموسوية ، كما وردت فى الكتاب المقدس الذى ورثته المسيحية عن اليهودية .

ثانيا — إحياء التشريع الرومانى ، كما ورد بمدونة يوستنيان .

ففى الشرق المسيحى ، أُعلن عن التحوّل المسيحى الجديد ، خلال الحكم المشترك للمؤسسين السوريين للإمبراطورية الرومانية الشرقية وهما ليو الثالث وولده قسطنطين الخامس . وذلك حين صدر عام ٧٤٠ ميلادية « تشريع مسيحى » هو محاولة مرسومة لتعديل النظام القضائى فى الإمبراطورية عن طريق تطبيق المبادئ المسيحية[1] .

---

(١) الملحق الثانى — صفحة ٥٢٦ من المجلد الخامس Bury J. B وقد نشر كتاب Edward Gibon : The History of the Decline and Fall of the Roman Emdire (London 1901 — Methuen).

لكن كان لا مناص فى غالب الأحيان ، من أن يعقب ظهور تشريع مسيحى جديد « بعث التشريع اليهودى الذى أصرّت الكنيسة المسيحية على تضمينه قانونها العام . ولربما نهجت هذا النهج عن عدم تبصّر » ولم تكن بالتأكيد سعيدة به كل السعادة . وسواء أكان هذا التشريع موسوياً أو مسيحياً ، فقد دلل ما أقره هذان الإمبراطوران السوريان — بمرور الأيام — على قصوره عن مواجهة مشكلات المجتمع البيزنطى المعقّدة المتزايدة . فكان أن جاهر « باسيل الأول Basil I » مؤسس الأسرة المقدونية وأبناؤه (وهم خلفاؤه من بعده) خلال السنوات التى تلت عام ٨٤٠ ميلادية ، بأنهم « قد تبذوا وطرحوا وراء ظهرانيهم الغباوات التى نشرها السوريان » « ويعنون بذلك العاهلين السوريين السابقين لهم . وبهذا الحطّ الشديد من قدْر الإمبراطورين السابقين ، كرّس الأباطرة المقدونيون جهودهم لبعث مدونة يوستنيان إلى الحياة . وتصوّر هؤلاء الأباطرة ، أن فعلتهم هذا قرينة على أصالتهم الرومانية ، مثلما تصوّر إبان القرن التاسع عشر ، المنادون بإحياء المنحى القوطى فى العمارة ، أنهم بالتزامهم أسلوب البناء القوطى ، قد غدوا قوطيين حقاً :

لكن مناط مشكلات حركات البعث والإحياء — وفقاً لطبيعة الأشياء — إنتفاء روح الأصالة منها :

فإنها تختلف عن النوع الأصيل إختلافاً بيّناً ، مثلما تختلف تماثيل الشمع التى يضمّها متحف مدام تيسو Tusseau عن الشخصيات التى تمر عبر الأبواب الدوّارة ليتطلعوا إليها .

وفى التحوّل التشريعى المسيحى الجديد ، تتجلى حبكة الرواية التشريعية فى بعث طَيْفَى « موسى » و « يوستنيان » على التعاقب . ثم ظهرت الرواية — مرة أخرى — على مسرح الغرب ، وأدّى شارلمان فيها دور ليو سيروس :

« يميّز التشريع الكارولنجي . . إنبعاث الوعي الاجتماعي الجديد للمسيحية الغربية ، ولقد كان تشريع الممالك الغربية — قبل ذلك الحين — بمثابة ذيل « مسيحي » للشرائع البربرية القبلية القديمة . أما الآن ، فقد تم الانفصال لأول مرة عن الماضي . إذ سنّت المسيحية قوانينها الخاصة التي استوعبت كافة ألوان النشاط الاجتماعي في الكنيسة والدولة ، وأرجعت الأمر كله إلى مقياس أوحد هو « الكَيْنُف »[١] المسيحي . وهذا أمر لم توح به سابقة جرمانية أو رومانية »[٢] .

بيد أن طيف التعاليم الموسوية قد وفد بقوة في أعقاب رسل المسيح والمبشرين بالإنجيل . حدث هذا في الغرب المسيحي ، مثلما حدث في الشرق الأرثوذكسي :

« لقد منح الأباطرة الكارولنجيون القانون إلى الشعب المسيحي بأسره بروح ملوك العهد القديم وقُضاته ، معلنين شريعة الرب إلى شعب الرب . وفي الرسالة التي وجهها كاثوف Cathauf إلى الإمبراطور شارل في بداية حكمه ، يتكلم الكاتب عن الملك كما لو كان نائب الله على الأرض . وينصح شارل باستخدام سفر شريعة الرب كدستور للحكم ، ووفقاً لشريعة التثنية (إصحاح ١٧ آيات ١٨ — ٢٠) التي توجّه الملك إلى نسخ صورة من الشريعة من أسفار الكهنة ليحتفظ بها معه دائما ، وليداوم الاطلاع عليها ، لعله يتعلم بذلك خشية الرب ويدفعه إلى المحافظة على سننه . وإلا فقد ارتفع الغرور بقلبه إلى موضع أعلى من أخوته ، فيتحوّل تارة إلى اليمين وتارة أخرى إلى اليسار »[٣] .

---

(١) الكَيْنُف Ethos : في الأخلاق والآداب والاجتماع . . الخ . (المترجم)

(٢) صفحة ٩٠

Dawson, Christofrher: Religion and the Rise of Western Culture (London 1960, sheed ■ ward)

(٣) صفحتا ٩٠ — ٩١ من المرجع السابق .

لكن بَعثَ الشريعة الموسوية فى الغرب المسيحى وفى الشرق الأرثوذكسى ، داهمه على السواء بعث مدونة يوستنيان القانونية :

فى غضون القرن الحادى عشر الميلادى ؛ كان لمدرسة التشريع الإمبراطورى التى أنشأتها الحكومة فى القسطنطينية عام ١٠٤٥ ميلادية ، نظير فى الغرب المسيحى بمدينة بولونا Bologna بإيطاليا ؛ حيث انبعثت تلقائياً جامعة تتمتع باستقلال ذاتى ، وخُصصت لدراسة مدونة يوستنيان . ورغما عن الفشل الذى مُنيت به فى الغرب المسيحى – آخر الأمر – عملية إعادة القانون الرومانى إلى الحياة ليقوم بمهمة دعم الإمبراطورية الرومانية التى ابتُعث إلى الوجود ؛ فلقد أمكنها أن تُنجز فى الغرب – بصورة فعّالة – غاية أخرى بديلة ، وهى إحياء نظام يونانى أقدم من القانون الرومانى ؛ ألا وهو الدولة الإقليمية المستقلة ذات السيادة . فكان أن كوّن رجال القانون المدنى المتخرجون من جامعة بولونا وأخواتها من الجامعات الأخرى ، عناصر الجهاز الإدارى ، لا فى « إمبراطورية رومانية مقدسة عقيمة » ، ولكن فى دول إقليمية غربية مستقلة ، ذات سيادة وسطوة . وكانت كفاية هؤلاء القانونيين فى الأعمال التى احترفوها ، عاملا من عوامل الانتصار المتتابع لهذا النظام على جميع الأشكال البديلة للتنظيم السياسى ؛ تلك الأشكال التى لبثت كامنة فى التركيب الاجتماعى الأصيل فى الغرب المسيحى .

وبينما كان خريجو القانون بجامعة بولونا يزوّدون مدن إيطاليا الشمالية والوسطى بالإداريين الذين مكّنت كفايتهم الهيئات البلدية الشعبية من خلع سلطان أمرائهم الأساقفة وبدء عهد من الحكم الذاتى المدنى ؛ كان المشتغلون بالشرائع الدينية يستكملون مدرسة القانون المدنى فى بولونا ، بشقيقة لها لتدريس القانون الكنسى . وتم هذا عقب نشر مرسوم الموسوعة (أعوام ١١٤٠ – ١١٥٠ ميلادية) ، كما أن أساتذة القانون الكنسى قد ساهموا

كذلك فى نمو الدولة الإقليمية العلمانية ، على الرغم من أنهم كانوا يهدفون وجهة مغايرة ، وحقاً ، يُعتبر ما أنجزوه فى هذا السبيل ، من مسخريات التاريخ الكنسية .

ولقد يقال إن البابوية قد استخدمت أساتذة القانون الكنسى أدوات فى حربها الكلامية ضد منافستها العلمانية : الإمبراطوية الرومانية المقدسة ، لكن يناقض هذا القول - ويقدّم صورة أخرى أكثر دقة - تقرير أن أساتذة القانون الكنسى هم الذين استحوزوا على البابوية . فإن جميع البابوات العظام من اسكندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١ ميلادية) - وهو الذى دافع عن حِمَى الكنيسة ضد فردريك بارباروسا - إلى إينوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦ ميلادية) - الذى قدم لعالمه نموذجا مسبقا لما يعنيه الاستبداد البابوى فى محيط السياسة - ثم إينوسنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤ ميلادية) - الذى جابه شيوع التبلّد الذهنى بعدم إكتراث بالقيم يتسم بالعناد ويتفق مع خُلُقه الشخصى - وإلى بونيفاس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣ م) - الذى اصطدم اصطداما مدمراً بالملكيات القوية كفرنسا وإنجلترا ، إن جميع هؤلاء البابوات وغيرهم الأقل أهمية الذين تولوا خلال الفترات الواقعة بين حكم أحدهم والآخر ، لم يكونوا من علماء اللاهوت (أى طلبة الرب) لكن كانوا من القانونيين (طلبة القانون) .

فكان أن ترتبت على ذلك نتيجتان :

الأولى - سقوط الإمبراطورية ،

الثانية - دمار البابوية .

ولم تفق البابوية بعد ذلك قط من النقد الأدبى والدينى الذى أصابها بسبب تزمتها فى اتباع حرفية القانون ، إلى أن مُدت بحياة جديدة بعد - وليس قبل - كارثة الانشقاق البروتستانتى .

إن انهيار الإمبراطورية والبابوية – كليهما – قد مهّد الطريق فى الغرب أمام مواصلة الدول الإقليمية سيرها الحثيث .

(٤) بعث المدارس الفلسفية

يعرض هذا المبحث حركتين من حركات البعث ، عاصرت إحداهما الأخرى – على وجه التقريب – وانبعثت فى طرفين متقابلين من القارة الأوراسية[١] ، وهما :

أولا – إحياء فلسفة العالم الصينى «كونفوشيوس» فى ذلك الفرع من حضارة جنوب شرق آسيا ، وهو مجتمع الشرق الأقصى .

ثانيا – إحياء فلسفة العالم اليونانى «أرسطو» فى الغرب المسيحى .

ولعل المثال الأول ، يُستبعد من محيط المناقشة ، على أساس أن الفلسفة الكنفوشيوسية لم تندرس بالفعل بموت المجتمع الذى أبرزها . ولكنها مرّت بحقبة من السبات .

هذا إلى أن الشيء الذى لا يفنى ، يفقد قدرته على الظهور كـ «طَيْف» .

وإذا كان لا مناص من الإذعان لوجاهة هذا الاعتراض ، لكن لنفترض – جدلا – إمكان التغاضى عنه . فإن الإجراء الذى اتخذه الامبراطور تاى تسونج «Tai Tsung» من أسرة «تانج Tang» فى عام ٦٢٢ ميلادية بإعادة فرض نظام الاختبار – رسميا – فى مؤلفات كنفوشيوس الكلاسيكية كوسيلة لاختيار المرشحين للوظائف العامة فى الإمبراطورية ، إن هذا الإجراء يُمثّل المظاهر الأساسية لحركة بعث . كما أنه يُبرز حقيقة مدارها أن أنصار هذا الإمبراطور وأتباع بوذا ، قد أضاعوا فرصة سمحت لهم – خلال الفترة التى أعقبت عصر الاضطرابات – بالحلول محل أتباع كنفوشيوس . وذلك

---

(١) الأوراسية : الأوربية الأسيوية .

وقتما انهارت مكانة الكنفوشيوسيين بسبب إنهيار الدولة العالمية . إذ كانوا مرتبطين بها ومعبرين عنها :

وإن ما مُنيت به البوذية المهايانية من إخفاق سياسى ؛ يباين التوفيق الذى لازم الكنيسة المسيحية فحصدت بفضله ثماره السياسية فى أوروبا الغربية . فهذا التباين ؛ يُبرز حقيقة مؤداها أن المهايانية — إن قورنت بالمسيحية — كانت ديانة قاصرة ، من الوجهة السياسية .

ولم تفد المهايانية من الرعاية التى أسبغها عليها الأمراء الإقليميون فى شمال الصين خلال فترة طويلة حافلة ، امتدت ثلاثة قرون تلت إنهيار إمبراطورية « تسن T'sin » المتحدة ؛ لم تفد بأكثر مما أفادته من الرعاية المتينة التى أضفاها عليها « كانيشكا Kanishka » إمبراطور كوشن فى عهد سابق . على أنه حالما تحوّل التلاقى — على أرض الشرق الأقصى — بين المهايانا والكنفوشيوسية ؛ من المجال السياسى إلى المجال الروحى ، انعكست مصائر حربهما التى كادت تخلو من سفك الدماء . وينبئنا مصدر حديث صينى ثقة فى الموضوع ؛ بأن « أتباع الكنفوشيوسية المحدثين يلتزمون حرفية مبادئ التاوية والبوذية الجوهرية ، بأكثر مما يلتزمها التاويون والبوذيون أنفسهم »[1] .

فإن انتقلنا من إنبعاث فلسفة كنفوشيوس الصينية فى تاريخ الشرق الأقصى ، إلى إنبعاث فلسفة أرسطو اليونانية فى تاريخ المسيحية الغربية ؛ اتخذت حبكة الرواية وجهة مختلفة . فبينما استسلمت الكنفوشيوسية — وهى فى ثوبها الجديد — روحيا ، للمهايانية ؛ فرضت فلسفة أرسطو الجديدة نفسها على لاهوت الكنيسة المسيحية ، وهى التى اعتبرت أرسطو نفسه — من الناحية الرسمية — مجرد إنسان وثنى .

---

(١) صفحة ٣١٨

Fungyu - lan : A shoat History of the Chinese Philoseaby (new york 1948, macmilla)

وهكذا واجه كل فريق – وهو يتربع على عرشه – خصما لم يكن ثمة ما يزكيه ، سوى مزاياه الكامنة فيه :

١ – فى الشرق الأقصى ؛ خضعت فلسفة الخدمة العامة » إلى دين أجنبى .

٢ – وفى أوروبا ؛ استسلمت عقيدة دينية ثابتة الأركان – وهى المسيحية – لروح فلسفة أجنبية عنها .

لقد أظهر « طيّف » أرسطو فى الغرب المسيحى ، نفس الطاقة الثقافية المذهلة التى أبرزتها المهايانا القائمة فى عالم الشرق الأقصى :

« إن أوروبا (الغربية) لم تستمد من (التقاليد الرومانية) أسلوب النقد وروح البحث المتطلع دائما ، وهما ما جعلا الحضارة الغربية وريثة اليونانيين وخليفتهم . إن المألوف عادة هو تأريخ ظهور هـــذا العنصر الجديد بقيام حركة البعث (الإيطالية) وإحياء الدراسات اليونانية بالقرن الخامس عشر . بيد أن نقطة التحوّل الحقيقية يجب وضعها قبل ذلك بثلاثة قرون . . . ففى باريس على عهد آبيلارد Abelard (الذى عاش بين سنتى ١٠٩٧–١١٤٢) وجون ساليسبرى John Salisbury (الذى عاش حوالى سنتى ١١١٥ – ١١٨٠) كان تعشّق الجدل وروح النقاش الفلسفى قد بدأ بالفعل فى تطوير الجو الثقافى الذى كانت تعيش فيه المسيحية (الغربية) . فكان أن سيطر – منذ ذلك الوقت – أسلوب النقاش المنطقى على الدراسات العليا والبحث والمناظرت العامة . وهذا الأسلوب هو الذى حدد شكل فلسفة العصور الوسطى (الغربية) حتى عند كبار الفلاسفة الذين يمثلونها . ويقول روبرت السربونى (لاشىء يُعلم على وجه الدقة » إذا لم تلكه ألسن المناظرة) ، وإن النزوع إلى إخضاع كل موضوع إلى هذه العملية – يتساوى فى ذلك أكثرها وضوحا وأشدّها غموضا – لم يشجع فحسب على حضور البديهة وإحكام الفكر ، لكنه نمى – قبل كل

شيء — روح النقد والشك المتصل : وإليهما تدين الثقافة الغربية والعلم الحديث ، بالشيء الكثير »[١] .

وإذا كان طيف أرسطو قد دمغ الفكر الغربي وأبعاده بهذا الطابع القوى ، فإنه قد أثر كذلك في جوهره ، تأثيراً عابرا . وإذا كان التأثير هنا أقصر أمداً ، لكنه تغلغل مع ذلك في الأعماق بحيث تطلبت إزالة أثره في نهاية المطاف ، حملة من الكفاح العقلي ، طويلة وشاقة .

فني الصورة الكلية الشاملة للكون (كما تراه أعين الناس في الغرب) ؛ نجد من فكر أرسطو ، أكثر مما نجده من عناصر المسيحية . إن سلطان أرسطو وخلفائه ، هو المسئول حتى عن مظاهر هذه التعاليم التي قد يبدو لنا أنها تحمل شيئاً من المذاق الديني . ومن قبيل المثال :

طبقات السموات ، الأجرام الدوارة ، قوى العقل التي تحرك الكواكب ، ترتيب العناصر وفقا لحتدها ، وجهة النظر القائلة بتكوّن الأجرام السماوية من جوهر خامس لا يحوّل ؛

وفي الحق ؛ إن وسعنا القول بأن أرسطو — أكثر من بطليموس — هو الذي كان ينبغي أن يُخلع سلطانه خلال القرن السادس عشر ، وأن أرسطو كان العقبة الكأداء التي واجهتها نظرية كوبرنيقوس »[٢] .

---

(١) صفحتا ٢٢٩ و ٣٠ Dawson , Christobher : Religion and Rise of Western Culture (Leudon 1950, shesd and ward

(صفحتا ٢١ – ٢٢ Butterfield, H. : The Origins of modern Science, 1300, London 1949, Bell

(٢) نيقولاى كوبرنيقوس ، مؤسس علم الفلك الحديث (١٤٧٣ – ١٥٤٣) — ولد في ثورن ببروسيا الشرقية ، وكانت وقتذاك جزءا من بولندا . ولقد أيد نظرية الفلاسفة الفيثاغوريين (أتباع فيثاغورس) القائلة بأن الأرض تدور حول الشمس . وتعتبر أبحاث كوبرنيقوس الأساس الذى بنى عليه جاليليو نظريته ثم نيوتن من بعده .
(المترجم)

وحين عادت عبقرية الغرب الأصيلة تؤكد وجودها خلال القرن السابع عشر المسيحي وترتاد مختلف جوانب الطبيعة — وفقا للخطوط التى رسمها بيكون Bacon — كان اللاهوت الكنسى قد وقع فى أحابيل آراء أرسطو ؛ إلى درجة أن جيوردانو برونو Geordano Bruno(1) قد أضاع حياته ، وأن جاليليو Galileo(2) تعرض لرقابة الكنيسة بسبب ما نسب إليهما من إعتناق بدع علمية ، ولم تكن لها آية صلة على الإطلاق بالديانة المسيحية كما وردت فى العهد الجديد .

وقبل أن يحل القرن السابع عشر الميلادى ، هاجم رجال العلم والفلاسفة الغربيون فيما وراء الألب ؛ هاجموا فلاسفة القرون الوسطى (المدرسيين) لخضوعهم لأرسطو — طاغيتهم كما لقبه بيكون — فى حين حمل « الإنسانيون » الإيطاليون فى القرن الخامس عشر على هؤلاء « الفلاسفة » لسوء تعبيرهم باللاتينية .

---

(١) جيوردانو برونو : فيلسوف إيطالى (١٥٤٨ — ١٦٠٠) كان فى الأصل قسيسا . لكنه اضطر إلى الفرار لما نسبته إليه الكنيسة من آراء تخالف الدين فى نظرها . واستقر به المطاف محاضرا بجامعة تولوز بفرنسا ثم بجامعة باريس حيث لاقى معارضة شديدة من أساتذتها نظرا لمهاجمته آراء أرسطو . فكان أن غادر باريس إلى لندن ثم إلى أكسفورد « ثم غادر إنجلترا إلى فرانكفورت بألمانيا . وعاد إلى إيطاليا عام ١٥٩٢ فجاهر بمعارضته لفلسفة أرسطو ، وقبض عليه وأرسل إلى روما حيث حكمت عليه المحكمة البابوية بالمروق عن الدين . ولما رفض التخلى عن آرائه أحرق .

ومدار فلسفته : تطابق الله والكون . ويتفرع من هذا فكرة أن الروح لا يمكن أن توجد إلا فى مادة ، وأن الخليقة بأسرها حياة واحدة تتألف من أعضاء عديدة حية ، تعبر فى وجودها الروحى والجثمانى النهائى خالدة « وأن الله هو الذى يبث من نفسه نسمة الحياة فى الجميع .

وقد أثرت تعاليم برونو فى الفلاسفة الذين تلوه وبخاصة ديكارت وسبينوزا وليبنيتز . وفى عام ١٨٨٩ أقيم له تمثال بمدينة روما فى نفس المكان الذى أحرق فيه . (المترجم)

(٢) جاليليو (١٥٦٤ — ١٦٤٢) : فيلسوف وفلكى إيطالى تجريبى . ونظراً لمخالفة الكثير من نظرياته العلميه لما ورد فى الإنجيل والتوراة ، فقد قبضت عليه السلطات ورحلته إلى روما حيث أجبر على المجاهرة بفساد نظرياته بشأن دوران الأرض حول الشمس وثبات الشمس وتعاقب الليل والنهار . ووضعته الكنيسة تحت المراقبة بقية عمره . (المترجم)

لكن لاهوت أرسطو ، كان دليلا ضد الهازئين بأصحاب العلم على الأسلوب القديم . ومن الحق أن هؤلاء النقّاد اشتقوا من اسم العلامة الأرسطى الماجد « دونز سكوتس Dunsscotus » الكلمة النابية « مدّع dunce » . ولا تعنى الإنسان الجاهل ؛ بل تعنى الرجل المتعصب لنظام تعليمى عقيم . ولكن نهاية « الإنسانيين » قد أزفت وقت كتابة هذه السطور . فنى خلال القرن العشرين — حين ظهر أن العلم الطبيعى والتكنولوجيا يسوقان كل شيء أمامهما — يبدو أن من الضرورى البحث عن « المدّعين » فى نطاق البقية التى تتضاءل يوما بعد آخر من « أصحاب التراث القديم » الذى كان — وقتا ما — فى أوج سلطانه .

(٥) بعث اللغات والمصنفات الأدبية

اللغة الحية — أساسا — هى أداة الحديث وهذا هو ما تظهره الحقيقة القائلة بأن « الكلمة » نفسها ، مشتقة عن لفظ لاتينى يعنى « لسان » ؛ وما الثروة الأدبية إلا نتاج جانبى للكلمة .

ولكن عندما نبعث — من الموت — لغة وآداب مندرسة ؛ فهاهنا تنعكس العلاقة بين الاثنين . ذلك لأن تحصيل اللغة ، يصبح مجرد أداة صعبة تستلزمها مطالعة المصنفات الأدبية . فإذ نتعلّم باللاتينية « أيتها المائدة » لانستحوز بهذا على ذخيرة لفظية جديدة نعبّر بها عن إحساساتنا وقتما يصطدم إصبع قدمنا فى الظلام بقائمة المائدة . لكن تعلّمنا هذه الجملة ، هو الخطوة الأولى وأقصرها ، صوب الهدف البعيد لقراءة أعمال فرجيل Virgil وهوراس Horace وبقية المصنفات الأدبية اللاتينية القديمة . وبالأحرى ؛ لا يُقصد بتعلم اللغة اللاتينية ، التحدُّث بها . وعندما نحاول كتابتها ، فنحن لانفعل ذلك ، إلا لنزداد تقديرا لأعمال الجهابذة الأقدمين .

ولعل الخطوة الأولى لتملّك ناصية أدب قديم دارس ، تتطلب العمل على تعبئة الموارد السياسية لإمبراطورية على قيد الحياة بالفعل .

والنموذج الرائع لحركة بعث أدبي فى مرحلتها الأولى ، ماثل فى :

وضع مختارات شعرية ، أو مجموعة نصوص ، أو كتاب يضمّ عدة موضوعات ، أو موسوعة يُصنّفها فريق من الأساتذة تلبية لطلب أمير . والأمير الذى ينهض لرعاية هذه الأعمال التى تقتضى تعاونا فى البحث ؛ غالبا ما يكون حاكما لدولة عالمية فتيّة ، كانت — هى نفسها — نتاج حركة بعث ، على الصعيد السياسى . ومن بين الحكام الخمسة البارزين الممثلين لهذا الأنموذج :

آشور بانيبال Asshur Banipal قسطنطين بورفيروجنيتس Prophyrog-nitus ، يونج لو Yung Lo ، كانج هسى Kang Hsi ، تشين لونج Chien Lung ؛ نجد الأربعة الأخيرين ، من النوع الذى ذكرنا . فقد بزّ أباطرة الدولة العالمية الصينية التى بُعثت فى الشرق الأقصى ، منافسيهم جميعا ، فيما قاموا من جمع الأعمال الأدبية القديمة المندرسة ، وتحقيقها والتعليق عليها ونشرها .

حقاً ؛ خفيت على علماء الآثار المحدثين ، حقيقة إتساع مكتبتى آشور بانيبال (وكانت تتكون من الألواح الطينية وتضم الأعمال الأدبية السومرية والأكّادية الكلاسيكية) . وإن علموا نبأ تجمّع هاتين المجموعتين الأشوريتين الكبيرتين وتبددهما ، بفضل استخلاص طائفة من هذه الألواح أثناء أعمال التنقيب التى مارسوها فى موقع مدينة نينوى Nineveh . وسبب ذلك ؛ أنه فى خلال فترة — لعلها لاتزيد على ستة عشر عاما — منذ وفاة هذا الملك العالم ؛ تفرّقت بدداً محتويات هاتين المكتبتين على خرائب تلك المدينة البغيضة التى أُجْتيحت واستُبيحت عام ٦١٢ ق . م .

ولقد تكون مجموعة آشور بانيبال أضخم حجما من مدونة كنفوشيوس ، وهى عماد المصنفات الأدبية الكلاسيكية الصينية ودعامتها . ولم تُطبع أعمال هذا الفيلسوف بسهولة على الطين الرقيق ؛ بل حُفرت بجهد بالغ على الحجر الصلد بمدينة سينجان Si Ngan العاصمة الإمبراطورية لأسرة تانج Tang ، بين عامى ٨٣٦ و ٨٤١ ميلادية . ثم طبعت بعد ذلك بمائة عام — مع التعليق — فى طبعة تقع فى مائة وثلاثين مجلدا . ومع ذلك ، ففى وسعنا أن نحرز بشىء من اليقين ، أن عدد الحروف فى مجموعة آشور بانيبال ، كان يقل كثيراً عن عدد الحروف الصينية التى تحتويها المجموعة التى جمعها — خلال أعوام ١٤٠٣ — ٧ ميلادية — يونج لو Yung Lo ، ثانى أباطرة أسرة مينج . فإن هذه المجموعة ، لا تقل عن ٢٢٫٨٧٧ كتابا تقع فى ١١٫٠٩٥ مجلدا ، عدا فهرس المحتويات . فإذا قورنت بها مجموعة الإمبراطور البيزنطى قسطنطين بورفيروجنيتس (حكم ٩١٢ — ٥٩ ميلادية) لبدت المجموعة الأخيرة شيئاً تافها ، وإن أسرت ألباب الغربيين .

فإذا انتقلنا من هذه الجهود المبتذلة ، إلى خيلاء طالب العلم بقدرته على إنتاج مُصنفات يحاكى بها المصنفات الكلاسيكية التى كرّس لدراستها جهوده ، فأجدر بنا ترك الأمر إلى الإحصائيين ليقرروا ما إذا كان عدد المقالات التى حررها بالأسلوب الصينى القديم ، المرشحون لإمتحانات الحكومة الإمبراطورية الصينية فى غضون ١٢٨٣ سنة ؛ تقع بين إعادة نظام الامتحان عام ٦٢٢ ميلادية وإلغائه عام ١٩٠٥ ميلادية ، أكثر أو أقل من عدد تمارين النثر والشعر اللاتينى واليونانى ، التى كتبها الباحثون وتلاميذ المدارس فى الغرب خلال فترة تقع بين القرن الخامس عشر وتاريخ كتابة هذه السطور .

على أنه ليس فى وسع الغرب أو الشرق الأقصى ، أن يُقاس مجهودهما فى إستخدام اللغات القديمة التى بُعثت فى الأغراض الأدبية الجادة ، بالمجهود الذى بذله المؤرخون البيزنطيون . ومنهم أساطين فى فنهم مثل : ليو دياكونوس

Lao Diaconus مؤرخ القرن العاشر ، وأنا كومنينا Anna Comnena مؤرخة القرن الثانى عشر ، اللذين جعلا من لغة آتيكا اليونانية ، أداتهما فى الإبداع الأدبى .

ولربما يقرّ فى ذهن القارئ أن ملاحظاتنا عن حركات بعث المصنفات الأدبية ، لا يتأتى تطبيقها على حالة البعث الأدبى البحت . وحركة البعث فى هذا المقام ، هى التى تشغل مكان الصدارة فى تفكيره . ويقينا ، كانت حركة البعث الإيطالية للآداب اليونانية خلال فترة العصور الوسطى — فى جوهرها — حركة بعث تلقائية غير مُدبَّرة . ولا تُنكر الرعاية التى أسبغها عليها كبار الساسة من أمثال لورنزو دى مديشى ، وإن كان لا يمكن بخس قيمة رعاية بابوات القرن الخامس عشر لها ، وبالأخص البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ — ٥٥ ميلادية) . ولقد استخدم هذا البابا مئات من الباحثين فى الآداب القديمة ونسّاخ المخطوطات القديمة ، ومنح عشرة آلاف جولدن Gulden[1] لترجمة أعمال هوميروس إلى الشعر اللاتينى ، كما جمع مكتبة ضمّت تسعة آلاف مجلّد .

ومع ذلك ، فلو تركنا لفكرنا العنان ليعود القهقرى عبر التاريخ الغربى — خلال عدة قرون سابقة لعصر النهضة — فإننا لواجدون أمثلة تشابه كثيراً تلك التى ما برحنا ندرسها . سنجد شارلمان باعث الحياة لدولة عالمية منتمية لحضارة بادت ، وهو يسعى لأن يقف جنبا إلى جنب مع : آشور بانيبال ، ويونج لو ، وقسطنطين بورفيروجنيتس .

ولقد كانت المحاولة العقيمة الأولى لبعث التراث الأدبى اليونانى فى الغرب المسيحى ، معاصرة لميلاد الحضارة المسيحية الغربية . وتدين الكنيسة الإنجليزية بأسلوب تنظيمها فى نهاية القرن السابع ، إلى لاجئ يونانى من أرض مسيحية أرثوذكسية شرقية غزاها الأتراك العثمانيون . ذلك هو رئيس الأساقفة

---

(١) الجولدن : عملة ذهبية ، كانت تستخدم فى ألمانيا وهولندا . (المترجم)

تيودور الطرسوسي . أما الداعية لبعث التراث اليوناني في الغرب ، فكان من نورثمبريا[١] وهو الأب « بيد Bede » (٦٧٣ — ٧٣٥ ميلادية) . وحمل نورثمبري آخر : آلكوين من يورك Alcuin of york (٧٣٥ — ٨٠٤) البذرة إلى بلاط شارلمان . وقبلما تُسحق هذه البذرة قبل الأوان على يد المتبربرين الوافدين من اسكندناوه ، لم يكن غارسوها قد اقتصروا على بدء إحياء الأدبيات الهلينية في ثوبها اللاتيني ؛ بل كانوا قد حازوا أيضاً قسطاً من اللغة اليونانية . إن آلكوين Alcuin كان من الجرأة ، بحيث راح يحلم بأن في وسعه — معتمداً على رعاية شارلمان — أن يستحضر شبح أثينا على أرض الفرنجة ؛ وكانت تلك الفكرة ، رؤيا عابرة . وعندما أخذ الغرب المسيحي يخرج من غمار ما كان يُدعى بـ « ظلمة القرن التاسع » ، لم يكن الطيف المنشود ، طيف الأدبيات اليونانية الكلاسيكية ، ولكن كان طيف أرسطو وفلسفته . وحلّ عصر « المدرسين » وانتهى ، قبل أن تتحقق رؤيا آلكوين Alcuin » .

فإذا وقفنا عند هذه النقطة لندرس الأسباب التي أخرت تحقيق آمال « آلكوين » وأصدقائه عدة قرون ، تبين لنا اختلاف بين المتلاقين في المكان — وهو ما كرسنا له المبحث السابق من هذه الدراسة[٢] — واختلاف آخر بين المتلاقين في الزمن ، وهو موضع بحثنا الحاضر .

إن تلاقيا في المكان ، هو تصادم في المكان . والمصادمات هي — عادة — أحداث عارضة . إن البسالة العسكرية أو الحذق في خوض المحيطات أو تجفيف السهوب ، قد تكون عوامل ثقافية غير مباشرة تؤدي .

---

(١) نورثمبريا : مقاطعة كانت تقع في انجلترا شمال نهر همبر Humber الذي يقع بدوره على الساحل الشرقي لانجلترا بين يوركشير شمال ولينكولنشاير جنوبا . (المترجم)

(٢) انظر صفحات ٢٦٥ — ٤٣٨ من الجزء الثالث من هذه الترجمة . (المترجم)

إلى إصطدام مجتمع بآخر . مع ما يترتب على ذلك من نتائج ثقافية ، سبق لنا وصفها[1] .

ومن الناحية الأخرى ؛ فإن تلاقيا فى الزمان (ومداره حركة بعث) ؛ نوع من « العرافة » يقوم على استحضار « طيف » ؛ ولم ينجح العرّاف فى استحضار الطيف حتى يحذق مهارات حرفته . وبكلمات أخرى ؛ ما كان فى وسع الغرب المسيحى استقبال طَيْف (أو ضيف) يونانى ، إلا بعد أن يُعِدَّ داره لاستقبال الزائر . لقد كانت المكتبة اليونانية — من الناحية المادية — قائمة فى جميع الأوقات ، لكن لم يكن فى وسع الغرب الإفادة منها بصورة فعّالة ؛ إلى أن أصبح كفوءاً للاطلاع على محتوياتها .

ومن قبيل المثال : كان المجتمع المسيحى فى الغرب — حتى فى أحلك أيام العصور الوسطى — يملك فعلا أعمال فيرجيل . وكان يحتفظ من اللاتينية بقدر يمكّنه من تفسير عبارات الشاعر . لكن مضت ثمانية قرون — على الأقل — من السابع إلى نهاية القرن الرابع عشر ؛ كان شعر فرجيل خلالها فوق أفهام أعلى الدارسين المسيحيين فى الغرب ، كعباً . وذلك إذا اتخذنا مقياساً للفهم ؛ القدرة على إدراك المعنى الذى قصد فرجيل تضمينه شعره ، والذى كان مفهوما لدى المعاصرين من لدّاته ولدى الأعقاب التالية ، حتى جيل القديس أوغسطين . فحتى دانتى Dante — الذى لاح على روحه أول بصيص لحركة بعث إيطالية للثقافة اليونانية — وجد فى فرجيل شخصية ، لا يعتبرها فرجيل الحقيقى تمتّ إلى شخصه ؛ لكنها تمتّ إلى شخصية أخرى أسطورية مُهيبة ، مثل شخصية أورفوس Orpheus .

وبالمثل ؛ أتى على المجتمع الغربى حين من الدهر جهل فيه أعمال

---

(١) انظر صفحات ٤٠٧ — ٤٥٥ من الجزء الأول من هذه الترجمة ، وصفحات ١ — ١٤٠ من الجزء الثانى منها .

أرسطو الفلسفية ، حتى ترجمها إلى اللاتينية — ترجمة مقتدرة — آخر علماء الأدبيات الهلينية « بويثيوس Boethius » (٤٨٠ — ٥٢٤ ميلادية) . ومع ذلك ، فقد أتى حين من الدهر بلغ ستة قرون — تبدأ من وفاة بويثيوس — أصبحت ترجماته فوق مستوى أفهام أعظم المفكرين المسيحيين الغربيين حذقا . وعندما أصبح المسيحيون الغربيون — فى النهاية — على استعداد لفهم أرسطو ، وصلوا إلى فلسفته عن طريق غير مباشر : عن طريق التراجم العربية ؛ وكان « بويثيوس » عندما قدّم إلى الغرب المسيحى فى القرن السادس ترجمة لاتينية لأعمال أرسطو ، كان بمثابة عمّ خيّر ، ولكنه لا يحسن تقدير الأمور . فكأنه يقدّم أشعار ت . س . أليوت T.S. Eliot إلى ابن أخيه هدية فى عيد ميلاده الثالث عشر ، فما كان من الصبي — بعد أن ألقى نظرة على الكتاب — إلا أن أودعه أظلم ركن فى مكتبته الصغيرة ، ثم نسى تماماً كل شيء عنه . وبعد انقضاء ست سنوات — وهى فى حياة الصبي المراهق تعدل ستة قرون فى عمر الأمم — يعود الشاب (وقد تخرّج من أكسفورد) إلى الإتصال بهذه الأشعار مرة أخرى ، فيقع أسير فتنتها ، فيشتريها من السادة ب . ه . بلاكويل B.H Blackwell[1] . ثم تتملكه الدهشة ، إذ يكتشف عند عودته لمنزله فى أجازته السنوية ، أن الكتاب ظل قائماً على رفوف مكتبه طوال هذا الوقت .

وكما كان الحال مع فرجيل وأرسطو ؛ كان كذلك بالنسبة لروائع الأدب اليونانى التى تكدّست فى المكتبات البيزنطية ، ثم كانت الغذاء الأساسى لحركة البعث الإيطالية للثقافة الهلينية . فقد ظل الغرب المسيحى على اتصال وثيق بالعالم البيزنطى طوال فترة بدأت على الأقل من القرن الحادى عشر وما تلاه . وكان الغزاة الفرنجة فى النصف الأول من القرن

(١) من أكبر دور النشر البريطانية . (المترجم)

الثالث عشر ، يحتلون فعلا القسطنطينية واليونان . ولكن ذلك الاحتلال لم يتمخّض عن مؤثرات ثقافية فى ذلك الوقت . إذ كانت الأدبيات القديمة – إذ ذاك فى عرف الغرب – ترفا ، غاية الترف . وقد يقال فى تفسير هذه الظاهرة ، أن اتصال الغرب بالإمبراطوارية الشرقية – وقتذاك – كان اتصالا عدائيا ، لم يكن من شأنه أن يُغرى الغرب بالاهتمام بالمكتبة البيزنطية الحافلة بالأدبيات اليونانية . على أنه يرد على هذا الرأى بأن الاتصالات السياسية والكَنَسية ، لم تكن بأقل عداء فى القرن الخامس عشر ، أى حينما كانت « حركة النهضة » فى أوج إزدهارها . والسبب واضح ؛ فى تباين النتائج الثقافية . فإن بعث ثقافة بائدة ؛ لا يتم إلا عندما يَرقى مجتمع – يمتّ إلى مجتمع سابق بصلة النسب – إلى المستوى الثقافى الذى كان عليه سلفه ، حين حقق تلك الروائع التى أصبح بعثها من جديد ، موضع اهتمام .

فإذا ما تطلعنا إلى الثقافات الدفينة التى بعثها حركات النهضة الأدبية فى الغرب المسيحى والصين ، وجدناها تتمتع بنفوذ عارم دون مقاوم ، جرّدها منه عنصر دخيل أجنبى أثبت تفوقه . وتمثّل هذا الدخيل فى هيئة حضارة غربية حديثة سيطرت على روح الغرب المسيحى خلال القرن السابع عشر الميلادى ، وعلى روح الصين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

وقد تُرك المجتمع الغربى يصارع وحده « طَيْف » الثقافة اليونانية الذى (استحضره) المتشبّث به ، دون تدخل من أحد . ولكن « حرب الدعاية » التى نُشبت فى نهاية القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر ، أظهرت الطريق الذى تهب منه الريح . وهى حرب أطلق عليها « سويفت

Swift ،[1] حرب الكتب . وكان المتنازعون خلالها يتجادلون حول فضائل «القدماء» وفضائل «المحدثين» . ويبدو أن القضية موضع الجدل ، تدور حول ما إذا كان قد قُدّر للثقافة الغربية أن تظل فى موضعها ثابتة لا تريم، يشل تطورها إعجاب بالماضى ونزعة إلى محاكاة القدامى ؛ أو قدّر لها أن تمضى قُدُما نحو المجهول ، مخلّفة وراءها آراء الأقدمين .

هذا السؤال بهذه الصيغة « لا يحتمل إلا رداً واحداً معقولا . لكن السؤال نفسه قد ادّعى صحة أمر سابق ، بغير إقامة البرهان على صحته :

ومداره ما إذا كان الإعجاب بالماضى ومحاكاة القدامى (وهو ما يمكن تسميته بالتعليم التقليدى الغربى الحديث فى أوسع معانيه) قد عوّق بالفعل حركة التطور الحديث .

وضح أن الإجابة عن هذا السؤال ، فى مصلحة القدامى . ومما له دلالته ، أن بعضا من رواد الدراسات الهلينية ــ كبترارك Petrarch وبوكاشيو Boccacio ــ كانوا طلائع فى الآداب الإيطالية الدارجة . وبدلا من أن يعوّق بعث الدراسات اليونانية نمو هذه الآداب الإيطالية الدارجة ، أمدّتها بقوة دافعة جديدة . ومصداقا لهذا الرأى ؛ إن تملّك إرازمس Erasmus للاتينية على أسلوب شيشرون ، لم يفتن رفاقه فى الغرب عن العناية بلغاتهم الوطنية . ويستحيل ــ إطلاقا ــ تقويم الرباط الثقافى ــ مثلا ــ للعلّة والمعلول بين الدراسات الإنجليزية للأدبيات الهلينية خلال القرن السادس عشر ، وتفجّر شعر إنجليزى لا مثيل له فى تألّقه ؛ فى نهاية القرن نفسه .

فهل عاونت شكسبير على تأليف مسرحياته ، حصيلته الضئيلة من اللاتينية وبضاعته الأضأل منها من اليونانية ؟

---

[1] جوناثان سويفت (١٦٦٧ – ١٧٤٥) : كاتب إنجليزى ساخر . وفى طليعة مؤلفاته « حرب الكتب » وألفه عام ١٦٩٨ . وفى عام ١٧٠٥ نشر كتابه « قصة البرميل » . وأشهر ما كتبه « رحلات جوليفر » التى نشرها عام ١٧٢٦ . (المترجم)

من سيقول بهذا ؟

لعله يُظن أن ميلتون قد استحوز على قدر أعظم من اللاتينية واليونانية ؛ ولكن، لولم يُقيّض له قسط من اللغتين ، ما قُدّر أن يكون عندنا « الفردوس المفقود ولا « آلام شمشون » .

٦ - بعث الفنون المرئية

من الظواهر المألوفة ، حركة بعث نوع أو آخر من الفنون المرئية المنتمية لحضارة بائدة ، فى تاريخ الحضارة التى تخلفها . وفى وسعنا أن نسرد كأمثلة :

١ - بعث أسلوب « الدولة القديمة » فى النحت والتصوير ، بعد انقضاء ألفى سنة ؛ وذلك خلال العصر الصاوى فى أواخر أيام التاريخ المصرى ، إبان القرنين السادس والسابع قبل الميلاد .

٢ - بعث الأسلوب السومرى فى الحفر خلال القرون : التاسع والثامن والسابع قبل الميلاد « فى العالم البابلى ؛

٣ - بعث الأسلوب الهلينى للرسوم المحفورة - على صورة مصغرة - خلال القرون : العاشر والحادى عشر والثانى عشر الميلادية . وكانت أدق أمثلتها ، الطرائف التى صنعت فى آتيكا خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد . وكان أن استُخدم هذا الأسلوب فى الحفر على العاج البيزنطى ذى الطبقتين .

على أن هذه الحركات الثلاث ؛ لا تمكن مقارنتها - سواء فى مدى إتساعها أو فى قوة تجرّدها من تأثير العناصر السابقة - ببعث الفنون المرئية اليونانية فى الغرب المسيحى . وقد ظهرت للمرة الأولى فى إيطاليا فى أواخر العصور الوسطى ، ومنها انتشرت إلى سائر أنحاء العالم الغربى :

وتجلّى هذا الاستدعاء لطيف الفنون المرئية اليونانية فى مجالات ثلاثة :

العمارة ، النحت والرسم . وبلغ من قوة اكتساحها فى كل مجال ، أنه – حتى عندما استنفدت طاقته – تلا ذلك نوع من الفراغ الجمالى[1]. فوقع الفنانون الغربيون فى حيرة فى كيفية التعبير عن عبقريتهم الوطنية التى ظلت مغمورة أمداً طويلا .

ونفس القصة العجيبة لدار نظمتها وزخرفتها الأيدى القوية لأطياف زائرة، يجب ذكرها عند ورود سيرة هذه المجالات الثلاثة للفنون المرئية الغربية. لكن أعظم قصة خارقة للعادة من تلك القصص الثلاث ، تتمثل فى انتصار التأثير اليونانى على عبقرية الغرب الوطنية فى مجال النحت (بين كل الجوانب) . فى هذا المجال ، أنتج الفنانون الفرنسيون الشماليون من القرن الثالث عشر – الذين كانوا يعبرون عن الأسلوب الغربى الأصيل – روائع تقف نداً لخير ما أنتجته مدارس النحت اليونانى والمصرى والمهايانى البوذى ، ولكن لم يقيّض للفنانين الغربيين فى مجال الرسم ، أن يتخلّصوا من القوامة التى فرضها عليهم فن الرسم الأسبق الذى اعتنقه المجتمع المسيحى الأرثوذكسى ، شقيق المجتمع المسيحى الغربى . أما فى ميدان العمارة ، فإن الطراز الرومانى ، لم يكن – كما تدل عليه علامته المميزة فى أخريات أيامه – إلا انحرافا عن منهج موروث عن العصر الأخير لحضارة هلينية سابقة . وقد تغلّب عليه طراز قوطى دخيل ، نشأ – كما قررنا من قبل – فى العالم السورى : عالم الخلافتين العباسية والأندلسية .

وما يزال ساكن لندن من المستنيرين فى القرن العشرين ، يؤمن فى قرارة نفسه بأن الصراع الدرامى – فى ميدان الفن – بين الفن المرئى الغربى الوطنى الذى منى بالهزيمة مرتين ، وبين الفن المرئى السورى والهلينى ، هذا الصراع لا يزال قائماً ماثلا – وإن تحوّل إلى الحجر – فى عمارة الكنيسة

---

(١) الجمالى : ذو العلاقة بحس الجمال . (المترجم)

التي أضيفت إلى كاتدرائية وستمنستر برعاية الملك هنرى السابع » وما تحويه تلك الكنيسة من تماثيل :

١ - يدل السقف المقبب على انتصار أخير لطراز قوطي مختصر .

٢ - في الكنيسة حشد من الوجوه الحجرية تنتصب في أعلى مكان بها ، وتحدق تجاه شعار يصطبغ بالصبغة الإيطالية ، ويمثل الثالوث الأقدس .

٣ - أقيمت بأسفل الشعار ، تماثيل مستلقية على قبور تحمل طابعاً فنياً يونانياً .

٤ - نجد تمثال بجعة تشدو بأغنية صامتة تصدر عن شفتين جامدتين : وهذه تمثل - بدورها - مدرسة فنية تنتسب إلى العمارة الوطنية في الغرب المسيحى ؛ وهي مدرسة وفدت من بلاد ما وراء الألب .

٥ - تستأثر روائع « توريجيانى Torrigiani » (١٤٧٢ - ١٥٢٢ ميلادية) ذات الصبغة الهلينية ، بوسط المسرح الفني .

وكان هذا الفنان المهاجر من فلورنسا ، قد تطلع في همة وثقة ، إلى تنفيذ عمله الكفء المهذب - متجاهلا في إزدراء الوسط الفظ الذى تواضع بالعمل فيه - راجيا أن تغدو أعماله من بعده ، مطمح جميع أنظار الناس فيما وراء الألب . ذلك لأننا نعلم من السيرة التي وضعها بنيفينتو سيلليني Benevento Cellini لنفسه ، أن توريجيانى هذا كان « شخصا متعجرفا حريصا على التباهي بين أولئك الإنجليز الوحوش[1] » .

وصفوة القول ، استمرت العمارة القوطية محتفظة في لندن بمركزها المرموق حتى الربع الأول من القرن السادس عشر ، وفي أكسفورد حتى النصف الأول من القرن السابع عشر . وكانت قد أقصيت عن الميدان

---

(١) صفحة ١٨ من الفصل السابع من الكتاب الأول Benevenito Cellini : Autobiography - English Translation by J. A. Symonds .

قبل ذلك بوقت طويل فى شمال إيطاليا ووسطها ، حيث لم تنجح قط نجاحا حاسما ، كما نجحت فى أوربا فيما وراء الألب ، فى إزاحة طراز البناء الرومانى عن مكانته .

وإن الإجداب الذى أصاب العبقرية الغربية بتأثير بعث الطراز اليونانى فى ميدان العمارة ، ظهر فى فشل هذه العبقرية فى الإفادة من نتائج الثورة الصناعية . على أن التغير المفاجئ فى الأسلوب الفنى الذى اقترن بالثورة الصناعية ، قد استولد الرافدة الحديدية : فكان أن وقعت فى يدى مهندس البناء الغربى ، مادة بناء تتعدد أوجه استعمالها ، تعدداً لا يقاس إليه شىء آخر . وتمّ هذا وقتما استُنفد أسلوب البناء الهلينى التقليدى بشكل واضح . ومع ذلك ، فإن المهندسين المعماريين الذين مثّلهم الحداد مع عارضة حديدية ، لم يفكروا فى وسيلة لملء الفراغ فى الوقت المناسب ، أفضل من تتويج حركة بعث هلينى بـ « حركة إحياء فنية قوطية » .

وكان أول من فكّر من الغرب – صراحة – فى الإفادة من العارضة الحديدية – دون أن يُضفى عليها شكلا قوطياً يخفى غلاظتها – هاوياً رُزق سعة الخيال ، ولم يكن مهندساً محترفاً . ورغماً عن كونه مواطناً أمريكياً ، وكان البوسفور – لا ضفاف المدسون – هو الموقع الذى شاد عليه بنايته التاريخية : تلك هى « قائمة هاملين » التى كانت النواة التى قامت حولها كلية روبرت التى تُشرف على قلعة محمد الفاتح على الجانب الأوربى ؛ وقد شيّدها سيروس هاملين Cyrus Hamlin خلال أعوام ١٨٦٩ – ٧١ . على أن هذه البذرة التى وضعها « هاملين » لم تبدأ تؤتى ثمرتها فى أمريكا الشمالية وأوربا الغربية ، إلا فى غضون القرن التالى .

ولم يكن إمحال العبقرية الفنية الغربية بأقل وضوحاً فى ناحيتى الرسم والنحت :

فنى خلال فترة تزيد على الخمسمائة عام – تبدأ من جيل جيوتو

Giotto (توفى عام ١٣٣٧ م) معاصر دانتى Dante — استخدمت مدرسة حديثة للرسم فى الغرب ، المرة بعد الأخرى ، أساليب متعددة لنقل الانطباعات البصرية التى يُحدثها الظل والضوء . ولا شبهة فى أن هذه المدرسة تقبّلت الفن الهلينى فى مرحلة تطوره الأولى ، أى وقتما استوحى من الطبيعة مُثُله العليا . ولما تيسّر اختراع الفوتوغرافيا ، تزعزعت قيم الجهود المضنية التى بذلها رسامو النهضة لإبراز التأثيرات الفوتوغرافية عن طريق استعانتهم بأساليب الرسم الفنية .

وهكذا ، بعد أن مادت الأرض تحت أقدام الرسامين البندويين بسبب مستحدثات العلم الغربى ، لجأوا إلى إحياء أسلوب فنى ، كان قائماً قبل عصر رافاييل . وكان هذا الأسلوب شائعاً إبان العصر البيزنطى ، وتبرأ منه فنانوه منذ وقت طويل . وتلك مرحلة فنية طرقها الرسامون المحدثون قبل تفكيرهم فى ارتياد عالم النفس الجديد . وقد هيأ لهم علم النفس مرحلة فنية اقتحموها فعوّضتهم عن عالمهم القديم : عالم الهيئة الطبيعية ، الذى اختلسه منهم المصور الفوتوغرافى ، وقدّمه للناس .

وبهذا برزت إلى الوجود مدرسة ملهمة تضم بين طيّاتها المصورين الذين ابتكروا فناً أصيلاً ، قوامه استخدام الرسم — بلا موازبة — للتعبير عن التجارب الروحية — وهم فى نطاق الحدود التى تجعلهم وسطا بين تطور العمارة والرسم — فقد بدأوا يرتادون تلك التجربة المثيرة نفسها .

٧ — بعث النظم والمُثُل العليا الدينية

بقدر ما كانت العلاقة بين المسيحية واليهودية واضحة لليهود وضوحاً يلعنونه ، كانت غامضة للضمائر المسيحية غموضاً مربكاً .

وبعبارة أوضح ، كانت العقيدة المسيحية فى أعين اليهود ، نحلة يهودية مارقة . ويقررون أنها — بشهادة الإضافة التى أُقحمت على

التوراة[١] ؛ قد ارتكبت إثماً ضد تعاليم الفريسى الجليلى الضال السيئ الطالع ، الذى اتخذ الخونة للفريسية[٢] اسمه باطلا . وينظر اليهود إلى نجاح المسيحية فى السيطرة على المجتمع الهلينى – بما يشبه المعجزة – على أنه ليس بأى حال من الأحوال ، من فعل الرب . وإن الانتصار الذى حازه حاخام يهودى بعد وفاته – على قول اليهود – وكرّمه أتباعه بأسلوب الاميين[٣] كإبن الله من أم بشرية ؛ كان هذا الانتصار فكرة وثنية من نوع الانتصارات الأولى لأنصاف الآلهة الأسطوريين المتشابهين من أمثال ديونيسوس[٤] وهرقل[٥] .

---

(١) الإضافة هى الإنجيل الذى لا يعترف اليهود به إطلاقاً . (المترجم)

(٢) الفريسى الجليلى : من طائفة الفريسيين من مقاطعة الجليل بفلسطين . ويعنى اليهود به السيد المسيح . والخونة هو الاسم الذى يخلعه اليهود على المسيحيين باعتبارهم خانوا الرسالة اليهودية . (المترجم)

(٣) أسلوب الأميين ، أى أسلوب غير اليهود . والحاخام اليهودى فى هذه الفقرة هو السيد المسيح . إذ يؤمن اليهود بأن عيسى عليه السلام لم يكن سوى رجل دين يهودى « حاخام » كرّمه أتباعه (من غير اليهود) بتأليههم إياه وجعله ابن الله ، فألصقوا به الأساطير التى كانت شائعة عن البشر المؤلهين أو الآلهة ذوى الصفات البشرية أمثال أوزيريس فى الأساطير المصرية القديمة وديونيسوس فى الأساطير اليونانية . (المترجم)

(٤) ديونيسوس : هو باخوس Bacchus فى الأساطير الرومانية ، اعتبر فى العصور المتأخرة رب الخمور ، لكنه فى الأصل : الروح التى تتحكم فى مصائر الإنبات وتسيطر على الزراعة . (المترجم)

(٥) هرقل : أشهر أبطال الأساطير اليونانية القديمة . وتقرر أنه ابن زيوس كبير أرباب الأوليمب من أم بشرية تدعى آليمين Alemene من مدينة طيبة . وتخلع عليه الأساطير صفة القوة الخارقة منذ ولادته . وكان والده زيوس يحميه باستمرار من المخاطر التى كانت تدبرها له زوجة أبيه هيرا Hera . وتنتهى أسطورته بالقول إنه بعد أن أوشك أن يُحرق مرّت سحابة أمطرت فأطفأت النيران ، ثم حملته السحابة إلى السماء فأصبح إلهاً كاملا . (المترجم)

وتخادع اليهودية نفسها بأنه كان فى وسعها أن تحرز انتصارات المسيحية فى استهواء العالم الهلينى ، لو أنها أحنت رأسها لفكرة التوسّع ، فنزلت إلى مستوى المسيحية .

أما المسيحية ، فإنها لم تُنكر إطلاقاً شرعية كتاب اليهود المقدس ، بل إنها قد أدمجته فى كتابها المقدس ذاته . واستطاعت المسيحية — وفقاً لوجهة النظر اليهودية — إنجاز فتوحاتها فى يسر وسهولة ، بفضل إعراضها عن مبدأين أساسيين تضمنتهما الوصيتان الأولى والثانية من الوصايا العشر : الوحدانية ، ونبذ عبادة الصور والتماثيل .

وتستطرد اليهودية قائلة بأن عقيدتها إذ تواجه وثنية عاتية ظاهرة بوضوح تحت قشرة المسيحية ، غدا واجباً عليها أن تظل صامدة متمسكة بأداء رسالتها فى حمل كلمة الرب السرمدية .

وهذا الترفّع العميق الثابت الذى ما فتئت اليهودية تنظر به إلى النجاح المثير الذى حققته المسيحية ، كان يتيسر أن يصبح أقل حدّة ، لو لم تكن المسيحية نفسها قد مزجت بين ولائها الصادق — من الناحية النظرية — لتراث اليهودية بالنسبة للوحدانية ومناهضة تقديس الصور والتماثيل ، وبين المظاهر العملية المقتبسة من شرك الهيلينيين المهتدين للمسيحية وعبادتهم الأوثان ؛ وهو ما يتهمها به نُقادها اليهود[1] . ولا شك أن إعادة الكنيسة

---

(١) إن الإخلاص التام للوحدانية وتحريم تقديس الصور والتماثيل تحريماً لا هوادة فيه ؛ لم يحل بين اليهود وكراهية الإسلام كراهة عمياء والكيد للمسلمين منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى الآن . وفى هذا يقول الله تعالى فى محكم آياته « لتجدنّ أشدّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا » .

وفى اعتقادى أن عداء اليهود للمسيحية له عاملان أساسيان :

الأول — روحانية المسيحية . فإنها تنادى بأن مملكة الرب تقع فى الآخرة وليست الدنيا . وهذا هو عكس ما تنادى به اليهودية من أن مملكة الرب فى الدنيا وأنه تعالى —

المسيحية تشييد كتاب اليهود المقدس فى شكل « العهد القديم » للعقيدة المسيحية ؛ لهو نقطة ضعف فى دفاع المسيحية نفذت منه سهام النقد اليهودى إلى الضمير المسيحى . إن العهد القديم كان أحد الدعائم التى استقرّ عليها صرح المسيحية .

لكن هناك كذلك مذهب التثليث[1] وعبادة القديسين ؛ ورسم القديسين – بل والأقانيم الربانية الثلاثة فى أعمال فنية مرئية ذات أبعاد ثلاثة أو بعدين اثنين .

= قد اصطفى اليهود دون بقية البشر فوعدهم بإقامة دولة عاصمتها أورشليم تتحكم فى أنحاء العالم بأسره ويكون فيها اليهود السادة والأميون (أى غير اليهود) العبيد .

الثانى – اعتقاد اليهود بأن الخلاص (أو الغفران) يمنحه الرب لليهود وحدهم . وهذا الخلاص – كما سلف القول – له صورة دنيوية تعنى تمليك اليهود رقاب البشر ، وأخرى أخروية تعنى استئثار اليهود بجنة الله وحدهم . فى حين أن الخلاص عند المسيحية للبشر جميعاً ، وصورته روحية .

ويكره اليهود الإسلام لأنه سلبهم إحتكار مبدأ الوحدانية ، ولأن الإسلام يتسامى فى مبادئه على اليهودية بما لا يقاس . بالإضافة إلى عالمية الدين الإسلامى . فالإيمان بالله الواحد الأحـد الفرد الصمد ليست نعمة اختص الله بها اليهود وحدهم أو أى جنس آخر ، بل هى متاحة للبشر جميعاً لا فرق بين عنصر وآخر . (المترجم)

(١) مدار مذهب التثليث أن الله فى الطبيعة واحد ، لكنه ثلاثة أقانيم مميزة هى : الأب ، الإبن ، الروح القدس . وتقرر دائرة المعارف البريطانية (جزء ٢٢ صفحة ٤٧٩ – طبعة ١٩٦٤) بأنه يتيسر التعبير عن المذهب المسيحى بشأن التثليث بالكلمات التالية :

« الأب إله والإبن إله والروح القدس إله . لكن لا يجوز القول بوجود ثلاثة آلهة ولكن بوجود إله واحد . . . وإذا كان كمال الطبيعة واحداً فى الآب والإبن ، والجوهر والاعتبار واحد فى الحالين » إلا أن العلاقة بين الأب والإبن هى كالعلاقة بين المُعطى ومتلقى العطية . وقد قارن كتاب المسيحية خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، العلاقة بين الأب والإبن بالعلاقة بين اللهب والضياء ، وبين نبع الماء وتياره » . (المترجم)

فكيف تسنى للمنافحين عن المسيحية الرد على دعوى اليهود بأن ما تمارسه الكنيسة من التراث الهليني ، يتفق ونظريتها المستمدة من اليهودية ؟

تطلب الأمر شيئاً من الإجابة يُقنع عقول المسيحيين بأن هذه الحجج اليهودية لا تقوم على أساس ؛ ذلك لأن فحوى هذه الحجج يكمُن فى الاقتناع — عن استجابة — بالخطيئة ؛ ذلك الاقتناع الذى أثارته تلك الحجج فى نفوس المسيحيين .

وبعد تحول جماهير العالم الهليني جملة — واسمياً — إلى المسيحية فى غضون القرن الرابع الميلادى ، جنح الجدال المحلى فى قلب الكنيسة ، إلى حجب المجادلات التى كانت قائمة بين المسيحيين واليهود . لكن يبدو أن الحرب اللاهوتية ، على هذه الجبهة القديمة ، قد أثارت حمياها مرة أخرى فى غضون القرنين السادس والسابع ، نتيجة لحملة تطهيرية فى العالم اليهودى تهدف إلى تنقية كيان المجتمع اليهودى فى فلسطين ؛ وقد بدأت فى أواخر القرن الخامس . وكان لهذه الحملة الداخلية فى داخل نطاق العالم اليهودى ضد ما ظنه اليهود تراخياً — شبيهاً بالتراخى المسيحى — فى موضوع تزيين جدران المعابد اليهودية ؛ كان لهذه الحملة آثارها على الجدال الدائر بين اليهودية والمسيحية .

ولكن إذا ما تحولنا إلى النزاع الآخر المشابه داخل الكنيسة نفسها ، بين المؤيدين لتقديس الأيقونات[1] والمناهضين لها ؛ هالنا ما اتسم به من عناد وشمول . ووجدنا هذا « النزاع الذى لا يهدأ » يتفجر فى كل صقع من أصقاع العالم المسيحى ، ويكاد يتصل فى جميع أجيال التاريخ المسيحى المتعاقبة ، ولا يقتضى الأمر هنا أن نورد أمثلة فى قائمة طويلة تبدأ من

---

(١) الأيقونات : يُقصد بها هنا الصور ذات القداسة الخاصة . مثل الصور التى تُنسب إلى السيد المسيح أو السيدة العذراء أو القديسين . . . الخ (المترجم)

القاعدة السادسة والثلاثين لمجمع « ألفيرا Elvira » (حوالى عام ٣٠٠ م - ١١) التي تحرّم عرض الصور في الكنائس .

وفي غضون القرن السابع الميلادى « جدّ » في النقاش عامل جديد ، كأنه ممثل جديد ظهر على مسرح الأحداث التاريخية على نحو رائع ومثير . فقد نشأ حينئذ دين جديد مكتمل النمو : كان الإسلام يتعصّب للتوحيد ويناهض التصوير مثلما يبتغى أى يهودى . وبفضل ما حققه أنصاره فى الميدان الحربى من نجاح متوال - وبعد ذلك بقليل فى المجال التبشيرى كذلك - واجه المسيحيون أمراً خطيراً جديداً يشغل تفكيرهم .

وشبيه بهذا ما أثارته الانتصارات الحربية والتبشيرية التي حققها أتباع الشيوعية فى نفوس أهل الغرب الحديث ، من إعادة البحث الجدّى فى تقييم النظم الاجتماعية والاقتصادية التقليدية فى الغرب .

كذلك فإن انتصارات العرب المسلمين الأولين قد ألقت وقوداً جديداً على المجادلات التي ظلّت تدور أمداً طويلا حول « وثنية » المسيحية !

ففى عام ٧٢٦ ميلادية ، هبط على مسرح الأحداث « ذلك الطيْف « اليهودى » الممثل لتحريم تقديس الأيقونات ، بعد أن ظل يحوم زمناً طويلا . ذلك حين أصدر ليو سيروس الإمبراطور الرومانى الشرقى قانون تحريم الأيقونات . لكن ثبت فشل استخدام السلطان السياسى فى محاولة فرض حركة ترقى إلى حركة بعث فى المجال الدينى . فإن البابوية قد تحمّست فى تأييد المعارضة الشعبية لتحريم الأيقونات . وبذلك اتخذت البابوية خطوة طويلة المدى للتحرر من سيطرة « بيزنطة . أما الحركة التالية التي قام بها فى الغرب « شارلمان » فى غير حماسة كبيرة لاقتفاء سياسة الإمبراطور ليو سيروس ، فقد لقيت من البابا « هادريان الأول » توبيخاً حاسماً : فكان على الغرب أن ينتظر ثمانية قرون أخرى ليشهد حركة بعث مستمدة من اليهودية . وعندما وفدت هذه الحركة ، سرت فى

المجتمع من أدنى إلى أعلى ، وقام فيها مارتين لوثر بدور الإمبراطور ليو سيروس .

ولم تكن مناهضة الصور والتماثيل فى الإصلاح البروتستانتى للكنيسة الغربية ، هى « الطَّيْف اليهودى » الوحيد الذى وُفِّق إلى إعادة توكيد وجوده . فإن التشدد فى المحافظة على الأحكام المتصلة بيوم السبت[1] ، قد استهوى فى نفس الوقت ، المنشقين عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . وليس من السهل تفسير إحياء هذا العنصر الآخر من التعاليم اليهودية . فإن الإفراط فى التزمّت الذى دفع اليهودية — يهودية ما بعد المنفى — إلى التشبُّث بمراعاة أحكام السبت ، كانت استجابة معيّنة من جانب الشعب ، لتحدٍّ معيّن . إذ كان هذا التشبُّث جزءاً من أسلوب « التشتت » الذى اعتنقه اليهود للمحافظة على وجودهم المشترك .

أما البروتستانتية ، فكانت تهدف قصداً إلى العودة إلى الممارسة الفطرية لأحكام الكنيسة ، فى أيامها الأولى . على أن البروتستانت يتجاهلون هنا تماماً ، فارقاً بين المسيحية الأولى واليهودية ، وهو فارق كانت تُصرّ عليه الكنيسة فى بداية عهدها .

فهل يُعقل أن يكون هؤلاء المسيحيون المتمسّكون بحرفية الإنجيل ، غافلين عن الفقرات العديدة الواردة فى الأناجيل التى ذكرت أن « يسوع » قد تحدّى الحظر الذى فرضته عقيدة السبت ؟

هل يُعقل أن يكون قد فاتهم أن بولص — الذى يمجّدونه مغتبطين — قد جلب على نفسه سخط اليهود بسبب إنكاره الشريعة الموسوية ؟

---

(١) لا يعنى هذا أن المسيحيين البروتستانت قد جعلوا من يوم السبت سابع أيام أسبوعهم . بل ظل الأحد هو اليوم السابع لكنهم احتفظوا بجوهر الأحكام التى أضفاها اليهود على يوم السبت . والكلمة العبرية هى « شبث » وتعنى الراحة . وقد ورد فى التوراة أن الرب قد عقد مع اليهود ميثاقاً بمقتضاه يستريحون آخر الأسبوع تشبهاً به عندما خلق الدنيا فى ستة أيام ثم استراح فى السابع . ويذكر كثير من العلماء أن أسطورة السبت بابلية الأصل كغيرها من الأساطير الواردة فى التوراة . (المترجم)

مناط التفسير : أن هؤلاء المتحمسين الدينيين فى ألمانيا وإنجلترا واسكتلندا ونيو إنجلند وفى غيرها . . . كانوا مأخوذين بسحر حركة من أقوى حركات البعث « وكانوا يميلون إلى الاستحالة إلى « يهود مقلّدين » مثلما مال الفنانون والبحاثة الإيطاليون إلى الاستحالة إلى أثينيين مقلّدين . وإن لجوءهم إلى تسمية أطفالهم وقت العماد ببعض ما يوجد فى العهد القديم من أسماء تصكّ آذان التيوتون صكًّا شديداً ، لظاهرة صارخة لهذا الهوس لبعث عالم مندرس « إلى الحياة من جديد .

لقد سبق لنا — ضمناً — أن قدّمنا عاملا ثالثاً فى حركة البعث للتعاليم اليهودية التى قامت بها البروتستانتية فى الغرب ، أعنى الإغراق فى تبجيل الكتاب المقدس ، أى عبادة نص مقدس كبديل لعبادة صور مقدسة . وما من شك فى أن أتقياء البروتستانت أو البيوريتان — بل أهل الغرب بوجه عام — قد أفادوا كسباً ثقافياً من ترجمة الإنجيل إلى اللغات الدارجة ، ومن إنكباب أجيال من الناس البسطاء على قراءته ، وهم لا يكادون يقرأون غيره . وهذا بدوره ، قد أخصب الآداب الوطنية بما لا يقاس ، واستثار الرغبة فى التعلّم عند سواد الناس . وغدت قصص الإنجيل — بصرف النظر عن قيمتها الدينية — أقاصيص شعبية ، فاقت فى أهميتها الإنسانية ، كل شىء آخر أُتيح لأهل الغرب من أى مصدر قومى . أما بالنسبة الأقلية من المتحذلقين ، فإن الدراسة النقدية للنص المقدس ، كانت بمثابة تدريب على نقد آخر أعلى ، قُدّر له أن يُطبَّق بعد ذلك فى جميع ميادين البحث .

وفى نفس الوقت ، أصبحت النقمة المعنوية والفكرية القائمة على الكتابين المقدسين ، عبودية بروتستانتية تحررت منها الكنيسة الكاثوليكية بعد أن أصلحت من شأنها قرارات « مجمع ترنت »[1] ، وإن بقيت تحت سلطان القسس .

---

(١) مجمع ترنت : عقد بمدينة ترنت خلال أعوام ١٥٤٥ — ١٥٦٣ ، وفيه تقرر إصلاح الكنيسة الكاثوليكية ذاتها . (المترجم)

إن الإصرار على اعتبار العهد القديم كلمة الرب التي لا يأتيها الباطل من أمامها ولا من خلفها — على الرغم من أنه ثبت بجلاء أنه ليس إلا تصنيفاً أو مجموعاً من إنشاء البشر متفاوت في قيمته الدينية والتاريخية — إن هذا الإصرار ، قد أسبغ ثوباً دينياً على هذا العناد الغبي الذى دفع ماتيو أرنولد إلى اتهام الطبقة الوسطى فى عصره الفيكتورى — التى كانت تحرص على الفضيلة — بأنها تعيش فى « غدير عبرى »[1] .

---

(١) أى تتأثر فى تجربات حياتها بالأساليب اليهودية ، كما وردت فى التوراة .
(المترجم)



الباب الحادى عشر

القانون والحرية فى التاريخ



الفصل الخامس والثلاثون

المشكلة

(١) معنى القانون

ما كان الإنسان فى الغرب طوال المائة سنة السابقة لعام ١٩١٤ ؛ ليشغل باله إلا فى القليل ، بالمشكلة التى علينا الآن مجابهتها ؛ إذ كان يبدو وقتذاك إن كلا الحلين التاليين واف بالغرض :

فإذا كانت مقادير البشر تخضع لقانون أعلى من مستوى البشر ، لا بد وأن يكون هذا القانون هو سُنة الارتقاء ، التى كانت تفى تماماً بالغرض فى ذلك الوقت .

أما إذا لم يكن ثمة — من ناحية أخرى — وجود لمثل هذا القانون ؛ لأمكن أن يقال — بكل ثقة — أن نشاط الكائنات البشرية التى أوتيت الحرية والذكاء ، سوف يحقق نفس النتيجة .

على أن الموقف قد اختلف تماماً بحلول منتصف القرن العشرين ؛ إذ عُرف أن حضارات قد انهارت فى الماضى . وتكشفت ناطحة السحاب الزائفة التى شادها الإنسان الغربى الحديث ، عن صدوع تُنذر بتقويضها .

فهل ثمة قانون كذلك الذى استخلصه أوزوالد سبنجلر فى مؤلفه العظيم « انحلال الغرب[1] » الذى نشره عام ١٩١٩ والذى يذهب إلى أن

---

(١) Oswald Sprengler : The Decline of the West .

هذه الحضارة مقدّر عليها أن تمضى فى نفس السبيل الذى سلكته سابقاتها .
أو هل نحن أحرار فى إصلاح أخطائنا وتقرير مصيرنا ؟

تتطلب أولى خطوات بحثنا ، تحديد معنى لفظ « قانون » فى هذا المجال . وواضح أننا لا نقصد به تشريعاً يسنّه الإنسان . أُخذ اللفظ منه باستعارة شائعة الاستعمال ، إلى حد أن أحداً لم يعد يلتفت إليها . إن « القانون » الذى هو موضوع بحثنا الحالى ، يشبه فعلا ذلك النظام المعتاد الذى يضعه الإنسان ؛ من ناحية كونه مجموعة من قواعد تحكم شئون البشر . لكنه يخالف ذلك النظام فى أنه ليس من صنع الإنسان ، ولا قِبَل للإنسان بتعديله .

وهذه الفكرة عن القانون – كما لاحظنا فى جزء سابق من هذه الدراسة[1] . قد تتبلور ، عند نقلها إلى المستوى الميتافيزيقى[2] ، فى رأيين يناقض أحدهما الآخر تناقضاً واضح المعالم :

فالعقول التى تتصور أن شخصية المشرّع البشرى أعظم قدراً من القانون الذى يُقيمه ، ترى أن القانون الميتافيزيقى الذى يسوس الكون « صادر عن إله قادر على كل شىء » .

وأما العقول الأخرى التى تتصور أن شخصية المشرّع – أو الحاكم – تكيّفها فكرة الذى يُقيمه ، ترى أن القانون الميتافيزيقى الذى يسوس الكون ، إنما هو قانون لم يُسنه أحد ؛ قانون منبثق عن طبيعة نمطية صارمة لا تلين .

وتفصح هاتان الفكرتان – كلتاهما – عن مظهر يبعث العزاء والذعر معا :

---

(١) انظر صفحة ٣٦٩ – ٣٧٤ من الجزء الثانى من هذه الترجمة .

(٢) الميتافيزيقى : نسبة إلى فلسفة ما وراء الطبيعة . وتعنى بدراسة بداية كل ما فى الوجود ، والبحث عن طبيعة الأشياء وفطرتها وإله الكون وخصائصه . . وغير ذلك من الغيبيات . (المترجم)

وتتجلى ظاهرة الذعر من قوانين الطبيعة ، فيما تتسم به من الثبات ، وإن كان لهذا الثبات ما يعوّضه . فطالما كانت هذه القوانين ثابتة ، يستطيع العقل البشرى كشفها . فيكون إدراك الطبيعة فى متناول العقل البشرى ، وهذا الإدراك قوة . ويستطيع المرء معرفة قوانين الطبيعة حتى يُخضعها لأغراضه الخاصة . ولقد أصاب فى هذا المجال نجاحاً مذهلا : فقد شطر الذرّة ، وبأية نتائج ؟!!

إن النفس البشرية التى ترتكب المعصية وتعتقد أن لا سبيل لخلاصها إلا بنعمة من عند الله ، ستكون عُرضة — أسوة بداود النبي — للوقوع فى يد الله[1] .

ولن يتأتى التغلُّب على صرامة عقاب الإنسان على خطيئته وفضحها — وهو ما يعادل فى قوانين الطبيعة يوم الحساب — إلا بقبول حكم القانون الإلهى . أى أن ثمن هذا التحوّل للولاء الروحى ، هو الحرمان من تلك المعرفة العقلية النهائية الدقيقة التى تعتبر الأجر المادى والعبء الروحى الذى تناله نفوس البشر التى تقنع بأن تمتلك أسباب السيطرة على الطبيعة ، ولو دفعت ثمن ذلك ، أن تغدو فى الوقت نفسه عبيداً لها .

« لا شك أنه « مخيف هو الوقوع فى يد الإله الحى »[2] . لأنه إذا كان الرب روحاً ، لما أمكن التكهُّن بتصرفاته مع الأرواح البشرية ، أو معرفتها . والنفس البشرية التى تقبلُ الخضوع لحكم « قانون الرب » إنما تتخلى عن علم اليقين وتتعلق بأهداب الأمل والخوف . ذلك لأن القانون الصادر عن إرادة ، إنما ينطوى على حرية روحية ، هى نقيض رقابة الطبيعة النمطية . وقد ينبعث القانون الإرادى : إما عن المحبة ، أو الكراهية . وإن النفس البشرية — إذ تقبل الخضوع لقانون الله — قد تعثر على ما يجلبه هذا القانون لها :

---

(١) انظر سفر أخبار الأيام (العهد القديم) اصحاح ٢١ آية ١٣ . (المترجم)

(٢) اقتبس الأستاذ المؤلف هذه العبارة من رسالة القديس بولس إلى العبرانيين : أصحاح ١٠ آية ٣١ . (المترجم)

ومن ثم فإن فكرة الإنسان عن الله ، قد تراوحت بين : تخيّله إلهاً أباً رحيما ، وتخيُّله إلهاً جبّارا . ويتفق هذان التصوران — كلاهما — مع تصوير الله على شكل شخصية مستترة فى صورة البشر . إلا أن خيال البشر يبدو عاجزاً عن رؤية ما وراء هذا القناع .

(٢) اعتناق المؤرخين الغربيين لنظرية القانون الإلهى[1]

إن فكرة « شريعة الله » قد خدمتها الجهود التى بذلها أنبياء بنى إسرائيل وأنبياء أيران استجابة لتحديات التاريخ البابلى والسورى . على حين وضع الفلاسفة الذين شاهدوا تحلل العالمين السندى والهلينى ، العرض التقليدى لفكرة « قوانين الطبيعة » . على أن لا تناقض بين هاتين المدرستين الفكريتين من الوجهة المنطقية . ومن الواضح أن هذين النوعين من القانون يعملان جنباً إلى جنب .

فشريعة الله تكشف عن هدف واحد ثابت ، يجدّ فى طلبه عقل وإرادة شخصية ما

بينما تُفصح قوانين الطبيعة عن حركة منتظمة متواترة « مثلها مثل حركة تدور حول محورها . فلو أمكن تخيُّل عجلة موجودة لم يتدخل فى صنعها صانع مُبدع ، لا تفتأ تدور حول محورها من غير ما هدف ؛ لكانت دورانها المتكررة ، عبثا . وقد كانت هذه ، هى النتيجة المتشائمة التى استخلصها فلاسفة الهند واليونان « الذين رأوا « عجلة الوجود الكئيبة »[2] تدور فى فراغ إلى الأبد .

---

(١) استخدم الأستاذ المؤلف كلمة Antimonianism — وهو مذهب الذين يقولون بأن المسيحيين غير خاضعين لقانون الأخلاق لاستفادتهم بقانون النعمة والبر . وقد ظهر هذا المذهب لأول مرة فى ألمانيا عام ١٠٣٥ . (المترجم)

(٢) استوحى الأستاذ المؤلف هذا التعبير من قاعدة الديانتين الهندوكية والبوذية . فإنهما تؤمنان بتتابع سير الوجود إلى ما لا نهاية ؛ مثله مثل عجلة دائرة تتابع أوجهها دون توقّف . وانبنى على هذه الفكرة الإيمان بالتناسخ ومذهب الحلول . فالروح تنتقل من جسد إلى جسد ومن مظهر حياة إلى آخر . فآناً هى فى جسم آدمى وتارة فى جسد حيوان أو نبات . . . وهكذا إلى ما لا نهاية . (المترجم)

ونحن فى الحياة العملية ، لا نرى عجلات لم يصنعها صانع ، ولا يوجد صانعو عجلات ، مالم يوجد سائقون يكلفون هؤلاء الصناع المهرة بصناعة العجلات وتركيبها فى عربات : حتى تكفل دورات هذه العجلات — المتعاقبة — توصيل العربات إلى حيث يقصد سائقوها .

أى أن قوانين الطبيعة ، يمكن فهمها إذا ما صورت كأنها عجلات ركبها الرب فى « مركبته » الخاصة .

والاعتقاد بأن حياة الكون تحكمها « شريعة الرب » ، إعتقاد موروث عن اليهودية وشاركها فيه المجتمعان المسيحى والإسلامى . وقد ورد هذا الاعتقاد فى مؤلفين من أمهات الكتب ، تشابها تشابهاً مذهلا ، لكن لا صلة لأحدهما بالآخر ، وهما :

١ — مدينة الرب من تأليف القديس أوغسطين .

٢ — المقدمة التى وضعها ابن خلدون لتاريخه[1] .

فأما نظرية القديس أغسطين المستمدة من وجهة النظر اليهودية عن التاريخ ، فقد أخذها المفكرون المسيحيون قضية مسلمة طوال حقبة تجاوز الألف سنة ، ووجدت آخر تعبير ثقة لها فى كتاب بوسويه Bossuet[2] « مقال فى التاريخ العالمى » الذى نشر عام ١٦٨١ ميلادية .

وإذا كان المؤرخون الغربيون المحدثون قد استبعدوا فلسفة التاريخ هذه التى تجعل من الإرادة الإلهية المحور الذى يدور حوله التاريخ كله ،

---

(١) اسم مؤلف ابن خلدون بالكامل « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » . (المترجم)

(٢) جاك بوسويه (١٦٢٧ — ١٧٠٤) : أسقف فرنسى اشتهر بمقدرته الخطابية الفائقة . ألف طائفة من الكتب أهمها « موجز تاريخ فرنسا ، السياسة المقدسة ، حديث عن الكون . ويعتبر الأخير أعظم مؤلفاته . انتخب عضواً فى الأكاديمية الفرنسية ، وبعد انتخابه « نشر مؤلفه : استعراض مذهب الكنيسة الكاثوليكية . وقد اشتهر بدفاعه الخارق عن تقاليد الكنيسة الكاثوليكية ومعارضته لأعدائها مما جعله هدف مطاعن أتباع البروتستانتية .
(المترجم)

فذلك أمر يمكن تعليله ، بل والتماس العذر له . فلقد تبين بالتحليل ، أن الصورة التي عرضها « بوسويه » لا تتمشى مع المسيحية ولا مع المنطق السليم . ولقد استعرض عيوبها بإسهاب « ر . ج . كولينجوود R. G. Collingwood وهو أحد كتاب القرن العشرين الممتازين ، مؤرخاً وفيلسوفاً ، إذ قال :

« إن تاريخاً يكتب وفقاً للمبادئ المسيحية ، هو بالضرورة عالمي ، مستمد من العناية الإلهية وقائم على التنبؤ وموقوت الحساب . . . فلو أن مؤرخاً وسيطاً[1] تحداه أحد أن يفسر كيف علم بوجود خطة موضوعية ما في التاريخ ، لأجاب بأنه قد عرف ذلك عن طريق الحدس . . . ذلك جزء مما كشف عنه المسيح للإنسان عن الرب . وهذا كشف فوق أنه دليل لمعرفة ما صنعه الله في الماضي ، فهو دليل يبين لنا ما ينتوى صنعه في المستقبل ، وبالتالي ، أن هذا الكشف – عند المسيحيين – قد قدم لنا صورة لتاريخ العالم بأسره ابتداء من خلقه في الماضي ، إلى نهايته في مستقبل الأيام ، كما يراه الله في نظره الأزلي الدائم .

« وعلى ذلك كان مؤرخو العصور الوسطى ، ينظرون إلى نهاية التاريخ » كأنها شيء كتبه الله منذ الأزل وعرفه الإنسان عن طريق الوحي . فكانت نظريتهم تتضمن في حد ذاتها « معرفة بأمور الآخرة eschatology » .

« ومناط التفكير في العصر الوسيط : أن التعارض تام بين غاية الرب الموضوعية ، وهدف الإنسان الشخصي – إلى حد أن غاية الله تبدو وكأنها تفرض خطة موضوعية معينة على التاريخ دون أية مراعاة لأهداف الإنسان الشخصية ، إن هذا التعارض يقود – لا محالة – إلى فكرة أنه ليس

---

(١) المؤرخ الوسيط ، أي المؤرخ الذي ينتسب إلى عصر العصور الوسطى . (المترجم)

لأهداف الإنسان تأثيرما على سير التاريخ ، وأن الطبيعة الإلهية هى وحدها القوة التى تحكمه »[1] .

وهكذا نرى أن المؤرخين الغربيين فى أوائل العصر الحديث من المشبّعين بعقلية القرون الوسطى — إذ شوّهوا فكرة الوحى المسيحى على هذا النحو ، قد عرّضوا أنفسهم لهجوم كل من أنصار مذهب الإيمان الجزمى بالعلم[2] فى الجزء الأخير من العصر الحديث ، وأنصار مذهب الشك[3] فى الجزء الأخير من العصر الحديث ؛ القائلين بقصور العقل البشرى عن إدراك شئون الدين .

فهؤلاء المؤرخون — كما يقول كولينجوود كذلك — « قد وقعوا فى الخطأ إذ ظنوا أنهم يستطيعون التنبؤ بالمستقبل » . كما أنهم « بتحمسهم لكشف الخطة العامة للتاريخ وباعتقادهم أن هذه الخطة من صنع الله وليس من صنع الإنسان ، قد نزعوا إلى البحث عن جوهر التاريخ ، خارج مجال التاريخ نفسه ، وذلك بأن تحوّلوا عن أعمال الإنسان ، إلى العمل على الكشف عن خطة الإله » .

« وتبعا لهذا ، باتت — فى نظرهم — تفاصيل أفعال الإنسان ، غير ذات قيمة — نسبياً — فكان أن أهملوا واجب المؤرخ الأساسى ، ألا وهو الحرص على تحمّل مشاق لا حدّ لها فى سعيه لاستقصاء ما حدث فعلا . وهذا هو سبب ضعف الأسلوب النقدى فى علم التاريخ فى العصور الوسطى . ولم يأت هـــذا الضعف عرَضاً ؛ فهو لا يرجع إلى قلة المصادر والمواد الموضوعة تحت تصرّف الباحثين . بل يرجع إلى قصورهم فى تحديد ما كانوا

---

(١) صفحات ٤٩ و ٥٤ و ٥٥ Collingwood, R.G, The Idea of History (Oxford 1946) والكتاب مترجم إلى العربية وقد نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) مذهب اليقينية : dogmatism .

(٣) مذهب الشك (أو مذهب اللاأدرية) ، يتضمن فى جوهره القول بعدم كفاية العقل لفهم الوحى الإلهى ، والشك بالتالى فى جميع ما يصدر عن العقل . (المترجم)

يريدون عماه ، فى تحديد ما كانوا قادرين على عمله . فهم قد صدفوا عن إجراء دراسة دقيقة علمية لأحداث التاريخ الفعلية . إذ رنوا إلى إجراء دراسة دقيقة علمية لصفات الله ؛ أى علم لاهوت « يمكنّهم من أن يعرفوا سلفاً ما قد وقع حتماً فى الماضى ، وما هو بسبيل أن يقع حتماً فى المستقبل خلال عملية التاريخ » .

« ونتيجة ذلك ؛ أنه عند النظر إلى أسلوب التأريخ فى العصور الوسطى – من وجهة نظر المؤرخ الباحث – أى المؤرخ الذى لا يعبأ إلا بتحرّى الدقة فى دراسة الوقائع – يبدو أن هذا الأسلوب غير واف بالغرض ، بل إنه يتسم بعناد متعمّد ومنفّر . والمؤرخون الغربيون فى القرن التاسع عشر الذين نظروا إلى طبيعة التاريخ نظرة أكاديمية بحتة « لم يشعروا نحو هذا الأسلوب بأى عطف »[1] .

إن هذا الموقف المعادى لتفكير العصور الوسطى لم يكن وقفاً على جيل من المؤرخين المتأخرين الذين كانت « لاأدريتهم » المهذبة ، تعكس وداعة حياتهم البهجة الحادثة . بل إن ذلك العداء قد أثار – على نحو أشد – أسلافه هؤلاء المؤرخين وأخلافهم .

فلنبدأ أولا بالأخلاف ، ونعنى بهم جيل القرن العشرين . فهذا الجيل كان يمرّ بتجربة مُرة . إذ كان يسوقه – يميناً ويساراً – طغاة من البشر « عقدوا العزم على صبّ رعاياهم فى إطار « خطط خمسية » . فثاروا ساخطين على فكرة « خطة فترتها ألف عام » قد فرضها عليهم طغيان مقدّس . أما رجل الغرب فى القرن الثامن عشر الذى دفع أسلافه المباشرون ثمن ولائهم لآراء القرون الوسطى « احتمالهم آلام الحروب الدينية ؛ فلم يكن ليكتفى برفض نظرية « بوسويه » باعتبارها خرافة سخيفة وعتيقة ، لكنه كان يراها

---

(١) صفحات ٥٥ و ٥٦ من المرجع السابق .

هى العدو[١] ، وكانت عبارة «اسحقوا المرذولين»[٢] هى شعار جيل فولتير . ولم يكن ثمة فى هذا المجال فارق جوهرى بين أنصار الربوبية[٣] الذين أبدوا استعدادا للتسليم بوجود إله على شريطة أن يملك ولا يحكم مثل ملوك من هانوفر فى بريطانيا العظمى[٤] ، وبين الملحدين الذين حذفوا الله من مقدمة « إعلان استقلال الطبيعة »[٥] .

فمن هذا الوقت ؛ تحررت قوانين الطبيعة والتزمت جانب الصرامة المطلقة فأخذت — بالتالى — تتطور لتصبح قابلة للفهم تماما . كان هذا هو عصر نيوتن الذى نادى بأن الكون يقوِّم نفسه تلقائيا ، وعصر فكرة « بالى Paley » عن صانع الساعات الإلهى الذى إن ملأ زنبرك ساعته تلقائياً ودبّر بنفسه شئونه ، أنهى بذلك مهمته .

وهكذا ؛ نُبذ « قانون الله » لاعتباره نتيجة أوهام الظلام الذى كان إنسان الغرب فى الجزء الأخير من العصر الحديث يخرج من إساره . لكن عندما تقدّم رجال العلم ليتسلّموا ذلك الميدان الذى أُقصى الله عنه ، أدركوا أن ثمة جانباً منه لا يمكن أن يسرى فيه دستورهم : قوانين

---

(١) كان هذا هو شعار المثقفين الفرنسيين الذين نادوا بالثورة ضد النظم القديمة سواء تمثّلت فى النظام الملكى أم فى الكنيسة الكاثوليكية ، وقد صكه فولتير . (المترجم)

(٢) ecrasez l'infame .

(٣) مذهب يؤمن أصحابه بالله خالق الكون . لكنهم ينكرون صلة الله بالأرض والناس . فيؤمنون بأن ضياء الطبيعة والعقل يكفل هداية الإنسان سواء السبيل . فينكرون بالتالى الوحى . وتنصب معارضة أتباع المذهب على المسيحية بصفة خاصة لاستنادها على فكرة فداء الرب — فى صورة الابن — للبشرية . (المترجم)

(٤) كان جورج الأول هو أول هؤلاء الملوك . وكان فى الأصل أمير ألمانيا من هانوفر . وكان يجهل الإنجليزية مما دعاه إلى الامتناع عن حضور جلسات مجلس الوزراء . فكان هذا بداية ابتعاد الملك عن شئون الحكم ، فانبعث بتوالى الأيام مبدأ الملك يملك ولا يحكم . (المترجم)

(٥) على غرار « إعلان حقوق الإنسان » الذى أصدرته الثورة الفرنسية . (المترجم)

الطبيعة . فقد يستطيع العلم تفسير الطبيعة الغير البشرية ؛ بل قد يكون في مكنته توضيح وظائف الجسم البشرى (وقد تصادف أن جاء مشابهاً تماماً لأجسام الثدييات الأخرى) . لكن إذا ما تعرّض العلم لأوجه نشاط الكائن البشرى — لا باعتبار صدورها عن كائنات حيوانية ، ولكن عن كائنات بشرية آخذة بأسباب التحضّر — هنا ارتد العلم خائباً . وهنا يواجه العلم اضطراباً يستعصى على قوانينه ؛ أحداثاً لا معنى لها ، يقفو بعضها بعضا ؛ أسماها روائى إنجليزى عاش فى القرن العشرين وحصل على عدة جوائز « أودتا ODTAA »[1]، وهى الأحرف الأولى من عبارة إنجليزية تعنى « شىء لعين بعد شىء لعين آخر » . فقد عجز العلم عن فهم هذه « الأمور » ومن ثم تركها لفئة أخرى أقل طموحا ؛ وهى فئة المؤرخين .

كان فلاسفة القرن الثامن عشر من أهل الميتافيزيقا قد اقتسموا الكون :

فعلى أحد جانبىْ خط التقسيم الذى وضعوه ؛ وجدوا منطقة مرتبة ، حافلة بشئون غير البشر ؛ واعتقدوا أن قوانين الطبيعة تسرى فيها . ويمكن إذن أن تصبح — تدريجيا — فى متناول استقصاء البشر ، بفضل الجهود المتواصلة التى يبذلها العقل البشرى .

وتركوا وراء الجانب الآخر من خط التقسيم ؛ منطقة من التاريخ البشرى ، تشيع فيها الفوضى . إذ رأوا أن لا شىء يُستخلص منها أكثر من قصص مشوقة ، قد يتيسر تسجيلها بدقّة متزايدة ؛ لكنها لا تُثبت شيئا . وربما كان هذا هو ما قصده بعضهم (ولعله فورد صانع السيارات) بقوله إن التاريخ هو « سرير فى قطار » .

ولقد كان الطابع الرئيسى للفترة التى أعقبت القرن الثامن عشر — حتى وقت كتابة هذه السطور — هو أن العلم قد كرّس نفسه — بدرجات

---

(١) Odtaa هى كلمة مؤلفة من الأحرف الأولى من عبارة One damned thing after another .

مختلفة من التوفيق – ليضم إليه مجالات عمل منوعة ، كانت متروكة فى الأصل للمؤرخين . ومن قبيل المثال : علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) ، علم الاقتصاد ، علم الاجتماع ، علم النفس . ولكن المؤرخين « مضوا مطمئنين يواصلون نشاطهم بحثا وراء الحقائق ، فيما بقى لهم من أرض تتضاءل يوما بعد آخر » ولما يضع العلم فيها قدمه بعد .

لكن ما فتئت العقيدة الجوهرية عند رجل الغرب ، تقوم على الإيمان بأن الكون يخضع لقانون ما ، ولم يُترك للفوضى والاضطراب . والشكل الربوبى أو الملحد الذى اتخذته هذه العقيدة فى إبان الجزء الأخير من العصر الحديث ، أساسه الإيمان بأن شريعة الكون ، عبارة عن مجموعة « قوانين الطبيعة » .

حقا ، إن مجال هذه القوانين يتسع باستمرار . فقد كانت الأسماء اللامعة فى تاريخ العلم ، أسماء أولئك الذين رأوا نظاما متناسقا يكمُن وراء الاضطراب السطحى الظاهر . فلا بدع والحالة هذه ، أن يكون السبب فى ذيوع صيت نيوتن وداروين وأينشتين مثلا ، أنهم قاموا بعمل كشفى من هذا النوع .

وبعد ، فمن ذا الذى كان فى وسعه أن يرسم خطاً لا يتعداه هؤلاء الروّاد المفكرون ؟

إن الإعلان بأن إحدى مناطق الكون – وهى المنطقة التى يشغلها الإنسان الآخذ بأسباب التحضّر – قد خُصصت بأمر سلطة عليا غير محددة ، لتكون هيكلا للاضطراب ، أن هذا الإعلان قد يُرضى المؤرخين من أنصار « قانون الله » ، لكنه يُعتبر كفراً وتجديفا فى نظر أنصار العلم سليمى التفكير .

وفى الواقع ، كان حرياً بالمؤرخين الغربيين فى العصر الحديث أن يكونوا أقل اتجاها مما يدّعون بكثير ، إلى الأخذ بقانون الله ، على نحو

ما سلّم به رجل ممتاز ممن زاولوا صنعة التاريخ فى منتصف القرن العشرين ، إذ قال :

« إن قوما ينتسبون إلى جيل معيّن ، لايدركون عادة ، الدرجة التى يرون بها تاريخهم المعاصر فى نطاق إطار مقرر . وينسّقون الأحداث وفقا لأشكال ثابتة ، أو يصبّونها فى قوالب معيّنة يختارونها أحيانا وهم فى أحلام اليقظة . قد يكون هؤلاء القوم غير واعين على الإطلاق للأسلوب الذى تلتزمه عقولهم ، بسبب التكوين الروتينى الذى صاغوه للقصة . ولن يظهر ضيق أفق هذا الإطار إلا عند ما تتغير أحوال الدنيا وينبثق جيل جديد لم يُحجر عليه منذ مولده داخل الإطار التقليدى . . . إن كتّاب التاريخ وغيرهم من المعلمين ، ليُخطئون فى تصوّرهم أنهم لو لم يكونوا مسيحيين ، لامتنعوا على التقيّد بأى رأى ، ولعملوا دون التزام أى مذهب ، ولناقشوا التاريخ من غير فروض سابقة ؛ ومن بين المؤرخين — كما هو الحال فى ميادين العلم الأخرى — لتجدنّ أشدهم حماقة ؛ أولئك الذين يعجزون عن فحص فروض وضعوها مسبقا ، فيتصورون — من ثم مغتبطين — أنهم براء من أى شىء منها »[1] .

هذه هى صورة سجين لا يشعر بالأغلال التى تقيّده . ولا يسعنا فى هذا المقام سوى الاستشهاد للمرة الثانية بفقرة أصبحت بفضل وجاهتها وألمعية الكتاب الذى جاءت فى مقدمته ، إعترافا تقليديا بنبذ الاعتقاد بوجود قانون الله :

« لقد حُرِمتُ . . . من إثارة فكرة واحدة : إن أناسا أكثر منى فطنة وأوسع علما ، قد ميّزوا فى التاريخ حبكة موضوعية وترديدا متناسقا ونمطا مقدّرا ؛ هذه المطابقات خفيت عنّى . فإنى لا أرى إلا حدثا يتلو

---

(١) سنحتا ١٤٥ و ١٤٦ Butterfield, Herbert : Christianity and History (London 1949, Bell).

الآخر ، كما تقفو الموجة موجة أخرى ؛ ولا أرى إلا حقيقة واحدة « غير قابلة للتعميم لأنها فريدة فى نوعها ؛ ولا أرى سوى قاعدة واحدة يستطيع المؤرخ الاعتماد عليها ، وهى أن عليه أن يعترف ويسلّم بالدور الذى تؤديه المصادفة والأحداث غير المنظورة فى تطور مصائر البشرية »[1] .

ومع ذلك ؛ فإن هذا المؤرخ الذى أعلن جهارا ولاءه لمبدأ أن التاريخ ما هو إلا « شىء لعين يتلو شيئاً لعينا آخر » قد أطلق على كتابه اسم « تاريخ أوربا » . وبذلك التزم — فى نفس اللحظة تقريبا — بنمط محدد سلفا ؛ تكافأ فيه تاريخ قارة غير مميزة ، بتاريخ الإنسانية جمعاء . وقد وصل المؤرخ إلى هذا المصطلح التاريخى فى الغرب فى الجزء الأخير من العصر الحديث ، باعتناقه — بطريقة لاشعورية — عقائد المذهب التاريخى الدينى السائد وقتذاك فى الغرب . فالعمليات الذهنية اللاشعورية اللازمة للاعتقاد بوجود « أوروبا » ؛ إنما كانت من الصعوبة بحيث اقتضت عددا من المبادئ المقبولة ضمنا ، لا يقل عن تسعة وثلاثين مبدأ .

---

(١) صفحة ٧ من مقدمة الجزء الأول Fisher, H.A.L. : A History of Europe (London 1935, Eyre & Spottiswoode).

الفصل السادس والثلاثون

انقياد شئون البشر لقانون الطبيعة

١ – عرض للدليل

(ا) شئون الأفراد الخاصة

لنبدأ تحقيقاً للهدف من بحثنا ، بالإجابة عن هذا السؤال :

لقوانين الطبيعة مكان فى تاريخ الإنسان الآخذ بأسباب التحضر – أو لامكان لها فيه ؟ .

ثم يتعين علينا أن نفحص قطاعات مختلفة من شئون البشر ، لنرى هل يتضح من دراسة أعمق لهذه المسألة ، أنها ليست موضع بحث بالقدر الذى نفترضه الآن . ولعل من المناسب ، إختيار مواضيع الاختبار من بين خضم الشئون العادية للأفراد . وهو موضوع ساهم فيه المؤرخون المحدثون بنصيب موفور تحت عنوان « التاريخ الاجتماعى » .

وواضح أن الصعوبة التى تجابهنا فى بحثنا عن قوانين تحكم تواريخ الحضارات ، لا وجود لها هنا . إذ أن عدد الحضارات المعروفة فى التاريخ من القلة ، إلى حد لايكفى لاستخلاص قانون عام شامل جامع . فهى تقل عن أربع وعشرين حضارة ، ومعلوماتنا عن بعضها محدودة جداً . أما الأفراد العاديون ، فإنهم يُعدون بالملايين . وفى ظل الأحوال السائدة فى الغرب فى العصر الحديث ، خضع سلوكهم لتحليل إحصائى معقد ، وعلى أساسه استنبط بعض رجال الأعمال بعض التنبوءات ، وجازفوا – إيماناً بصحتها – لا بسمعتهم الحميدة فحسب ، ولكن بأموالهم كذلك . فأولئك الذين يهيمنون على الصناعة والتجارة ، افترضوا واثقين ، أن هذه السوق أو تلك قد تستوعب هذا القدر

من هذه السلعة أو تلك . ويحتمل أن تُخطئ تقديراتهم أحياناً ، لكنها تكون سليمة فى أغلب الأحيان ، وإلا اضطروا إلى الخروج من ميدان العمل .

والتأمين ، هو ذلك الجانب من النشاط فى دوائر الأعمال الذى أظهر بأجلى صورة ، قابلية « قانون المعدلات » للتطبيق فى شئون الأفراد . على أن الأمر يقتضى منا — بلا ريب — الحذر من التورط فى اعتبار جميع أشكال التأمين ، دليلا على قابلية « قوانين الطبيعة » للتطبيق على شئون الأفراد ، بالمعنى الذى نقصده بهذه العبارة . إذ يعنى التأمين على الحياة باحتمالات الجسم البشرى ، وهو موضـــوع يقع فى نطاق الفسيولوجيا ، الذى هو بدوره من صميم اختصاص العلم .

ولا يجوز — فى نفس الوقت — إنكار أن للنفس البشرية دوراً فى هذا المضمار . إذ يمكن إطالة الحياة المادية بالتزام الحكمة ، كما يمكن تقصير الأجل بأشكال مختلفة من سوء التدبير تتراوح بين التهور والحماقة ، ثم البهيمية . كما يتضمن التأمين البحرى على السفن وحمولاتها ، دراسة علم الأرصاد الجوية ، وهو بالمثل أحد قطاعات العلم . وإن كان لا يزال فى الوقت الحاضر لا ضابط له . ولكن إذا ما انتقلنا إلى فرع التأمين ضد السرقة أو الحريق ، اتضح لنا أن شركات التأمين تقامر بقوانين المعدلات المطبقة على الصفات البشرية الخاصة ، من إجرام وإهمال .

(ب) الشئون الصناعية لمجتمع غربى حديث

ظهرت المعدلات الإحصائية التى يمكن استخلاصها من تقلبات العرض والطلب فى الصفقات المعقودة بين الموردين وعملائهم ، ظهورا واضحاً ، على شكل مجموعة متلاحقة من دورات الرواج والكساد . إلا أن المعدلات الخاصة بالدورات سالفة الذكر فى دوائر العمل ، لم تحدد — حتى وقت كتابة هذه السطور — بدقة كافية ، من شأنها أن تشجع شركات التأمين على افتتاح فرع جديد لأعمالها ، ولتحديد أسعار للتأمين ضد الأخطار الجسيمة التى تنشأ

عن تلك الدورات . ومع ذلك ، فإن الباحثين من أهل العلم قد عرفوا الكثير عن هذا الموضوع .

وفى التاريخ الفكرى لمجتمع غربى صناعى ، تمّ — بالتجربة — كشف ظاهرة الدورات الاقتصادية ، من طريق الملاحظة الاجتماعية المباشرة ، قبلما تؤكدها الإحصائيات ، وكان مراقب بريطانى يدعى س . ج . لويد S. G. Loyd الذى عرف بعد ذلك باسم اللورد أفرستون Overstone ، أول من وصف تلك الدورات فى بحث نشره عام ١٨٣٧ ميلادية . وفى عام ١٩٢٧ ، أعلن و . س . ميتشل W. C. Michell — وهو باحث أمريكى بحث الدورات الاقتصادية — إيمانه « بتوقع تغيير خواص الدورات الاقتصادية ، كلما ارتقى التنظيم الاقتصادى » . وعلى أساس « الوقائع التجارية » التى جمعها باحث أمريكى آخر هو و . ل . ثورب W. L. Thorb من أدلة غير إحصائية ، استخلص دارس أمريكى ثالث هو ف . س . ميلز F. C. Mills أن متوسط طول الموجة لدورة اقتصادية « قصيرة المدى » بلغ ٥ر٨٦ سنوات إبان مراحل التصنيع الأولى و٤ر٠٩ سنوات إبان العصر التالى ، عصر الانتقال السريع و٦ر٣٩ سنوات خلال الفترة التالية ، فترة الثبات الاقتصادى النسبى التالية .

وعرض اقتصاديون آخرون دورات أخرى ، ساد الاعتقاد بأن بعضها ذات موجات أطول مدى بكثير . وارتأى فريق آخر ، أن هذه « الموجات » قد أظهرت ميلا إلى الانحسار لتقوم حالة من التوازن . إلا أنه لم يكن هناك اتفاق عام بينهم حول هذا النوع من الأزمات الدورية ، إذ كانت دراستها ما تزال — فى الحقيقة — فى طفولتها . ولسنا بحاجة إلى متابعة البحث أبعد من ذلك . إذ أن النقطة التى يهمنا إبرازها ، هى أنه فى خلال مائتى سنة منذ شبوب الثورة الصناعية فى بريطانيا ، ما فتئ روّاد علم الاقتصاد فى الغرب يجهدون فى أن يستخلصوا من ركام المعلومات التى قدمها لهم التاريخ

الاقتصادى ، مجموعة قوانين تحكم هذا القطاع من نشاط البشرية الاقتصادى الذى برزت فيه الصفات المميزة للبشر .

(جـ) تنافس الدول الإقليمية
(توازن القوى)

أما وقد تبين لنا أن الاقتصاديين قد استخدموا نتائج أبحاثهم لاستكشاف أثر القوانين القابلة للتطبيق فى التاريخ الاقتصادى ؛ فطبيعى أن نولى وجوهنا شطر القطاع السياسى للنشاط ، لنرى ما إذا كان من الممكن حدوث أى شىء من هذا القبيل فى هذه الناحية كذلك . وسنختار كميدان لعملنا فى هذا القطاع السياسى ؛ التنافس والحروب التى قامت بين الدول الإقليمية فى الغرب فى العصر الحديث . ولعل من الممكن القول إن العصر الحديث من التاريخ الغربى قد بدأ حوالى نهاية القرن الخامس عشر ، مع حركة إصطناع الدول الأوربية ما وراء الألب ، لنظام الدولة كما عرفته إيطاليا . فيصبح فى متناول أغراض بحثنا الحالى ، أكثر من أربعة قرون .

« يعلم كل تلميذ — وفقا لتقدير ماكولى Macoulay المتفائل — أنه فى أربع مناسبات تفصل بين الواحدة والأخرى : فترة تجاوز بقليل مائة عام ؛ استغل الإنجليز (أو البريطانيون) المناعة النسبية التى هيأتها لهم منعة جزيرتهم فى صد عدوان دولة من دول القارة فى بداية الأمر ، ثم تدميرها بعد ذلك . وكانت تلك الدولة تسعى إلى تزويد العالم المسيحى الغربى بدولة عالمية . أو كانت على أية حال — وحسب التعبير التقليدى — تهدد بالإخلال بميزان القوى .

ففى المناسبة الأولى — تمثلت الدولة المعتدية فى أسبانيا . وتحطمت الأرمادا الأسبانية فى عام ١٥٨٨ .

وفى المناسبة الثانية — تمثل العدوان فى فرنسا على عهد لويس الرابع عشر . وقد هزمت فى موقعة بلنهايم Blenheim عام ١٧٠٤ .

وفى المناسبة الثالثة – كان المعتدى هو فرنسا الثورة ونابليون . وهزمت فى موقعة واترلو عام ١٨١٥

وكانت ألمانيا فى عهد غليوم الثانى ، هى الدولة المعتدية فى المناسبة الرابعة وتمت هزيمتها يوم الهدنة عام ١٩١٨ ؛ ثم عادت مرة أخرى فى عهد هتلر ، فكان أن هزمت فى معركة نورماندى عام ١٩٤٤ .

فهنا أنموذج لا يخطئ لدورية الحروب – من وجهة نظر أهل الجزيرة – يتجلى فى مجموعة من أربعة حروب ؛ يفصل بين الواحدة والأخرى مسافة تنتظم بشكل عجيب . وتفوق كل واحدة سابقتها سواء فى شدة القتال ؟ وفيما سندعوه ، إتساع نطاق النزال . ودارت أولى هذه الحروب بين دول الأطلسى : أسبانيا ، فرنسا ، هولندا ، إنجلترا .

وفى ثانيها : تدخلت دول أوربا الوسطى ، بل روسيا أيضا (إن اعتبرنا الحرب الروسية السويدية حرباً متفرعة عن حرب الوراثة الإسبانية) .

وثالثة الحروب هى الحروب النابليونية . وقد جرت معها روسيا كدولة محاربة رئيسية . وفى الإمكان إلحاق الولايات المتحدة الأمريكية بها إن اعتبرنا حرب ١٨١٢ حرباً متفرعة عن الحروب النابليونية .

وفى الحرب الرابعة ؛ تدخل أميركا كدولة محاربة رئيسية . ويظهر الطابع العام لهذه الحرب من أن معاركها المتلاحقة سميت الحربين العالميتين الأولى والثانية .

وهذه الحروب الأربعة التى نشبت للحيلولة دون إقامة دولة عالمية غربية حديثة ؛ فصلت بين كل منها ، فترة من الوقت تبلغ حوالى القرن . فإذا ما تقدمنا لبحث القرون الثلاثة الواقعة بين هذه الحروب ، وجدنا فى كل حالة ، ما يمكن أن يُطلق عليه حرب أو مجموعة من الحروب الوسطى أو المكملة ؛ وفى كل منها نجد صراعاً على السيادة ، لا يقع فى أوروبا الغربية فى مجموعها ولكن فى المنطقة الوسطى منها ؛ أى ألمانيا .

وإذ كانت هذه الحروب تنشب فى أوروبا الوسطى قبل غيرها — لم تشتبك بريطانيا فى أية واحدة منها ، بينما صدفت عن التدخل إطلاقاً فى بعض منها ، فمن ثم لا تدخل هذه الحروب على الإطلاق فيما « يعلمه كل تلميذ » (ونعنى بالطبع كل تلميذ بريطانى) . وكانت حرب الثلاثين عاما (١٦١٨–١٦٤٨) أولى تلك الحروب الوسطى . وتألف الجانب الأعظم من الحرب الثانية من حرب فردريك الأكبر ملك بروسيا (١٧٤٠ — ١٧٦٣) ؛ واقترنت ثالثها باسم بسمارك « وإن كانت قد تضمنت كثيراً غيره ولهذا ينبغى أن يؤرخ بين السنوات (١٨٤٨ — ١٨٧١) ...

وأخيراً ؛ فلعله يقال إن هذه المأساة ذات الفصول الأربعة ، كانت لها فاتحتها . فهى لا تبدأ بفيليب الثانى ملك اسبانيا ، ولكن بالحروب الإيطالية التى نشبت بين أسرتى هابسبرج Habsburg وفالوا Valois قبل ذلك بجيلين . ولقد بدأت هذه الحروب بغزو تافه لإيطاليا — وإن كان مشئوما — قام به الملك شارل الثامن ملك فرنسا . وما برحت المصادر التعليمية تستخدم تاريخ الغزو — وهو عام ١٤٩٤ — كخط صريح حاسم يفصل العصور الوسطى المتأخرة عن الفترة الأولى من العصر الحديث . وهذا التاريخ ؛ يقع بعد عامين من فتح المسيحيين لآخر أرض إسبانية بقيت فى حوزة المسلمين ، ومن أول رسو لكولمبوس فى جزائر الهند الغربية .

ويمكن وضع هذا كله فى شكل جدول . فإذا فحصنا دورات الحرب والسلم فى التاريخ الهلينى الذى أعقب الإسكندر ، وفى التاريخ الصينى خلال العصور التالية لكونفوشيوس[1] ، لوجدنا نماذج تاريخية تماثل تماثلا مذهلا مع ما تم كشفه فى سياق التاريخ الغربى الحديث . وذلك سواء فى تركيب هذه النماذج ، أو وحدتها .

---

(١) إذا أراد القارئ الكريم التوسع ؛ فليرجع إلى المجلد التاسع من كتاب الأستاذ توينبى « دراسة التاريخ » فى صورته غير المختصرة .

تعاقب دورات الحرب والسلم فى تاريخ الغرب

المرحلة	المقدمة ١٤٩٤ – ١٥٦٨	الدورة المنتظمة الأولى ١٥٨٥ – ١٦٧٢	الدورة المنتظمة الثانية ١٦٧٢ – ١٧٩٢	الدورة المنتظمة الثالثة ١٧٩٢ – ١٩١٤	الدورة المنتظمة الرابعة ١٩١٤ –
أولا – نُذُر الحرب (مقدماتها)	. . .	. . .	١٦٦٧ – ١٦٦٨(١)	. . .	١٩١١ – ١٩١٢(٢)
ثانيا – الحرب العامة	١٤٩٤ – ١٥٢٥(٣)	١٥٦٨ – ١٦٠٩(٤)	١٦٧٢ – ١٧١٣(٥)	١٧٩٢ – ١٨١٥(٦)	١٩١٤ – ١٩٤٥(١٠)
ثالثا – فترة راحة	١٥٢٥ – ١٥٣٦	١٦٠٩ – ١٦١٨	١٧١٣ – ١٧٣٣	١٨١٥ – ١٨٤٨	. . .
رابعاً – حروب إضافية (الختام)	١٥٣٦ – ١٥٥٩(٧)	١٦١٨ – ١٦٤٨	١٧٣٣ – ١٧٦٣(٨)	١٨٤٨ – ١٨٧١(٩)	. . .
خامسا – السلام العام	١٥٥٩ – ١٥٦٨	١٦٤٨ – ١٦٧٢	١٧٦٣ – ١٧٩٢	١٨٧١ – ١٩١٤	

---

(١) هجوم لويس الرابع عشر على الأراضى المنخفضة الإسبانية .

(٢) الحرب التركية الإيطالية عام ١٩١١ – ١٩١٢ – الحروب التركية البلقانية ١٩١٢ – ١٩١٣ .

(٣) ١٤٩٤ – ١٥٠٣ و ١٥١٠ – ١٥١٦ و ١٥٢١ – ١٥٢٥ .

(٤) ١٥٦٨ – ١٦٠٩ فى الأملاك الاسبانية الأسرة هابسبرج و ١٥٦٢ – ١٥٩٨ فى فرنسا .

[illegible] — ١٥٠٤ و ١٥١٦ — ١٥٢١ و ١٥٢١ — ١٥٧٥ .

(٤) ١٥٦٨ — ١٦٠٩ في الأملاك الاسبانية لأسرة هابسبرج و ١٥٦٢ — ١٥٩٨ في فرنسا .

(٥) ١٦٧٢ — ١٦٧٨ و ١٦٨٨ ١٦٩٧ و ١٧٠٢ — ١٧١٢ .

(٦) ١٧٩٢ — ١٨٠٢ و ١٨٠٣ — ١٨١٤ و ١٨١٥ .

(٧) ١٥٢٦ — ١٥٣٨ و ١٥٤٢ — ١٥٤٤ (١٥٤٤ — ١٥٤٦ و ١٥٤٩ — ١٥٥٠ إنجلترا ضد فرنسا) و (١٥٤٦ — ١٥٥٢ عصبة الأمراء البروتستانت في الإمبراطورية الرومانية المقدسة ضد شارل الخامس) و ١٥٥٢ — ١٥٥٩ .

(٨) ١٧٣٣ — ١٧٣٥ و ١٧٤٠ — ١٧٤٨ و ١٧٥٦ — ١٧٦٣ .

(٩) ١٨٤٨ — ١٨٤٩ و ١٨٥٣ — ١٨٥٦ و ١٨٥٩ (١٨٦١ — ١٨٦٥ : حرب أهلية في الولايات المتحدة وفي سنة ١٨٦٢ — ١٨٦٧ الاحتلال الفرنسي للمكسيك) ١٨٦٤ و ١٨٦٦ و ١٨٧٠ — ١٨٧١ .

(١٠) سبقت الحرب العالمية التي نشبت خلال ١٩٣٩ — ١٩٤٥ مدة نذر اتخذت شكل حروب مثل : عدوان اليابان على الصين الذي بدأ في منشوريا عام ١٩٣١ ، والحرب الإيطالية الحبشية ١٩٣٥ — ١٩٣٦ ، والحرب الأهلية الاسبانية ١٩٣٦—١٩٣٩ ، وحملة اليوم الواحد القاضية على منطقة الراين في مارس سنة ١٩٣٦ — وإن كانت حملة بيضاء لم تسفك فيها دماء إلا أنها دفعت ثمنا باهظا لذلك « مع الفوائد المركبة » في المذابح التي حدثت في السنوات من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥ .

(د) تحلل الحضارات

إذا ما عُدنا برهة إلى أنموذجنا الدورى عن حروب المجتمع الغربى الحديث ، فلعلنا نرتاع لحقيقة مبناها أن دورة الحروب هذه « ليست مجرد عجلة تدور فى فراغ أربع مرات » وتعود فى كل مرة إلى الوضع الذى بدأت منه دوراتها . إذ لا يقتصر الأمر على ذلك ؛ فالعجلة تتحرك إلى الأمام قُدُماً ، فى طريق مشئوم .

فى ناحية ، نجد أربع حالات لدول تتحالف سوياً ذياداً عن حياضها ضد جار عات جبار ؛ لتثبت له حين يجد الجد ، أن كبرياءه قد ساقه نحو الهاوية .

وفى الناحية الأخرى ، نقطة لا يوضحها أنموذج الحرب الدورية ، لكن تُظهرها أية معرفة أولية للتاريخ . وتتسم كل دورة من دورات الحروب الأربع هذه ، بكونها أوسع من سابقتها شمولا وأشد عنفاً وأفظع تدميرا ، من الناحيتين المادية والمعنوية على السواء . ولقد انتهت دورات الحروب هذه فى تواريخ المجتمعات الأخرى — كالمجتمعين الهلينى والصينى — باكتساح جميع الأطراف المتنازعة ، عدا طرف واحد « هو الذى يُقيم بعد ذلك دولة عالمية .

ولقد عرض لنا خلال دراستنا تحلل الحضارات « هذا الاستهلاك الذاتى الذى ينشأ من هذه الدورة الرتيبة ، والذى يعتبر المظهر الغالب للصراع الناشب بين الدول الإقليمية فى سبيل البقاء . فلا بدع والحالة هذه ؛ أن يتوافر هذا الشبه بين إيقاع عمليتين ترتبط إحداهما بالأخرى ارتباطاً لا شبهة فيه[1] ،

---

(١) انظر الفصل الحادى والعشرين « إيقاع التحلل » الوارد بصفحات ٤٥٩ — ٤٧٠ من الجزء الثانى من هذه الترجمة . ولقد عبّر الأستاذ المؤلف عن إيقاع التحلل تعبيراً عسكرياً على النمط التالى : كسرة — نهضة — كسرة — نهضة — كسرة . ومصداقاً لهذا « يعتبر عصر الاضطرابات الذى يتلوه انهيار بمثابة « كسرة » » وإنشاء الدولة العالمية بمثابة « نهضة » ؛ وتعتبر فترة الفراغ التى تستتبع انقسام الدولة العالمية بمثابة الكسرة النهائية . (المترجم)

وأظهرت دراستنا الانهيار الحضارى – الذى تولدت فيه حالة التحلل – أن كثيرا ما تكون مناسبة أو أعراض (أعراض التحلل) . ويسفر الانهيار عن اندلاع حرب عنيفة ، عنفاً لا مثيل له بين الدول الإقليمية التى يتألف منها المجتمع .

وقد يعقب عملية إحلال إمبراطورية عالمية محل الدول المتصارعة ؛ لا وقف حركات العنف تماماً ، ولكن عودة ظهورها فى أشكال جديدة كحروب أهلية أو ثورات اجتماعية . ومن ثمت ؛ فإن عملية الانحلال وإن كانت قد توقفت مؤقتاً ، فهى مستمرة فى طريقها .

ولاحظنا كذلك[1] أن عمليات التحلل – كحروب الدول الإقليمية – قد دارت دورتها فى مجموعات مضت فى طريقها فى شكل تقلبات رتيبة . وبفحص عدد من الأمثلة ، ثبت لدينا أن الدورة الرتيبة لـ « الكسرة » و « النهضة » تتغلب فيها نزعة التحلل فى معركتها الطويلة الأمد ضد حركة مقاومة لها . وقد استطاع أن يدق ثلاث دقات ونصف دقة : كسرة ، نهضة ، نكسة ، نهضة ، نكسة ونهضة ثم نكسة ، وهو فى سبيل استكمال رحلته التاريخية من إنهيار الحضارة إلى تحللها النهائى . وعلى ذلك ؛ تدفع الكسرة الأولى المجتمع المنهار إلى عصر اضطراب تخفف من حدته النهضة الأولى التى لا يطول أمدها ، إذ تفاجئ المجتمع حركة أشد عنفاً تصل إلى الذروة ، وتتلو هذه النكسة نهضة ثانية أطول أمدا تتبلور فى تشييد دولة عالمية ، تكابد هى بدورها نكسة ثم تحرز انتعاشا يتلوه التحلل النهائى .

ويظهر من ذلك ، أن مأساة التحلل الاجتماعى – إن حكم عليه بما حدث حتى الآن – هى حبكة أكثر دقة وانتظاما من حبكة مأساة توازن القوى ومن دراسة جدولنا عن الدول العالمية[2] ، سنجد أنه فى الحالات التى لم يختل

---

(١) انظر صفحتى ٤٦٠ و ٤٦١ من الجزء الثانى من هذه الترجمة .

(٢) مكانه آخر هذا الجزء .

فيها سير الأحداث بتأثير هيئات اجتماعية غريبة ، قد تستغرق الحركة : كسرة — نهضة — نكسة — نهضة أنجع أثرا ، فترة أربعمائة سنة تبدأ من الانهيار الأول إلى تشييد الدولة العالمية . كما تستغرق الحركة التالية المكونة من النكسة الراجعة ثم نهضة أخيرة ثم نكسة نهائية ؛ تستغرق مدة مساوية تقريباً تبدأ من تشييد الدولة العالمية حتى تحللها .

لكن إنقضاء أجل الدولة العالمية ، لا يتم فى يسر وسهولة . فإن الامبراطورية الرومانية وقد تمزقت إربا فى المقاطعات الغربية المتأخرة اجتماعيا غداة كارثة أدرنة عام ٣٧٨ ميلادية (أى بعد مضى أربعمائة سنة بالتمام على تشييد أغسطس Augustus لها) لم تسلك نفس الطريق فى المقاطعات الوسطى والشرقية ، إلا بعد وفاة يوستنيان عام ٥٦٥ ميلادية . وشبيه بذلك إمبراطورية هان Han (الصينية) التى لقيت ضربتها الثانية عام ١٨٤ ميلادية والتى تمزقت — من ثمت — إلى ممالك ثلاث توصلت إلى إعادة تشكيل كيانها — لفترة قصيرة فى إمبراطورية تسين Ts'in (أعوام ٢٨٠ — ٣١٧ ميلادية) قبلما تنهار نهائيا .

(هـ) نمو الحضارات

إذا ما تحولنا باهتمامنا من التحلل الاجتماعى إلى النمو الاجتماعى ، سنستعيد ما اهتدينا إليه فى مرحلة سابقة من هذه الدراسة[1] : ألا وهو أن نمو الحضارة — مثل تحللها — حركة رتيبة فى دوريتها . إذ يتخذ النمو الحضارى سبيله كلما أثار أحد التحديات استجابة ناجحة ، تثير هى بدورها تحديا آخر مختلفا . ولم نعثر على أى سبب أصيل يحول دون تكرار هذه العملية نفسها إلى ما لا نهاية . هذا على الرغم من أن جمهرة الحضارات التى إنبعثت إلى الوجود حتى وقت كتابة هذه السطور ؛ قد أخفقت — وهذه حقيقة

(١) بسط الأستاذ المؤلف آراءه فى شأن نمو الحضارات فى صفحات ٢٧٥ — ٤٠٦ من الجزء الأول من هذه الترجمة .

تاريخية مقررة – فى مواصلة نموها ، لأنها عجزت – إلا فى حالات قليلة – عن تقديم استجابة هى رد ناجع على التحدى الذى أثارها ، وهى فى نفس الوقت مصدر خصب لتحد جديد يتطلب استجابة مختلفة .

فمن قبيل المثال : شاهدنا فى تاريخ الحضارة الهلينية[1] أن التحدى الأول الذى أثارته البربرية الفوضوية ، قد استثار استجابة فعّالة ، اتخذت شكل بناء سياسى هو دولة المدينة . كما لاحظنا أن نجاح هذه الاستجابة قد استثار تحديا جديدا ، كان هذه المرة على الصعيد الاقتصادى فى هيئة ضغط تزايد السكان على موارد المعيشة المتاحة . واستثار هذا التحدى الثانى عددا من الاستجابات البديلة تباينت فى فعّالياتها :

١ – كانت هناك كارثة الاستجابة الاسبرطية التى قامت على الاستيلاء عنوة على أراضى جيران اسبرطة الهيلينيين المنتجين للمواد الغذائية .

٢ – وكانت ثمة استجابة أثمرت – حيناً ما – فى كورنث وخالقدونيا وتقوم على الاستعمار . ويعنى استيلاء الهلينيين على حقول جديدة يحرثونها فيما وراء البحار ، فى أراض تُغتصب من الشعوب الأكثر تأخراً القاطنة فى الحوض الغربى للأبيض المتوسط .

٣ – وهناك الاستجابة الأثينية ذات التأثير المستديم الناجع . ومناطها زيادة الطاقة الإنتاجية المتجمعة لهـذا العالم الهلينى الموسّع ، بعدما أوقفت إمتداده الجغرافى ، مقاومة منافسيه من الفينيقيين والإترسك (الأترووريون) . وكان أساس الاستجابة إحداث ثورة استُعيض فيها عن إنتاج المحصولات للاستهلاك ، بإنتاج محاصيل تباع نقداً ، وإنتاج صناعى يصدر فى مقابل مواد غذائية ، وخامات تستورد .

---

(١) انظر صفحتى ٣١٥ و ٣١٦ ثم صفحتى ٣١٩ و٣٢٠ من الجزء الأول من هذه الترجمة .

وهذه الاستجابة الناجحة لتحدٍّ اقتصادى ؛ قد استثارت – كما رأينا – تحدياً آخر ، برز على الصعيد السياسى . لأن العالم الهلينى بعد أن ظهر أن أصقاعه قد أصبحت معتمدة بعضها على بعض ؛ مسّت حاجتها إلى تنظيم سياسى يكفل القانون والنظام على مستوى عالمى . فإن النظام العام المستند على أوضاع دولة المدينة ذات الطابع المحلى . وهو الذى فرض قيام اقتصاد زراعى ذى اكتفاء ذاتى فى كل رقعة منعزلة من الأرض المنبطحة – لم يعد صالحاً لقيام بناء سياسى يلائم المجتمع الهلينى ، الذى أصبح بنيانه الاقتصادى – وقتذاك – يقوم على الوحدة . ولم يُجابه هذا التحدّى الثالث فى الوقت المناسب حتى يتيسر إنقاذ نمو الحضارة الهلينية من الانهيار السريع .

ونستطيع كذلك أن نطلع فى نمو الحضارة الغربية على سلسلة من تحدّيات متعاقبة استثارت استجابات موفّقة . وتمتاز هذه السلسلة من التحديات بكونها أطول أمداً من التحديات الهلينية ؛ من ناحية أن التحدى الثالث قد جوبه باستجابة موفّقة مثلما جُوبه التحديان الأول والثانى :

١ – تمثّل التحدى الأول فى نفس البربرية الفوضوية التى قامت فى فترة انتقالية ، كتلك التى جابهت الهلينيين من قبل ؛ ولكن مع اختلاف نمط الاستجابة . ففى حالة الغرب تجلّت الاستجابة للتحدى فى قيام نظام كنسى عالمى فى هيئة البابوية التى أقامها البابا هيلدبراند .

٢ – استثار هذا تحدياً ثانيا . إذ ألفت المسيحية الغربية النامية نفسها – وقد حققت وحدة كنسية – مفتقرة إلى نظام وطيد للدولة الإقليمية ، يكون ناجعاً من الناحيتين السياسية والاقتصادية . فكان أن جوبه التحدى بإعادة الحياة لنظام دولة المدينة الهلينى ، فى كل من إيطاليا والأراضى المنخفضة .

لكن هذا الحل الذى أجدى تماما فى بعض المناطق أخفق فى الوفاء باحتياجات الدول الملكية الإقطاعية ذات الأقاليم الواسعة . فهل كان من

شأن الحل الذى توصلوا إليه فى إيطاليا وهولندا عن طريق نظام دولة المدينة » أن يصلح للتطبيق فى بقية أنحاء العالم الغربى » باصطناع هذه الكفاءة التى تحققت فى إيطاليا وهولندا فى نطاق أوسع هو نطاق الأمة الكبيرة[١] ؟

حُلّت هذه المشكلة – كما رأينا – فى إنجلترا ، على الصعيد السياسى – فى البداية – عن طريق تلقيح النظام البرلمانى الذى كان شائعاً فى أوروبا ما وراء الألب إبان العصور الوسطى ، تلقيحه بالكفاية . ثم حُلّت المشكلة بعد ذلك على الصعيد الاقتصادى ، بفضل الثورة الصناعية . إلا أن هذه الثورة الصناعية الغربية – مثل الثورة الاقتصادية الأثينية فى التاريخ الهلينى – أدت إلى الاستعاضة عن اقتصاد إقليمى أساسه الاستكفاء الذاتى » بتكافل اقتصادى عالمى الطابع .

٣ – ألفت الحضارة الغربية نفسها ، نتيجة لاستجابتها الموفقة لتحدٍ ثالث ، تجابه نفس التحدى الجديد الذى سبق أن واجه الحضارة الهلينية عقب استجابتها الموفقة لتحديها الثانى . فحتى كتابة هذه السطور – فى منتصف القرن العشرين – لم يظهر فى الأفق أن الإنسان الغربى قد جابه هذا التحدى السياسى بنجاح . لكنه أصبح شديد الإدراك لخطورته » وما ينطوى عليه من تهديد .

وفى هذه النظرات العابرة على نمو حضارتين ، ما يكفى لإظهار انتفاء المشابهة بين تاريخهما ، فيما يتصل بعدد الحلقات فى تسلسل دورات التحدى والاستجابة المترابطة ، التى تحقق عن طريقها النمو الاجتماعى . كما أن درس تواريخ جميع الحضارات – التى تتوافر وثائقها توافراً كافياً – يؤكد تلك النتيجة .

وهكذا ، يبدو أن حاصل بحثنا الحالى قد تبلور فى أن أثر « قوانين

---

(١) بدلا من قصره على المدينة فقط . (المترجم)

الطبيعة » غير واضح فى تواريخ نمو الحضارات ، وضوحه فى تواريخ إنحلالها » وسنجد فى فصل تال أن هذه النتيجة ليست من قبيل المصادفة ؛ لكنها ثمة تلازم التباين الأصيل ، بين عملية النمو وعملية الانحلال .

(و) لا درع يقى من القدر

استبان لنا من دراستنا أثر « قوانين الطبيعة » فى تواريخ الحضارات ؛ أن الرتابة التى تتبدى فيها هذه القوانين ، قد تتولد عن صراع بين نزعتين تتفاوتان شدة وقوة :

إحداهما نزعة مسيطرة تتغلب على مدى الزمن ، على تحركات مضادة متكررة تقوم بها النزعة المناهضة إثباتاً لوجودها . ويقدم هذا الصراع نوع الإيقاع « أو الرتابة .

أولا : فإن إصرار النزعة الضعيفة على رفض التسليم بالهزيمة ، يفسر تكرار حدوث الصدام المرة بعد الأخرى ؛ فى سلسلة من الدورات المتعاقبة .

ثانياً : تثبت النزعة القوية ، سلطانها بوضع حد لتلك السلسلة « إن عاجلا أو آجلا .

وفى ضوء هذه الخطوط الرئيسية ؛ لاحظنا ضروب الصراع بين الدول الإقليمية فى سبيل البقاء : خلال ثلاث أو أربع دورات من الحروب خاضها أحد الطرفين بقصد تحطيم مبدأ توازن القوى ؛ بينما كان الطرف الآخر يهدف إلى المحافظة على هذا التوازن ؛ وكان الأمر ينتهى فى كل حالة ؛ إلى تحطيم توازن ميزان القوى . كما شاهدنا أيضاً « الصراع بين اتجاه المجتمع المنهار نحو الانحلال ، وبين جهد مضاد يقوم به هذا المجتمع . وهو أسلوب كان ينتهى بالتردى فى الانحلال « فى كل حالة .

وفى دراستنا « أثر قوانين الطبيعة » فى الشئون الاقتصادية لمجتمع صناعى غربى ، ظهر لنا أن الخبراء الباحثين فى الدورات الاقتصادية «

قد حلسوا بأن هذه الحركات المتكررة قد تكون موجات تتدافع على سطح مياه ، ما فتئت تتدفق طوال الوقت فى تيار متصل ، لا بد أن ينتهى إلى وضع حد لهذه التقلبات الرتيبة . ولعلنا نذكر فى هذا الصدد النتيجة التى وصلنا إليها ؛ من أنه عندما — وحيثما — ينشب صراع بين حضارة متحللة ، وعصابات من البرابرة المتمردين رابضة وراء حدودها ؛ وينتقل هذا الصراع من حرب الحركة إلى حرب ثابتة » على طول حدود الدولة العالمية ؛ يصبح الوقت — عادة — ضد المدافعين عن تلك الحدود ؛ ويتحول إلى مصلحة من المتبربرين المهاجمين لها . ويظل الضغط قائماً حتى ينفجر السد ويكتسح طوفان البربرية أمامه الكيان الاجتماعى — الذى كان قائماً[1] .

هذه كلها أمثلة للنتيجة الأعم التى اهتدينا إليها . ومدارها أن للحركات الدورية فى التاريخ البشرى — مثل الدورات العادية لعجلة العربة — القدرة على أن تبعث — بفضل حركاتها الدائرية المتكررة الرتيبة — حركة أخرى أطول رتابة ، يمكن — عن طريق مقارنتها بسابقاتها — أن تكون تقدماً متجمعاً مطرداً فى اتجاه واحد ، يدرك هدفه فى النهاية . حتى إذا بلغ هدفه ؛ وضع حداً للحلقة كلها . على أنه ليس ثمة ما يؤكد اعتبار انتصارات اتجاه على آخر » كشواهد على « قوانين الطبيعة » . فقد لوحظ — بالتجربة — أن الحقائق ليست بالضرورة نتيجة قدر صارم . ويقع عبء الإثبات هنا على عاتق القائل بمذهب الجبر ، لا على اللاأدرى[2] — وهذه وجهة نظر فشل شبنجلر

---

(١) يراجع فى تفصيل هذا الرأى مبحث « تجمع الضغط الوارد فى صفحات ٢٢٥ — ٢٣٦ من الجزء الثالث من هذه الترجمة .

(٢) أى المعتنق للفلسفة اللاأدرية أو الأغنسطية . وهى حركة دينية نشأت والمسيحية فى بدايتها . وهى محاولة لتكوين مزيج من اللاهوت المسيحى والفلسفة اليونانية وعناصر مأخوذة من النحل السرية التى شاعت فى منطقة الأبيض المتوسط ، وفى مصر بالذات حيث نشأت فيها عبارة سيرابيس وإيزيس وحورس التى سادت منطقة الأبيض المتوسط قبل نشوء المسيحية . ــ

Spengler بفلسفته الحتمية القطعية والتي تخلو من السند ــ في أن يأخذها مأخذ الاعتبار .

على أنه ــ دون الإخلال بمسألة الخلاف بين « القانون والحرية في التاريخ التي لم يستقر فيها الرأى بعد ــ نقترح قبل مواصلة مناقشتنا أكثر من ذلك ؛ أن نسجل طائفة من الأحداث الأخرى ، ظهرت فيها نزعة ما ، وعادت تؤكد وجودها في وجه ثورات متتابعة نشبت ضدها . وشبنجلر لا يرى فيما تسفر عنه هذه القوى المتصارعة إلا يد « القدر » ، وسواء أكان مذهبه عن « الحتمية »صحيحاً ، أم فاسداً ؛ فهو لم يحاول إثباته .

وسنبدأ بالموقف الذي نشأ عن سيطرة اليونان بالقوة العسكرية على جنوب غرب آسيا .

فعلى الرغم من أن هذه السيطرة الهلينية قد طال أمدها حتى بلغ أقل من الألف سنة بقليل عندما اكتسحتها جيوش المسلمين إبان القرن السابع الميلادي ؛ فإن الهلينية لم توفق قط في الأقاليم الواقعة جنوب جبال طوروس ، في أن تصبح شيئاً أكثر من ثقافة ثقيلة أجنبية تبعث شعاعها الباهت ــ على بقاع ريفية ــ سرية أو مصرية ــ متمسكة بأصلها ؛ وذلك من عدد قليل من مراكز متقدمة هلينيـــة أو متهلنة(1) . ولقد دأب الملك السلوقي أنطيوخس أبيفانس Antiochus Epiphanes (حكم من ١٧٥ إلى ١٦٣ ق . م . على السعى لصبغ البلاد التي خضعت لحكمه بالصبغة الحضارية الهلينية) . وقد وضع قدرة الثقافة الهلينية على استمالة الجماهير إليها « موضع الاختبار . وذلك عندما شرع في جعل أورشليم مدينة هلينية ، مثلما كانت أنطاكية . وكانت الهزيمة المنكرة الطنانة التي أصابت هذه المغامرة العسكرية والثقافية في وقت واحد ؛

= ويرى اللاأدريون (أو الأغنسطيون) أن لهم علماً باطناً بجوهر الديانة ولبابها . وبهذه المعرفة ، يتيسر لهم بلوغ الاستنارة والخلاص (الغفران) . (المترجم)

(1) أى تصطبغ بالصبغة الثقافية الهلينية . (المترجم)

كانت نذيراً بالأفول النهائى الكامل لتلك الثقافة الدخيلة . غير أن هذه الثقافة قد امتد بها الأجل – رغم وهنها المتواصل – عدة قرون أخرى ، بفضل حقيقة معروفة ؛ وهى أن الرومان انتزعوا السلطان السياسى من السلوقيين والبطالمة الآخذين فى الضعف .

إن قوة السلاح ؛ هى التى فرضت سيطرة اليونان على المجتمعين السورى والمصرى ، واستبقتها . وما فتئ المجتمعان المقهوران يحتضنان الهزيمة ؛ طالما أبديا استجابة للحضارة الغربية من نوعها . ولقد بدا أثناء الفصل التالى لهذه القصة ، أن تحول جماهير سكان الولايات الشرقية إلى المسيحية خلال القرن الثالث الميلادى – قد يؤدى للثقافة الهلينية – بطريق غير مباشر – ما حاول أنطيوخس أن يحققه لها ، وعجز عن تحقيقه ؛ فلقد استهوت الكنيسة المسيحية الكاثوليكية طبقة أهل الريف إلى صفها ؛ مثلما بهرت ألباب طبقة حضرية هلينية تسيطر على تلك الطبقة الريفية . وإذ كانت المسيحية فى طريقها المظفر متشحة برداء هلينى ، بدا كما لو أن أهل الشرق قد تلقوا مع المسيحية فى نهاية الأمر ، ثقافة لفظوها من قبل وصدفوا عنها بعنف ؛ وقدّمت إليهم سافرة غير مقنعة .

على أن هذا تقدير قد استبان ضلاله ! !

فإن الشرقيين ما أن يعملوا المسيحية المصطبغة بالصبغة الهلينية ؛ حتى آلوا على أنفسهم تجريدها من العناصر الهلينية ، باعتناقهم بدعاً دينية متوالية ؛ وكانت النسطورية[1] أولاها . وعلى ذلك ؛ فإن أهل الشرق بمواصلتهم

---

(١) مذهب مسيحى أسسه نسطوريوس Nestorius السورى (مات حوالى عام ٤٥٠ ميلادية) . وقد اختاره الإمبراطور البيزنطى عام ٤٢٨ بطريركا للقسطنطينية . وينكر نسطور على السيدة مريم لقب « أم الإله » ويقتصر على تلقيبها بأم المسيح الإنسان . ولا يعتبر نسطور السيد المسيح إلهاً ولكن مجرد بشر ؛ ويؤله « الكلمة » لأنها صدرت عن الله وبها خلق السيد المسيح . وعلى الرغم من معارضة جمهرة رجال الدين المسيحى لنسطور فإنه ثبت على موقفه لا يتزحزح ، وأحدث بلبلة شديدة فى أنحاء العالم المسيحى . فكان أن عقد –

مقاومة الثقافة الهلينية » فى صورة مجادلة لاهوتية بعيدة عن القوة العسكرية ، قد ابتدعوا أسلوباً جديداً يقوم على الحرب الثقافية التى كانت كلمتهم فيها هى العليا ، فى نهاية الأمر .

واتخذ هذا الهجوم الثقافى المناهض للتأثيرات الهلينية — طوال عدة قرون — النمط الدائرى الذى ألفناه من قبل . فقد علت موجة النسطورية ثم هبطت ، لتتلوها موجة مذهب الطبيعة الواحدة[1] . وهذه بدورها ، تبعتها الموجة الإسلامية التى اكتسحت أمامها كل شىء .

وقد يقال إن الانتصار الإسلامى ، كان عودة لأسلوب الفتح الحربى الصرف . حقاً إنه لن يتأتى — من غير شك — اعتبار الجماعات العسكرية العربية الإسلامية » إرهاصا لمذهبى تولوستوى وغاندى القائمين على نبذ العنف والعزوف عن المقاومة . بيد أن العرب وإن كانوا قد « فتحوا » سوريا وفلسطين ومصر خلال سنوات ٦٣٧ — ٦٤٠ ميلادية ، إلا أن هذا الفتح كان شبيهاً بما حققه غاريبالدى Garibaldi عندما غزا صقلية ونابولى عام ١٨٦٠ بقوة تتألف من ألف متطوع من ذوى القمصان الحمراء يعززهم مدفعان صغيران يجرونهما وراءهما لمجرد الاستعراض دون أية ذخيرة .

ولقد استطاعت البعثة العسكرية لجماعة وحدة إيطاليا Italia Una فتح مملكة الصقليتين ، لأن هذه المملكة رغبت فى أن تفتح . وما كانت مشاعر سكان الولايات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية تجاه جماعات العرب المسلحة » تختلف تماما عن مشاعر الصقليين تجاه غاريباندى .

= عام ٤٣١ بمدينة أفسوس مجمع لتسوية النزاع بين رجال الدين . وقد انتهى المجمع بتكفير نسطور وتجريده من وظيفته . وينحصر اتباع المذهب النسطورى فى الوقت الحاضر فى أقلية تنتشر بالعراق وسوريا وفارس وروسيا (القوقاز) وأمريكا . (المترجم)

(١) مذهب الطبيعة الواحدة (المذهب المينوفيستى) . السيد المسيح وفقاً له إله على الأرض وفى السماء . عكس المذاهب المسيحية الأخرى التى تعتقد بأن السيد المسيح طبيعتين : بشرية خلال وجوده على الأرض وانتهت بموته على الصليب فداء للبشرية » وإلهية بانتقاله إلى السماء بعد الصليب . (المترجم)

وهكذا ؛ نرى فى المثال الذى أوردناه آنفا ؛ حلقة متتابعة من الاحتجاجات الهرطقية ، ضد نظام من التجانس غير مرغوب فيه ، انتهت بفوز الاحتجاج الثالث .

ويبدى تاريخ فرنسا منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، نفس النمط . ولكن فى ظروف مختلفة .

إذ كانت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى فرنسا مشتبكة – منذ ذلك القرن – فى صراع – لم يحرز فى أى وقت من الأوقات إلا نصرا وقتيا – لتوطيد دعائم وحدة فرنسا الدينية – كبلد مسيحى كاثوليكى – فى مواجهة دافع نحو الانفصال ؛ يؤكد وجوده فى شكل جديد ، كلما أخمدت الحركة المرة بعد الأخرى. ومن ذلك ؛ أن الثورة التى نشبت ضد المسيحية الكاثوليكية ، قد اتخذت شكل « الكاثارية Catharism[1]. واندلعت لأول مرة فى جنوب فرنسا إبان القرن الثانى عشر ثم أُخمدت فى تلك المنطقة فى القرن السادس عشر فى شكل الكالفينية Calvinism[2] . فلما قُضى على الكالفينية ، سرعان

---

(١) كاثارى Cathari : مذهب دينى مسيحى انتشر فى غضون العصور الوسطى انتشاراً واسعاً بين طائفة اللاأدريين . وكلمة « كاثارى » مشتقة من اللغة اليونانية ، وتعنى « التطهر » وظلت هذه الحركة قائمة حتى منتصف القرن الرابع عشر . ومناط عقيدة الطائفة إنقسام البشر إلى طبقتين : الصفوة والمؤمنين . ويعتبر الصفوة قديسين على الأرض وتجب طاعتهم على المؤمنين دون مناقشة . ويؤمن أتباع طائفة الكاثارية بأن الشيطان هو حاكم هذه الدنيا التى تعتبر نوعاً من المطهّر أو الجحيم . على أنهم آمنوا بالخلاص النهائى للبشرية بأسرها وبعودة الإنسان إلى الدنيا أكثر من مرة فى أشكال شتى قبل تساميه – فى نهاية المطاف – مع السيد المسيح . واعتنق بعض أفراد الطائفة فكرة التقمّص ، أى انتقال الروح إلى موجود آخر بعد الموت . (المترجم)

(٢) الكالفينية : مناط آراء المذهب ما يتصل بموضوع «القضاء والقدر » . ومداره أن الله قد اختار نفوساً معينة يمنحها الخلاص (الغفران) ونفوساً أخرى أوجب عليها اللعنة الأبدية . ولا عاصم البتة من قضاء الله وقدره . ويهب الله أفراد الطائفة الأولى رحمته والطاقة على الاحتمال . ومن الكالفينية ؛ انحدرت طوائف البروتستانت فى فرنسا وسويسرا ، كما انحدرت كذلك طوائف المطهّرين (البيوريتان فى انجلترا وأميركا وغيرها . (المترجم)

ما استعادت الحركة الانفصالية كيانها فى شكل الجانسينية Jansenism[١] ، وكان المذهب الجديد أقرب المذاهب للكاليفينية — فى نطاق الكنيسة الكاثوليكية . ولما قضى على حركة مناهضة الكاثوليكية فى شكلها الجانسيى ، عادت إلى الظهور فى شكل مذاهب أخرى كمذهب التأليه والمذهب العقلى[٢] و « اللاأدرية » و « الإلحاد » .

ولقد لاحظنا فى مواطن أخرى من بحثنا كيف قدر لمذهب التوحيد عند اليهود أن يغلب المرة بعد الأخرى أمام المذاهب التى تقوم دوما داعية إلى تعدد الآلهة . كما بينا كذلك ما كُتب على الفكرة اليهودية المتصلة بالوحدانية ، وهى تسامى الإله الواحد الحق[٣] — من الانتكاس بسبب الاشتياق إلى إله متجسد[٤] .

---

(١) الجانسية : نحلة دينية مسيحية تنسب إلى جانسين كورنيلوس (١٥٨٥ — ١٦٣٨) . وكان عالماً دينياً هولندياً درس اللاهوت بباريس . وبعد عامين من وفاته ، نشر أصدقاؤه آراءه فى مؤلف يدعى أوغسطينوس Augustinus . وتبين منه أن جانسون وإن عارض البروتستانتية معارضة شديدة ، إلا أن كثيراً من آرائه شابهت آراء أتباع كالفين ؛ ما دعى إلى تحريم الفاتيكان لها عام ١٦٤٩ . ويعتبر جانسون « الخطيئة الأزلية » ليست مجرد تلذيداً بالخطيئة ، لكنها غواية الطبيعة . والشهوة لديه هى لوثة الخطيئة فى الجسم والنفس . وعنده أن خشية الله والخوف من العقاب الأبدى لا ينزعان الشر من القلب ؛ إذ يتعاظم الخوف فى النفس الضعيفة وليس منه شيء ينتسب إلى الله . وتخالف تعاليم جانسون الكنيسة الكاثوليكية — بخاصة — فى ناحية إزدرائه الفارق بين النظام الطبيعى والنظام القدسى ؛ لإيمانه بأن جميع العطايا القدسية ليست منحة من الله للإنسان — لكنها حق مقرر له على الله . (المترجم)

(٢) المعتزلية (أو المذهب العقلى) : لا يقر إلا ما يطابق العقل الحر . (المترجم)

(٣) يقرر العلامة فرويد (وهو يهودى) بأن اليهودية قد أخذت جوهر التوحيد عن اخناتون الفرعون المصرى الفيلسوف (من الأسرة الثامنة عشر — أنظر مؤلف فرويد) موسى والوحدانية Moses and Monotheism وكتاب المؤلفة الهندية سافيتيرى ديفى « ابن الشمس Savetiri Davi : Son of the Sum » . (المترجم)

(٤) إذ يؤمن اليهود بتجسد « ياهوى » (وهو أقدس أسماء الرب فى اليهودية) فى شخصية بشرية هى المسيح المنتظر . وتتولى هذه الشخصية تشييد دولة عالمية تضم العالم بأسره وعاصمتها أورشليم ، وتجعل من اليهود الجنس المسيطر باعتبارهم شعب الله المختار . وهذا هو —

إن مذهب التوحيد لم يجبّ عبادة « بعل » و « عشتروت » ؛ إلا ليجد أمامه منافسي « يا هوى » الغيور المنبوذين ، يعودون بدهاء إلى حظيرة المعتقد اليهودى الأصيل ، وقد تنكروا فى صورة تجسيم لكل من « كلمة الله » و « حكمة الرب » و « ملاك الرب » . ثم يستقرون بعد ذلك داخل حظيرة العقيدة المسيحية الأصيلة فى عقيدة « الثالوث الأقدس » ، وفى الطقوس الدينية المتصلة و « جسد الإله ودمه » و « أم الإله » و « القديسين » .

ولقد استثارت عودة طغيان الشِّرك توكيدا صادقا لوحدانية الله فى الإسلام ، وتوكيدا أقل كما لا فى البروتستانتية . بيد أن حركتى التطهير هاتين فى الإسلام وفى البروتستانتية — قد نكبتا بدورهما باشتهاء النفس البشرية لفكرة تعدد الآلهة ، التى تعكس التعدد الظاهر لقوى الطبيعة فى الكون[1] .

٢ — التفسيرات محتملة لسريان « قوانين الطبيعة » فى التاريخ

متى سلّمنا بأن حالات التكرار والانتظام التى ميّزناها فى سياق هذه الدراسة « حقيقة واقعة » ، بدا لنا أن ثمة تفسيرين محتملين لها .

إذ قد تكون القوانين التى تسوسها :

= ما دفع اليهود إلى معارضة عيسى عليه السلام لأنه نادى بملكوت الرب فى السماء « لا على الأرض » ، وأن الخلاص للبشر جميعاً ولا يستأثر به شعب أو طائفة دون الناس جميعاً « وأن الخلاص روحانى وليس مادياً . (المترجم)

(١) لا أتفق مع الأستاذ المؤلف فى قوله بانزلاق المسلمين إلى فكرة الشرك بالله . وأعتقد أنه مسير فى مقالته هذه بما سبق أن ذكره فى مواضع من كتابه بشأن نزوع طوائف من المسلمين إلى التعصب لبعض الشخصيات الإسلامية ورفعها إياها إلى مراتب قدسية ، متأثرة بلا ريب بعقائدها الأصلية قبل هدايتها إلى الإسلام ، أو لاعتبارات سياسية . ومن الناحية الأخرى يتأثر الأستاذ توينبى بما هو حادث فى معظم البلاد الإسلامية من تقديس العامة للأولياء ونسبة الأعمال الخارقة إليهم ، وهى لا تصدر إلا عن الله تبارك وتعالى . لكن هذه الخرافات فى طريقها إلى الزوال بفضل انتشار التعليم وشيوع الثقافة وارتقاء الوعى الاجتماعى . ولم يتأثر جوهر الإسلام اطلاقاً بنزعات العامة وشطحات الجهال ، إذ ما تزال تعاليمه تقوم على التمسك التام بمبدأ التوحيد ونبذ الشرك فى شتى صوره منذ ظهوره ولم تؤثر أحداث الزمن فى سمو مبادئه ، فى قليل أو كثير . (المترجم)

إما قوانين جارية فى البيئة غير البشرية للإنسان ، وتفرض نفسها من الخارج على سير التاريخ .

وإما قوانين فطرية كامنة فى التركيب النفسى للطبيعة البشرية نفسها وفى عملها .

فلنبدأ بفحص الفيض الأول :

فمن قبيل المثال ، يؤثر تعاقب الليل والنهار – بكل جلاء – فى الحياة اليومية للناس : ومع ذلك نستطيع استبعاد هذه الظاهرة من تقديرنا فى هذا البحث . إذ كلما عظم ترقى الإنسان من الحياة البدائية ، عظمت قدرته على « تحويل الليل إلى نهار » كيفما ووقتما شاء .

وثمة دورة فلكية أخرى هى دورة الفصول السنوية ، كان الإنسان – فى زمن مضى – عبداً لها . فقد أصبحت مدة الصوم الكبير موسما للصيام المسيحى . وتفسير ذلك ، أنه قبلما تطلع المسيحية على العالم بأحقاب عديدة لا حصر لها ، كانت نهاية أيام الشتاء ، فترة تنقص فيها موارد الإنسان بانتظام ، سواء أكان ذلك مفيداً له من الناحية الروحية أم غير مفيد . على أن أهل الغرب – ومن اعتنق الأساليب الغربية – قد حرروا أنفسهم – فى هذه الناحية أيضاً – من ربقة « قانون الطبيعة » . فبفضل مخازن التبريد ووسائل النقل السريع المنتشرة على سطح البسيطة التى وحدتها الأساليب التكنولوجية ، أصبح فى وسع أى إنسان بيده نقود – فى أى جزء من العالم – أن يشترى اللحم والخضر والفاكهة والزهور ، فى أى فصل من فصول السنة .

ولعل الدورة السنوية المألوفة ، لم تعد هى الدورة الفلكية الوحيدة التى يخضع لها عالم النبات على الكرة الأرضية ، والتى كانت تستعبد – بدورها – الإنسان بطريق غير مباشر ، طالما كان يعتمد على الزراعة فى معاشه . وقد كشف علماء الأرصاد الجوية المحدثون عن دلالات لدورات مناخية ذات ترديد زمنى أكثر طولا . وعند بحث هجرات البدو من « الصحراء » على « الأراضى المزروعة » ، استخلصنا دليلا غير مباشر ينم عن وجود دورة

مناخية » تتردد كل سمائة سنة . وتتكون كل دورة من هذه الدورات من نوبات متعاقبة من الجدب والرطوبة . وقد بدت هذه الدورة الافتراضية — وقت كتابة هذه السطور — أقل ثبوتا عن بعض الدورات الأخرى التى من نفس النوع ، تلك هى ؛ التى لا تتألف أطوالها التموّجية من أكثر من رقمين — بل وربما من رقم واحد فقط — وهى دورات بدا أنها تهيمن على تقلبات المحاصيل الزراعية التى تزرع وتحصد إصطناعيا فى ظــل الظروف الحديثة .

واقد قبل بأن ثمة صلة توافق ؛ بين دورات المناخ والمحصول هذه ، وبين الدورات الصناعية الاقتصادية التى قال بها بعض الاقتصاديين . ولكن استقر الرأى السائد فى الأيام الأخيرة بين الخبراء على خلاف ذلك النظر فأبدى ستانلى جيفونز Stanley Jevons — وهو رائد من رواد ميدان هذا البحث فى العصر الفيكتورى — رأيا برّاقا مؤداه أن الدورات الصناعية قد تكون نابعة عن فعل ذبذبات فى النشاط الإشعاعى للشمس — على نحو ما يبدو فى ظهور البقع الشمسية واختفائها . إلا أن هذا الرأى ، قد انطفأ بريقه ؛ ولم يعد أحد يأخذ به . وقد وافق جيفونز نفسه خلال السنوات التالية ؛ على أن « دورات الكساد الصناعى تتصل بالفعل فى طبيعتها إذ تتوقف على ما يعتور الناس من تقلبات فى نزعات القنوط والأمل والإخفاق والفزع »(١) .

وفى عام ١٩٢٩ ، أبدى ا . س . بيجو A. C. Pigou — وهو اقتصادى من جامعة كمبردج — الرأى القائل بأنه مهما بلغت أهمية عامل تقلبات المحصول فى تعيين ذبذبات النشاط الصناعى ؛ فإنها كانت وقت كتابة مؤلفه » أقل بشكل حاسم مما كانت عليه قبل ذلك الوقت بخمسين أو مائة سنة . وانضم ج . هاربلر J. Harbeler لنفس الرأى وقتما كتب

---

(١) صفحة ١٨٤ Jevons, W. Stanley : Investigations in Currency and Fiance 2n ed (London, 1909 Macmillan

مؤلفه بعد انقضاء اثنى عشرة سنة على كتابة بيجو Pigou . ونورد هذا الرأى هنا ، كأنموذج للرأى الاقتصـــادى الراجح وقت كتابة هذه السطور :

« إن تضاؤل الرخاء — مثل تعاظمه — لا بد وأن يُعزى إلى عمليات تجرى داخل دنيا المال والأعمال ذاتها ، ولا علاقة لها بتأثير عوامل الاضطراب التى تفد من الخارج .

« إن الشيء الغامض بصدد هذه التقلبات ، أنه لا يتأتى تعليلها بمثل الأسباب الخارجية التى تفسرها المحاصيل السيئة الراجعة إلى أحوال الطقس والأمراض والاضطرابات الشاملة وتوقف العمال عن العمل والزلازل والوقف الفجائى لمجريات التجارة الدولية . . . وما إلى ذلك . إذ يندر أن يؤثر الهبوط الحاد فى حجم الإنتاج وفى الدخل الحقيقى أو فى مستوى العمالة — كنتيجة لسوء المحاصيل والحروب والزلازل وما إلى ذلك من العوامل الطبيعية التى تخل بعمليات الإنتاج — يندر أن يؤثر فى النظام الاقتصادى فى جملته . ولا يترتب عليه بالتأكيد ، الكساد الاقتصادى بمعناه الفنى فى نظرية الدورة الاقتصادية . فإننا نعنى بالكساد — فنياً — ذلك الهبوط الظاهر الطويل الأمد » فى كل من حجم الإنتاج والدخل الحقيقى والعمالة ؛ والذى لا يتأتى تفسيره إلا بفعل عوامل نابعة من داخل النظام الاقتصادى نفسه ، وللوهلة الأولى بفعل عدم كفاية الطلب النقدى ، وبعدم وجود فرق كاف بين الثمن والتكلفة .

« ولأسباب متعددة ؛ يبدو من المرغوب فيه — عند تفسير الدروة الاقتصادية — تعليق أقل ما يمكن من الأهمية على تأثير عوامل الاضطراب الخارجية . . إن استجابات النظام الاقتصادى تبدو من النظرة الأولى أكثر أهمية فى تشكيل الدورة الاقتصادية ، من الصدمات الخارجية . وثانياً يبدو أن التجربة التاريخية توضح أن للحركة الدورية ميلا قوياً للاستمرار ،

حتى حيث لا توجد مؤثرات خارجية بارزة تعمل فيها ؛ وقد يكون السبب فى استمرارها . ويوحى هذا بوجود عدم استقرار طبيعى يلازم نظامنا الاقتصادى « أى ميل للتحرك فى اتجاه معين أو فى آخر »[1] .

وثمة دورة طبيعية أخرى تختلف اختلافاً بيناً ، ولا يمكن إغفالها . ألا وهى دورة الحياة البشرية ، من الميلاد ونمو وإنجاب وشيخوخة وموت ؛ ولقد برز مغزى هذه الدورة فى ناحية تاريخية معينة لكاتب هذه الدراسة ، من حديث جرى خلال مأدبة غداء عام ، أقيمت فى سنة ١٩٣٢ بمدينة طروادة من أعمال ولاية نيويورك :

فلقد ألفى الكاتب نفسه جالساً إلى جانب المدير المحلى للتعليم العام ؛ فكان أن سأله عن أشد جوانب مهنته المتعددة تشويقا وإثارة ، فأجاب على الفور « تنظيم دروس اللغة الإنجليزية لأجداد الطلبة . فسأله الزائر البريطانى دون تفكير :

« كيف يتأتى فى بلد يتحدث الإنجليزية أن تتقدم بأحد الناس السن حتى يصبح جداً دون أن تتسنى له إجادة الإنجليزية ؟ ! » .

فأجاب المدير « حسنا » إنك ترى أن طروادة هى المركز الرئيسى لصناعة الياقات الكتانية فى الولايات المتحدة . وقبل صدور قوانين تقييد الهجرة عامى ١٩٢١ و ١٩٢٤ ؛ كانت جمهرة القوة العاملة هنا تأتى من بين المهاجرين الأجانب وأفراد أسرهم . إلا أن المهاجرين الوافدين من كل بلد من البلاد الرئيسية المصدرة للمهاجرين « اعتادوا الاستمساك بماضيهم الخاص إلى أقرب مدى فى استطاعتهم ، وذلك بأن يجتمعوا بأبناء بلدتهم . فكان المهاجرون من الأصل القومى الواحد لا يقنعون بالعمل جنبا إلى جنب فى ذات المصانع ؛ بل لقد كانوا يحرصون على السكنى متجاورين فى الحى الواحد .

---

(١) صفحة ١٠ Haberler G. ; Prasperity and Depression (Geneva 1941 Leagne of nations).

حتى إذا حان وقت اعتزالهم العمل ؛ ما كان معظمهم ليدرك من الإنجليزية أكثر مما كان يعرفه وقتما وصل إلى الشواطىء الأمريكية للمرة الأولى . ولم ترغمهم الظروف على معرفة مزيد من اللغة الإنجليزية فى هذا الطور الأمريكى من حياتهم ، نظرا لاستعانتهم بمترجمين ممن نشأوا فى أوطانهم . أما أطفالهم فقد وصلوا إلى أمريكا صغارا فى سن مكنتهم من الالتحاق بالمدارس العامة قبل انخراطهم بدورهم فى المصنع ؛ فترتب على جمعهم بين تعليم أمريكى وطفولة إيطالية — مثلا — أن أصبحوا يجيدون اللغتين إجادة تامة . فهم يتحدثون الإنجليزية فى المصنع والشارع والحانوت ويتكلمون الإيطالية فى دور والديهم ؛ من غير أن يدركوا — غالبا — أنهم ينتقلون دوما من لغة إلى أخرى . فكانت ثنائيتهم اللغوية المطواعة البريئة من الإحن ، ملائمة إلى أقصى حد لوالديهم الشيوخ . وحقا ؛ شجعت هذه الثنائية ميل والديهم — بعد تقاعدهم عن العمل — إلى نسيان حتى تلك الكلمات الإنجليزية التى كانوا قد التقطوها فى الماضى خلال فترة عملهم بالمصنع . إلا أن هذه القصة لم تتم فصولها، فبمرور الوقت ؛ تزوج أبناء المهاجرين ، وأنجبوا هم بدورهم أطفالا ؛ فكان أن أصبحت الإنجليزية لهؤلاء الأفراد من الجيل الثالث من المهاجرين ، لغة البيت كما هى لغة المدرسة . ولما كان الوالدان قد تزوجا بعد تلقى تعليمهما فى الولايات المتحدة ، فقد يكون أحدهما منحدراً من أصل غير إيطالى — كما هو الغالب — فتصبح الإنجليزية « اللغة المشتركة » التى يتحدث بها الأب والأم ، فيما بينهما . وهكذا نرى الأطفال المولودين أمريكيين من والدين يتحدثان لغتين يجهلون لغة الجدين الأصلية وهى اللغة الإيطالية ؛ وفوق هذا فإنهم لا يجدون لاستعمالها مجالا ، إذ ما هو الداعى إلى تكليف أنفسهم عناء تعلم لغة أجنبية ، تفصح عن أصلهم غير الأمريكى ؛ وهم حريصون على أن ينفلتوا من هذا الأصل ويسدلوا عليه ستار النسيان ؟

وهكذا وجد الجدّان أن ليس فى وسعهما إغراء أحفادهما بالتحدُّث معهما باللغة الوحيدة التى فى مكنتهما التحدُّث بها فى يسر وسهولة ؛ وبذلك يجابهان بغتة — فى غضون شيخوختهما — ذلك المصير المفجع وهو عجزهما عن إقامة أى نوع من الاتصال الإنسانى مع ذراريهم أنفسهم : وهذا مصير لا يمكن أن يحتمله الإيطاليون وغيرهم من الأوربيين سكان القارة — غير الناطقين بالإنجليزية — الذين تقوى لديهم نزعة التكافل العائلى . فأصبح لديهم للمرة الأولى فى حياتهم ، حافز يدفعهم للتمكّن من لغة البلد الذى استوطنوه « تلك اللغة التى لم يكن وقتذاك ثمة ما يغريهم على تعلمها . فكان أن تقدّموا إلى فى العام الماضى طالبين مدّ يد المساعدة إليهم . وكنت تواقاً بالطبع إلىّ تنظيم فصول خاصة لهم : ورغماً عما هو معروف من صعوبة مشكلة تعلم لغة أجنبية كلما تقدم العمر بالإنسان « فنى استطاعتى التأكيد بأن فصول اللغة الإنجليزية التى افتتحت لتعليم الأجداد ، تعتبر من أكثر الأعمال نجاحاً من بين الأعمال التى اضطلعت بها إدارتنا » .

تبدى قصة « طروادة » الأمريكية هذه « كيف تستطيع سلسلة تتألف من ثلاثة أجيال أن تحقق عن طريق التأثير التجميعى لحلقتين متتابعتين ، تحوّلا اجتماعيا لا يستطيع تحقيقه أبناء جيل بمفرده فى غضون حياته وحدها . وليس فى المستطاع تحليل العملية التى بمقتضاها حوّلت أسرة إيطالية نفسها إلى أسرة أمريكية « أو وصفها تحليلا أو وصفا واضحا على أساس حياة فرد واحد . فلقد اقتضى الأمر تفاعلا بين ثلاثة أجيال للوصول إلى هذه النتيجة .

وعندما ننتقل من التحول فى مجال الجنسية — إلى التحول فى مجال الدين والطبقة — نجد بالمثل « أن الأسرة — لا الفرد — هى وحدها الوحدة التى يمكن اكتناه فاعليتها »

فنى إنجلترا الحديثة على أيام الوعى الطبقى فى إنجلترا هذه التى كانت فى سنة ١٩٥٢ تتحلل سريعا تحت بصر كاتب هذه الدراسة ؛ كان تحوّل أسرة تنحدر من أسلاف من الطبقة العاملة أو من الطبقة الوسطى السفلى إلى « كرام » القوم يستغرق فى العادة ثلاثة أجيال .

وفى مجال الدين؛ يبدو أن معدل طول الموجة ، كان كذلك ثلاثة أجيال . فنى تاريخ استئصال الوثنية فى العالم الرومانى ؛ جاء الإمبراطور ثيوديسيوس الأول Theodosius — المسيحى المولد والشديد التدين إلى حد التعصّب — بعد قسطنطين الأول الذى نشأ وثنيا ثم تنصّر . لكنه لم يأت بعده مباشرة فى الجيل التالى ، ولكن فى الجيل الذى تلا ذلك . وفى تاريخ القضاء على البروتستانتية من فرنسا خلال القرن السابع عشر ، كان ثمة نفس الفاصلة بين لويس الرابع عشر الكاثوليكى المولد والشديد التدين إلى حد التعصّب ، وبين جدّه هنرى الرابع الذى كان قبلا من أتباع مذهب كالفين . وقد تطلبت عملية التحوّل فى فرنسا فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ؛ نفس العدد من الأجيال ، لإنتاج كاثوليكيين أصلاء متدينين ، أحفاد أفراد الطبقة البورجوازية المتوسطة المتنصرين رسميا فقط والذين كانوا فيما مضى يدينون باللاأدرية أو الإلحاد . ثم عادوا إلى الكاثوليكية ؛ لأن الكنيسة قد أصبحت تعنى بالنسبة لهم قيمة جديدة كنظام تقليدى يمكن استخدامه كسد منيع ضد موجة الاشتراكية العارمة ، وغيرها من الأيديولوجيات التى كانت تهدد بمحو التفاوت الاقتصادى بين البورجوازية والطبقة العاملة .

كذلك اقتضى الأمر فى العالم السورى — فى عهد الخلفاء الأمويين — ثلاثة أجيال حتى يتكون مسلمون مخلصون متدينون أصلاء ؛ من بين ذرارى الأجداد من ذوى الأصل ، وحتى يتكون المسيحى أو المجوسى الذين اعتنقوا الإسلام تقربا إلى الطبقة العربية الإسلامية الأصلية الحاكمة . وكانت مدة حكم الدولة الأموية — التى نافحت عن سيادة العرب — هى نفسها تلك الأجيال الثلاثة

التي اقتضاها ظهور أولئك الأحفاد المسلمي المولد للمؤمنين الأول ، على مسرح التاريخ . ثم دالت دولة الأمويين أنصار السيادة العربية ، وتلاهم فى الحكم العباسيون الذين نادوا بالمساواة بين المسلمين : وكان ذلك عندما حاول الأحفاد المسلمون المؤمنون لأولئك الذين اعتنقوا الإسلام — عندما حاولوا باسم العقيدة الإسلامية — الاتفاق مع الأحفاد المسلمين — الخراسانيين — لأولئك المسلمين العرب الأولين الذين فتحوا خراسان :

وإذا كان قد ثبت أن تعاقب أجيال ثلاثة هو — كما سلف — الوسيلة النفسانية العادية للتغيّر الاجتماعى فى ميادين ثلاثة هى : الدين والطبقة والقومية ؛ فليس من المستغرب أن نرى تعاقب أربعة أجيال « يؤدى دورا مشابها فى ميدان السياسة الدولية :

فلقد وجدنا بالفعل — فى مجال التلاقى بين الحضارات — أن الفترة الزمنية بين قيام طبقة مثقفة ثم تمرّدها على صانعيها ؛ يبلغ طولها حوالى ١٣٧ سنة فى المتوسط . وقد تحققنا من ذلك « فى مجموعه من ثلاثة أو أربعة أمثلة . وليس من العسير أن نرى كيف أن تعاقب أربعة أجيال « قد يحدد كذلك طول موجة دورة الحرب والسلم : وذلك إن سلّمنا بأن أوجاع حرب عامة تُحدث أثراً عميقاً فى النفس البشرية ، أشد مما تحدثه بها دورة معتدلة — نسبيا — من الحروب الجانبية :

على أنه إذا ما طبّقنا هذه النظرة على دورات الحرب والسلم فى أوربا الغربية الحديثة ، لاصطدمنا بعقبة كأداء . إذ نجد أن إحدى تلك الحروب الجانبية — وهى حرب الثلاثين عاماً — رغم أنها اقتصرت من الناحية الجغرافية على أوربا الوسطى « لربما كانت فى نطاق مجالها الجغرافى الضيّق أشد — وليست أقل — تدميرا من الحروب « العامة » التى سبقتها « والتى أعقبتها :

وليست دورة الحرب والسلم هذه بآخر الدورات والمعاودات المنتظمة « الحقيقية فى الظاهر (وإن لم تكن صحيحة) التى يتعيّن علينا إيجاد تفسير لها » كما أنها ليست أطولها : فإن كلا من هذه الدورات التى تستغرق مائة سنة أو ما فى حكمها ، ما هى إلا حلقة فى سلسلة تؤلف فى مجموعها ما سبق أن أطلقنا عليه « عصر اضطراب » يتلو إنهيار حضارة ما ، ويستمر بدوره كما حدث فى التاريخين الهلينى والصينى — مثلا — حتى يكوّن دولة عالمية ، تقدّم هى الأخرى نفس الإيقاعات التى سبق أن لاحظناها .

إن العملية بأسرها من بدايتها إلى نهايتها تستغرق — بصفة عامة — فترة تتراوح بين ثمانمئة سنة وألف سنة .

فهل يُجدينا هنا التفسير النفسانى للدورات المنتظمة فى الشئون البشرية ، وهو التفسير الذى أفادنا حتى اليوم بما فيه الكفاية ؟

ستكون إجابتنا بالنفى ؛ لو كان المظهر العقلى والإرادة البشرية هما — فى نظرنا — قوام النفس البشرية بأسرها .

وفى العالم الغربى — فى الجيل الذى عاش فيه كاتب هذه الدراسة — كان علم النفس ما يزال فى طفولته ، لكن رواد هذا العلم ، كانوا قد بدأوا إرتياد آفاقه ؛ بحيث مكنوا ك . ج . يُنج Jung[1] من القول بأن لُجّة اللاشعور التى يطفو على سطحها العقل الواعى والإرادة الواعية لكل شخص ؛ ليست خليطا غير مميّز المعالم ، بل إنها عالم مترابط ، يمكن أن نميز فيه طبقة من النشاط النفسانى تحت أخرى . وبدا أن أقرب طبقة إلى السطح « هى « لاشعور شخصى » أودعته تجارب الشخصية الفردية فى مجرى

---

(١) كارل جوستاف يونج (ولد عام ١٨٧٦) : عالم نفسانى سويسرى وأخصائى فى العلاج النفسى Psychotherapy . وقد تعاون مع فرويد العلامة النفسانى الذائع الصيت فى تطوير نظام تحليل العمليات الذهنية المعروفة باسم « التحليل النفسى » . لكن انفصم تعاون العالمين بسبب اختلافهما فى الرأى . فعاد يونج إلى زيورخ لينشئ مدرسة الطب النفسانى . (المترجم)

حياة الفرد : رجلا كان أم امرأة ، حتى اليوم الذى يعيش فيه . كما اتضح أن أعمق طبقة بلغها رواد النفس ؛ هى لاشعور عنصرى لايخص فردا بذاته ، لكنه مشاع بين جميع الكائنات البشرية . على نحو ما تعكس الصور الأولى الكامنة فى اللاشعور ؛ تجارب البشر مجتمعين ، ترسبت فى أعماق النفس البشرية ، إبان طفولة الجنس البشرى ؛ بل ربما خلال مرحلة سبقت اكتمال الإنسان بشرا سويا .

وعلى هذا الأساس ؛ لربما لا يجافى العقل ، تصور أنه ما بين طبقتى العقل الباطن (اللاشعور) العُليا والدُنيا اللتين وُفق علماء الغرب — حتى الآن — إلى اكتشافهما ودراستهما ، قد توجد بينهما طبقات وسطى لم ترسبْها التجربة العضوية ولا التجربة الشخصية . لكن رَسَّبتها تجربة جماعة تعلو فوق مستوى الشخص ، لكنها لا تصل إلى مستوى العنصر ، فلقد تكون هناك طبقات من التجربة ؛ مشتركة : لأسرة ما ، أو جماعة ما ، أو مجتمع ما . وإذا ثبت أنه يوجد فى المستوى التالى فوق « الصور الذهنية الأولى » التى تمتّ إلى الجنس البشرى بأسره ؛ صور ذهنية تعبّر عن كيْف[1] معين لمجتمع معين ؛ فلربما كان انطباع هذه الصور فى النفس ، هو السبب فى طول المدد التى قد اقتضتها طائفة من عمليات التحوّل الاجتماعى حتى يتم مفعولها .

ومن قبيل المثال ؛ إن إحدى هذه الصور الاجتماعية التى وضح انطباعها — بعمق — فى الحياة النفسية الباطنة لأطفال حضارة فى طور النمو : إن هذه الصورة كانت هذا الوثن الذى يُدعى الدولة الإقليمية ذات السيادة . ويمكن — توا — أن يُتصوَّر أنه حتى بعد إن بدأ هذا الوثن يفرض على عبّاده تقديم قرابين بشرية بلغت فى بشاعتها ما كان

---

(١) الكيْف Ethos ، فى الأخلاق أو الأدب أو الاجتماع . (المترجم)

يؤديه القرطاجنيون إلى إلههم بعل عمون[1] أو ما كان يقدمه البنغاليون إلى يواجرنوت Juagernant[2] . فإن ضحايا هذا الشيطان الذى استحضروه هم أنفسهم ؛ إنما كانوا فى حاجة إلى هذه التجربة المرّة — لا تجربة فترة حياة فرد واحد — بل ولا تجربة دورات متعاقبة من ثلاثة أجيال ، ولكن تجربة دامت فترة لا تقل عن الأربعمائة سنة ، حتى استطاع هؤلاء الضحايا ، إقتلاع عبادة هذا الوثن الخبيث من قلوبهم واطراحه بعيداً عنها .

بل إنه من الممكن أن نتصور أنهم قد احتاجوا لا إلى أربعمائة سنة فقط ، بل إلى ثمانمئة أو ألف سنة حتى يخلصوا أنفسهم تماماً من كل

---

(١) بعل : المعبود المذكر الرئيسى للأمتين الفينيقية والكنعانية . وقد بدأت عبادة « بعل » كإله للشمس ، لكن عابدوه جعلوا منه الإله الأعظم مدبر الكون ومسير المخلوقات . وانحصرت طقوسه فى بداية الأمر فى عبادته على الجبال وخاصة جبل سيناء حيث كان يجتمع أهل مدين . وكان بعل هو جانب الخير فى عبادة القوم بينما كان الصنم « مولوخ » جانب الشر . وعلى توالى الأيام اتحد رب الخير « بعل » مع رب الشر « مولوخ » . فى إله واحد دعاه القوم « ملكارت » الذى غدا معبود الفينيقيين الرئيسى . ويدخل اسم بعل فى كثير من الأسماء الفينيقية خاصة والسامية عامة : يزبعل (إيزابيل) وهنى بعل (هنيبال) . . الخ (المترجم)

(٢) يواجرنوت أو بورى Puri : مدينة على شاطئ أوريسا فى البنغال بالهند . وهى من أهم أماكن الهند المقدسة . وتشتهر بوجود سن ذهبى للبوذا . كما أن بها معبداً يضم صنماً للرب الهندوكى فيشنو (ويشغل المكان الثانى فى التثليث الهندى : براهما — فيشنو — شيفا) ويقوم فيشنو بدور الإله الحافظ . ويطلق على هذا الصنم اسم يواجانات Jugannath (أى سيد العالم) . وتقام سنوياً طائفة من الاحتفالات تكريماً له وتستمر عدة أيام . ويحج إليه الكثيرون ؛ ويموت عدد كبير من الحجاج فى طريقهم إلى مكان الاحتفالات وفى أثنائها ، الأمر الذى دفع الكهنة إلى ترويج فكرة أن الميت خلال الاحتفالات ينعم بالأجر الأخروى والثواب الإلهى . فكان أن راجت الفكرة وأصبح المتحمسون من عُبّاد الصنم يضحون بأنفسهم إلتماساً للمثوبة والأجر . على أن هذه العادة فى طريقها إلى الزوال بفضل تدخل الحكومة الهندية وتعاظم الوعى الاجتماعى (المترجم)

جهاز الحضارة ، التى أبرز عصرُ الاضطرابات إنهيارها وتحللها ؛ ولتتفتّح قلوبهم لتلقى طابع مجتمع آخر من نفس النوع الحضارى ، أو من نوع حضارى يخالفها ، مما تمثله الديانات الأعلى مرتبة . ذلك لأنه يحتمل أن الصورة الذهنية لحضارة ما قد تكون أشد جاذبية للعقل الباطن ، من الصورة الذهنية لأية دولة من الدول الإقليمية التى قد تترابط فيها الحضارات على الصعيد السياسى ؛ ما لم – وإلى أن – تنخرط تلك الدول فى نهاية المطاف فى دولة عالمية .

وفى وسعنا بالمثل ، إدراك كيف أن الدولة العالمية – وقد تألفت من عدة دول إقليمية – قد تنجح بدورها فى بعض الأحيان – بعد توطيد دعائمها – فى استبقاء سلطانها على رعاياها السابقين . بل قد تُوفّق فى المحافظة على إعتبارها فى قلوب أولئك الذين تولّوا تقويض دعائمها ؛ وذلك لعدة أجيال – بل لعدة قرون – بعد أن فقدت أسباب نفعها وقوتها ، وغدت كابوساً ثقيل الاحتمال ، مثلما كانت الدول الإقليمية التى سبقتها ، والتى أقيمت الدولة العالمية لتصفيتها .

« إن العلاقة بين الهموم الخارجية التى يحسّ بها ممثلو جيل بلغ أشدّه ، وهى مخاوف تتكيف – مباشرة – بالوضع الاجتماعى للناس الذين يحسون بها . إن العلاقة بين هذه الهموم الخارجية وبين الداخلية – التى تعمل عملها بطريقة آلية الناس من أبناء الجيل الصاعد – هذه العلاقة ، هى بلا جدال ، ظاهرة ذات أهمية على نطاق واسع . . . . إن الطابع الذى يضعه ركْب الأجيال المتعاقبة على كل من نمو الفرد نفسانياً ، ومجرى التحوّل التاريخى ، هو شىء لن نبدأ فى تفهّمه بأكثر دقة مما هو حاصل فى الوقت الحاضر ، إلا عندما نصبح أقدر – مما نحن عليه حالياً – على

تسجيل ملاحظاتنا وإعمال تفكيرنا التاريخى على أساس حقب طويلة من الأجيال »[1] .

وإذا كانت القوانين الاجتماعية التى تؤثر فى تواريخ الحضارات هى حقاً ، إنعكاسات للقوانين النفسانية التى تنظم طبقة من العقل الباطن واقعة أسفل الطبقة الشخصية ؛ فلابد وأن هذه الظاهرة تفسر لنا أيضاً لماذا يجب أن تكون هذه القوانين الاجتماعية — كما هى فعلا — أكثر وضوحاً بكثير ، وأعظم دقة فى إنتظامها فى طور الإنحلال « من تاريخ الحضارة المنهارة ؛ منها فى طور نموها السالف .

ورغما عن إمكان تحليل طور النمو — وكذلك طور الإنحلال — إلى سلسلة من نوبات التحدى والاستجابة ؛ فلقد ألفينا أنه من المحال تعيين أى معدل لطول الموجة يكون مشتركا بين النوبات المتعاقبة التى يحدث النمو الاجتماعى فى خلالها . ولم يحالفنا التوفيق ؛ فى قياس الفترات الفاصلة بين عروض التحديات المتعاقبة ، أو الفاصلة بين صدور الاستجابات الفعلية المتعاقبة ؛ كما تبين لنا أن هذه التحديات المتعاقبة — وهذه الاستجابات المتعاقبة — متباينة فى طور النمو إلى غير حد . وعلى النقيض ؛ تتسم المراحل المتتالية لطور الانحلال ؛ بمظاهر متكررة لتحد مطابق يواصل معاوداته بسبب عجز المجتمع المنحل عن مواجهته . كذلك تبين لنا أثناء بحث جميع حالات الانحلال الاجتماعى الماضية التى استعرضناها : إن نفس المراحل المتعاقبة تتوالى بنفس النظام بصورة لا تتغير « وأن كل مرحلة تدوم — على وجه التقريب — نفس الفترة الزمنية بحيث يقدم طور الانحلال — فى مجموعه — صورة عملية مطردة الحدوث تستغرق نفس المدة فى كل حالة .

---

(١) صفحة ٤٥١ Elias, N.Uber den Progess der Zivilisation, voll II

[illegible]ungen der Gesellschaft : Entwurf Zu einli Theorie der Zivilisation (Basel 1939, Haus Zum Falken).

وفى الواقع : بمجرد حدوث إنهيار إجتماعى ، فإن النزعة صوب التنوع والتباين – وهى سمة طور النمو – تختفى وتحل مكانها نزعة نحو التماثل . وتسفر النزعة الأخيرة عن قوتها ، بإنتصارها – إن عاجلا أم آجلا – على التدخل الوافد من الخارج ، وعلى المقاومة المنبعثة من الداخل .

ومن قبيل المثال ، لاحظنا كيف أنه عندما إختزلت – قبل الأوان – الحضارة الهلينية الدخلية حياة الدولة العالمية السورية ثم حياة الدولة العالمية السندية – قبلما تستكمل كل منهما الدورة العادية لحياة الدولة العالمية – لم يستطع المجتمع المتردى المغمور أن يزول – أو أنه لم يُرد ذلك – إلا بعد ما استكمل فى الوقت المناسب وبالرغم من أثر عامل إضطراب متمثل فى نظام اجتماعى غريب ، السبيل الرتيب الذى يسلكه المجتمع المنهار فى غمار الانحلال . وقد تم ذلك عن طريق عودة ذلك المجتمع إلى الدخول فى الطور الذى انقطع ، وإنتظامه فى نطاق دولة عالمية عاودت الظهور ، إلى أن تمت قصة عمره العادى .

هذا التباين الملحوظ بين إنتظام ظواهر الانحلال الإجتماعى وإطرادها ، وبين عدم إنتظام ظواهر النمو الاجتماعى وتباينها : قد سُجِّل مراراً فى هذه الدراسة كحقيقة تاريخية ثابتة ، دون أن تُبذل لغاية الآن أية محاولة لتعليل دوافعها . وفى هذا القسم من الدراسة الذى يُعنى ببحث العلاقة بين القانون والحرية فى شئون البشر ، يقع على عاتقنا واجب دراسة هذه المشكلة . ولعلنا نستطيع الاهتداء إلى مفتاح لحل المشكلة ، فى الاختلاف بين الطبائع الخاصة بالشخصية الواعية على سطح النفس ، وبين طبقات العقل الباطن للحياة النفسية التى تختفى وراءها :

وتتمثل القدرة المميزة التى تنعم بها نعمة الوعى ، فى ممارسة « حرية الاختيار » . فإذا ما أُخذ فى الاعتبار أن الحرية النسبية هى إحدى خواص طور النمو ، فلابد أن نتوقع أنه ، ما دامت للكائنات البشرية – فى مثل

هذه الظروف - حرية تحديد مستقبلها ؛ فلابد أن يكون طريق العناد - كما يبدو فى الظاهر - هو الطريق الذى تسلكه : والعناد هو طريق التمرّد على حكم « قوانين الطبيعة » . وحكم الذى يلجم « قوانين الطبيعة » ، هو - مع ذلك - غير دائم ، لأنه يتوقف على توفر شرطين صارمين :

الشرط الأول - ضرورة توصل الشخصية الواعية إلى إخضاع العالم الخفى الكامن فى العقل الباطن ، لسلطان الإرادة والعقل .

الشرط الثانى - ضرورة محاولة تلك الشخصية الواعية ، أن تعيش - جنبا إلى جنب - فى وحدة مع الشخصيات الواعية الأخرى ؛ التى يتعين عليها أن تبقى معها - وفقا لوضع أو لآخر - فى الحياة الفانية للإنسان العاقل . والإنسان العاقل ؛ كان حيوانا اجتماعيا قبل أن يغدو كائنا بشريا ، كما كان جهازاً جنسياً ، قبل أن يصبح حيواناً اجتماعيا .

ولا يتأتى فصل هذين الشرطين اللازمين لممارسة الحرية « أحدهما عن الآخر . ذلك لأنه إذا صحّ القول بأنه « عندما يسقط الأوغاد » يظهر الشرفاء » ، فلا يقل عن ذلك صدقا أنه عندما يتشاجر الأشخاص ، يفلت زمام حالات النفس اللاشعورية من سيطرتهم كأفراد وجماعات .

وصفوة القول ؛ فإن نعمة الإدراك الواعى - ومناط رسالته تحرير الروح الإنسانية من ربقة « قوانين الطبيعة » التى تهيمن على لُجّة النفس اللاشعورية - كفيلة بإلحاق الهزيمة بذاتها ، بإساءتها إستخدام الحرية التى هى سبب وجودها ؛ كسلاح فى الصراع الناشب بين أخوين : ويكون بناء النفس البشرية وحركتها ، هما السبب فى هذا الانحراف المفجع : وذلك دون حاجة إلى اللجوء لاقتباس الفرض الملحد الذى ذهب إليه « بوسيه Bossuet » « عن مداخلات خاصة يقوم بها إله قادر على كل شيء - لكنه حقود - للتحقق من أن إرادات البشر سوف تنتهى إلى العجز ، إذ يمحو بعضها بعضاً :

(٣) هل قوانين الطبيعة الجارية فى التاريخ : حاسمة ، أو يمكن السيطرة عليها ؟

إذا كان استعراضنا الآنف الذكر قد أقنعنا بأن شئون البشر خاضعة لقوانين الطبيعة ، وأنه يمكن تفسير سريان هذه القوانين فى هذا المجال — إلى حد ما على الأقل — فعسانا نستطيع الآن أن نمضى قُدُماً لنستقصى ما إذا كانت قوانين الطبيعة الجارية فى التاريخ البشرى حاسمة لاتلين ، أو يمكن السيطرة عليها . فإن التزمنا هنا الطريقة التى اتبعناها حتى الآن ، بتقديم بحث القوانين غير البشرية فى طبيعتها ، قبل أن ندفع بقوانين الطبيعة ذات الطابع البشرى إلى مجال البحث : سنجد أنه فيما يتصل بالقوانين ذات الطبيعة غير البشرية ، قد أجبنا عن السؤال فعلا فى الفصل السابق .

ومناط الإجابة ، هو بالاختصار ، أنه وإن كان الإنسان عاجزاً عن تعديل أحكام أى قانون ذى طبيعة غير بشرية أو وقف سريانه ، إلا أن فى وسعه التأثير فى مجال هذه القوانين ، عن طريق توجيه سيره على خطوط تجعل هذه القوانين تعمل فى سبيل خدمة أغراضه الخاصة . ذلك هو ما عناه « الشاعر » الذى سبق الاستشهاد بشعره — إذ قال :

عند ما يكشف العلماء عن شىء أعظم .

سنكون أسعد حالا من ذى قبل .

وإن توفيق أهل الغرب فى تعديل مجال تطبق القوانين ذات الطبيعة غير البشرية على شئونه ، قد ظهر أثره على شكل تخفيضات تجريها شركات التأمين على معدلات أقساط التأمين . إذ ترتب على التحسينات التى أُدخلت على الخرائط البيانية — وما تلاها من تزويد السفن بأجهزة اللاسلكى والرادار — التقليل من خطر غرق السفن ؛ وانبنى على استخدام بوتقات الدخان فى

كاليفورنيا الجنوبية والستائر الشفافة فى وادى كونيكتيكوت Connecticut » التقليل من خطر التلف الذى يُحدثه الصقيع بالمحاصيل . وأدى ابتكار اللقاح والرش والغمر فى سوائل المبيدات الحشرية ، إلى خفض خطر إصابة المحاصيل والأشجار وقطعان الماشية بالضرر بفعل الحشرات . والمثل يقال عن « الكائنات البشرية » : فإن استخدام وسائل الوقاية المختلفة ، قد أنقصت مجال المرض وأطالت فرص الحياة .

وإذ ننتقل إلى حيِّز القوانين ذات الطابع البشرى ؛ تطالعنا نفس القصة تُروى – نوعاً ما – بنبرات صوتية أشد تلجلجا . فإن خطر الحوادث على إختلاف أنواعها ، قد اختزلها ما طرأ على التعليم والتهذيب من تقدم وتحسن . فلقد وُجد أن خطر حوادث السطو يتغير بالزيادة أو النقصان ، بتغير ظروف البيئة الاجتماعية التى نشأ فيها قطاع الطرق . فأصبح هذا الخطر يتأثر إذن بتدابير الإصلاح الإجتماعى .

فإذا ما أقبلنا على بحث تلك المظاهر المتعاقبة لمد وجزر النشاط الاقتصادى الغربى التى أُطلق عليها اسم « الدورات الاقتصادية » ؛ وجدنا أن دارسيها الفنيين يرسمون خطاً فاصلا بين العوامل التى يمكن السيطرة عليها ، وتلك التى لا يتأتى التحكم فيها . بل ذهبت إحدى المدارس إلى حد القول بأن هذه الدورات راجعة إلى فعل رجال المال عن عمد وإصرار . لكن الأغلبية ترى أن دور الماليين أقل بكثير من دور الخيال والشعور اللذين لا تمكن السيطرة عليهما ، واللذين يصعدان من طبقات العقل الباطن الدنيا للنفس البشرية . وهكذا يبدو أن المثل الذى يدل على الاتجاه الذى كانت تتجه إليه أذهان بعض الثقات العليا فى هذا المجال ، لم يكن هو المثل القائل « فتش عن البنك » بل كان المثل الأكثر شيوعاً القائل « فتش عن المرأة » .

« إن أحد الأسباب التى تفسر لماذا يعتبر إنفاق المال فناً متخلفاً بالنسبة لكسب المال ؛ هو أن الأسرة لا تزال هى وحدة التنظيم الغالبة لإنفاق المال ؛

أما فى مجال كسب المال « قد حلت محل الأسرة » وحدة أعظم تنظيما . إن ربة البيت التى تقوم بجانب كبير من عملية المشتريات فى العالم ، لا تختار فى هذا المجال لكفايتها كمديرة عمل » وهى لا تعزل عن وظيفتها فى حالة عدم جدارتها — والفرصة أمامها صغيرة لنشر تأثيرها على ربات الأسر الأخرى — إن ثبتت قدرتها . . . فلا عجب إذن إذا كان ما حذقه العالم من فن الاستهلاك لا يعود إلى المستهلكين » بقدر ما يعود إلى إقدام المنتجين الذين يكدون للفوز بسوق لسلعهم[1] .

وتوحى هذه الاعتبارات بأن التقلبات فى حجم النشاط الاقتصادى ، قد تظل مستعصية على السيطرة عليها ، طالما بقيت وحدات الاستهلاك هى الأسر » فى حين بقيت وحدات الإنتاج فى أيدى أفراد أو مؤسسات أو دول ينافس بعضها بعضاً » وتخلف إرادتهم المتنازعة الميدان الاقتصادى مفتوحاً ، تعمل فيه قوى العقل الباطن الكامنة فى النفس .

وأمامنا الأسلوب الذى اتبعه النبى العبرى يوسف كوزير اقتصاد لفرعون مصر فى أواخر أيام الهكسوس ، وأدى إلى نجاحه الخارق . ويقوم هذا الأسلوب على تخزين المؤن طوال السنوات السمان لمواجهة السنوات العجاف القادمة . فليس ثمة ما يحول دون إصطناع هذا الأسلوب أخيراً » فى عالم تأثر بالاقتصاد الغربى واتسع حتى شمل الكون بأسره : وليس ثمة من سبب يمنع ظهور « يوسف أمريكى » أو « يوسف روسى » ليضع جماع حياة الإنسان الاقتصادية تحت هيمنة مركزية — خيرة أو مفسدة — تفوق بالتأكيد أشد شطحات المخيلة الموسوية أو الماركسية تهوراً .

---

(١) صفحتا ١٦٥ و ١٦٦ Mitchell, W.C. : Business Cycles : The Problem and its Setting (New York 1927, National Bureau of Economic Research, Inc.

وإذا ما تحوّلنا من الدورات الاقتصادية التى لا تستغرق إلا بضع سنين ، إلى دورة تستغرق جيلا ويتراوح طول موجتها بين ربع وثلث قرن ، لاستطعنا أن نرى أن الضياع الذى يتعرض له أى تراث ثقافى ، قد اختُزل على الصعيد المادى بفضل الطباعة والتصوير الفوتوغرافى وغيرهما من الأساليب الفنية ، كما اختُزل على الصعيد الروحى ، بفضل انتشار التعليم .

إلى هنا ، تبدو نتائج بحثنا الحالى مشجّعة . لكننا إذ ننتقل إلى العمليات الاجتماعية ذات الموجة البالغة الطول — مثل « الساقية ذات الأنين » التى تدور بين تضاعيف ثمانية أو عشرة قرون من الانهيار والانحلال — تجابه سؤالا ما برح يتبدّى بإلحاح فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية لعدد متزايد من الأذهان فى العالم الغربى ، فى غضون جيل واحد :

فهل هو مقدّر سلفاً على الحضارة المنهارة ، أن تسير فى الطريق الخاطئ الذى يقودها حتما صوب النهاية المُرة ؟

أو هل فى استطاعتها أن تعود أدراجها ؟

ولعل أقوى دافع عملى للاهتمام الذى ما فتئ معاصرو الكاتب من أهل الغرب يبدونه — دون شك — لدراسة شاملة مجرّدة لتاريخ الإنسان وهو فى طوره الحضارى ؛ لعل أقوى دافع لذلك ، تلهّفهم على تحديد موقفهم التاريخى فى لحظة من تاريخ حضارتهم ، أحسّوا هم أنفسهم بأنها نقطة تحوّل . وفى غمار هذه الأزمة ، أدركت الشعوب الغربية — ولربما الشعب الأمريكى بصفة خاصة — عبء المسئولية . وإنها إذ تنكفئ إلى تجارب الماضى بحثاً وراء ضوء ينير السبيل أمامها ؛ فإنها تعود إلى مصدر الحكمة البشرى الوحيد ، الذى كان دوماً تحت تصرف البشرية .

إلا أن هذه الشعوب ، ما كانت لتستطيع العودة إلى التاريخ لينير

أمامها سبيل معرفة ما يجب عليها أن تفعل دون أن تضع نصب عينيها — أولا — الإجابة على هذا السؤال التمهيدى :

هل أتاح لها التاريخ عهداً بأنها تتألف — حقاً — من عاملين يتصرفون بمطلق حريتهم ؟

فقد يتضح — بعد — أن درس التاريخ ليس أن اختيار طريق قد يكون أفضل من اختيار طريق آخر ؛ بل أن إعتقاد هذه الشعوب بحريتها فى الاختيار ، ما هو إلا وهم وسراب ؛ وأن الزمن الذى كان فيه اختيار المرء أمراً فعالا — إن كان هذا الزمن قد وُجِد فعلا — قد مضى وانقضى . وأن جيل هذه الشعوب قد انتقل من طور : ا . ا . ل . فيشر A.A.L. Fisher — حيث قد يتبع أى شىء الآخر — إلى عصر عمر الخيام الذى يقول :

إن القضاء لأمر لايرد وما نصيب ذى الهم إلا السقم والألم
إن تقض عمرك مهموم الفؤاد فلن تزيد شيئاً إلى ما خطه القلم(١)

إن نحن حاولنا الإجابة عن السؤال فى ضوء الدلالة التى تتيحها — حتى الآن — تواريخ الحضارات ؛ فأحرى بنا أن نقرّ بأنه من حالات الانهيار الأربع عشرة الواضحة ، لن نستطيع أن نشير إلى حالة واحدة أمكن فيها التخلص من « داء الحرب بين الأخوة » بأية طريقة أقل خشونة ، غير إبادة جميع الدول نفسها التى شهدت الحرب ، ما خلا واحدة منها .

لكنا إذ نتقبل هذا الكشف الرهيب ، لايجب أن نسمح لأنفسنا بأن يتملكنا القنوط بسببه : ذلك لأنه معروف عن أسلوب المنطق الاستقرائى أنه أداة ناقصة لاتستطيع إثبات صحة قضية سلبية . وكلما قل عدد الحالات

(١) من ترجمة السيد أحمد الصافى النجفى عن الأصل الفارسى . وهى ترجمة اعتمدتها الحكومة الإيرانية ونشرتها فى مجموعة تضمنت رباعيات الخيام باللغات : الفارسية والعربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية . (المترجم)

موضع البحث ، زاد قصور هذا الأسلوب. ولم تُقم تجربة نحو أربع عشرة حضارة خلال مدة لا تزيد على ستة آلاف سنة ، أية قرينة قوية ضد احتمال أنه استجابة للتحدى الذى هزم هذه الحضارات الرائدة ؛ قد يوفق يوماً ما ممثل آخر لهذا الشكل الجديد — نسبيا — للمجتمع ، إلى فتح طريق ما — ما يزال مجهولا — أمام تقدم روحى لم يسبق إليه ؛ ويتم ذلك بفضل كشف تدبير أقل كلفة من فرض دولة عالمية — بالقوة العارمة — كعلاج للداء الاجتماعى المتمثل فى الحرب بين الأخوة .

فإن نحن عدنا بالنظر — وهذا الاحتمال ماثل فى أذهاننا — مرة أخرى ، إلى تواريخ تلك الحضارات التى وطأت « طريق الآلام »[١] بطوله كله « ابتداء من الانهيار إلى الانحلال النهائى » للاحظنا أن بعضا منها على الأقل ، قد استشفت حلا بديلا فيه خلاص البشرية ؛ حتى ولو لم توفق أية واحدة منها فى تحقيق هذا الحل .

فى العالم الهلينى — مثلا — خطرت فكرة التجانس فى الحكم أو الوفاق السياسى (الذى قد يحقق ما لا تستطيع القوة إتيانه على الإطلاق) خطرت على بال بضعة نادرة من الهلينيين تحت الضغط الروحى الناجم عن عصر إضطرابات بدأ بإندلاع الحرب الأثينية البلوبونيزية خلال الأعوام من ٤٣١ إلى ٤٠٤ قبل الميلاد . ونفس النظرة المثالية قد تجسدت فى العالم الغربى — خلال حقبة ما بعد الحديثة — فى عصبة الأمم بعد حرب ١٩١٤/١٩١٨ ، ثم فى منظمة الأمم المتحدة بعد حرب ١٩٣٩/١٩٤٥ .

وفى العالم الصينى — خلال أول تعبئة للمجتمع الصينى بعد انهياره — نجد أن حماسة كونفوشيوس لإحياء سنن السلوك والطقوس التقليدية ، وإيمان

---

(١) طريق الآلام (via dolarosa) — فى الأصل — الطريق التى سار فيها السيد المسيح عليه السلام حاملا صليبه من ساحة الحكم عليه فى قصر الحاكم الرومانى إلى « الجلجثة Golgotha » حيث تم صلبه — وفقاً للعقيدة المسيحية . (المترجم)

لاوتسى Lao-Tse المتجرد ، بضرورة ترك المجال حرا أمام الفعل التلقائى لقوى العقل الباطن ؛ إن هذه الحماسة وهذا الإيمان قد أوحى بهما ، حنين الوصول إلى ينابيع من الشعور قد تطلق قوة من التآلف الروحى تنقذ البشرية . ولقد بُذلت فى الصين أكثر من محاولة لتضمين هذه الآراء المثالية فى نظم طُبِّقت ؛

وصفوة القول ؛ تمثل هدف البشرية — على الصعيد السياسى — فى الاهتداء إلى طريق وسط بين نقيضين عقيمين :

— الصراع الكئيب بين دول إقليمية ؛

— والسلام الكئيب الذى يفرضه توجيه الضربة القاضية ؛

إن جزاء النجاح فى إجتياز الممر المنيع الذى كان فكاه المتصادمان يحطمان كل سفينة حاولت العبور من بينهما ، قد يكون هو تجربة جماعة أرجونت Argonauts[1] الأسطورية التى أدت بهم إلى اكتشاف بحر واسع لم يطرقه أى بشر من قبل . على أنه كان من الواضح أنه ما كان ليتأتى لأية وثيقة طلسمية متضمنة دستورا اتحاديا ، أن تحقق هذه النتيجة :

فما كان فى وسع أعظم التنظيمات السياسية مهارة — إذ يطبق على الكيان الاجتماعى — أن يقوم بأية حال من الأحوال ، مقام الخلاص الروحى للنفوس . وما كانت الأسباب القريبة للانهيار — فى حروب الدول أو فى الصراع بين الطبقات — بأكثر من أعراض للسقم الروحانى . ومنذ أمد بعيد ؛ أثبتت حصيلة ثرية من التجارب ، عقم النظم فى إنقاذ النفوس المتمردة من زجّ نفسها — وبعضها بعضا — فى غمار الأسى .

(١) آرجونوت Argonaut : أبطال أسطوريون كان زعيمهم جاسون Oason . وقد اندفعوا فى سفينة تدعى آرجو Argo لبحث عن الدهن الذهبى — وجاسون بطل يونانى أسطورى طرده أخوه بيلاس Pellas من مملكته وأحب التخلص منه فأرسله إلى مكان قصى لبحث عن كنز ذهبى . (المترجم)

وإذا كانت مصائر الإنسان الذى يسلك طريق الحضارة — وهو فى خضم تسلقه الشاق حافة صخرة منتصبة نحو قمة عالية ، عسيرة المنال لايدركها البصر ؛ إذا كان من الواضح أن مصائره تتوقف على قدرته على أن يسترد سيطرته على هذه الهوة ، فلا يقل عن ذلك وضوحاً ، أن هذه المسألة تتوقف على مسلك الإنسان فى علاقاته مع سواه من البشر لا مع نفسه فحسب ، بل أيضاً وفوق كل شىء ، مع مسلك الإنسان فى علاقاته مع الله مخلّصه[1] .

---

(١) يرمز المؤلف هنا إلى تشبيه المجتمعات البدائية بأناس راقدين خاملين على سلسلة صخور تقع على جانب جبل — وتحتهم هوة وفوقهم أخرى — وتشبيه الحضارات برفقاء لهؤلاء الهاجعين استيقظوا ثم نهضوا واقفين وشرعوا فى تسلق الجبل فوقهم . وتختلف حظوظ المتسلقين فى النجاح (انظر صفحتى ٨٤ و ٨٥ من الجزء الأول من هذه الترجمة) . (المترجم)

الفصل السابع والثلاثون

تمرد الطبيعة البشرية على قوانين الطبيعة

من شأن مثل هذه الشواهد التى جمعناها عن قدرة الإنسان على السيطرة على شئونه الخاصة — سواء بمداورة قوانين الطبيعة أو بتسخيرها لخدمته — من شأن هذه الشواهد أن تثير السؤال : هل توجد ثمة ظروف لا تخضع فيها شئون البشر — مطلقاً — لقوانين الطبيعة .

وعسانا نبدأ استقصاءنا هذا الاحتمال ببحث معدل التغير الاجتماعى :

فإذا ثبت أن هذا المعدل متغير ، لكان هذا دليلا — إلى المدى الذى يذهب إليه — على أن شئون البشر لا تخضع لقوانين الطبيعة ، فى البعد الزمانى على الأقل .

وإن ثبت — فعلا — أن المعدل الزمنى فى التاريخ ثابت فى جميع الظروف — بمعنى أنه إذا أمكن بيان أن كل عقد[1] أو قرن يولد قدراً ثابتاً محدداً ومطرداً من التغير السيكلوجى والاجتماعى — ينبنى على ذلك أنه إذا علمنا معدل التغير فى السلسلة السيكلوجية والاجتماعية (أو المعدل الزمنى فى السلسلة الزمنية) لتيسر لنا حساب مقدار المعدل المقابل المجهول فى السلسلة الأخرى .

ولقد اصطنع هذا الفرض ، أحد الباحثين ، المتازين فى التاريخ المصرى ، أعرض عن اتخاذ التأريخ الزمنى الذى يحدده علم الفلك . وكانت حجته فى هذا الفرض ، أن الموافقة على صحة هذا التأريخ معناها التسليم بصحة قضية غير مستساغة فى نظره ، مدارها أن معدل التغير الاجتماعى فى العالم المصرى ، كان لا بد أن يكون أسرع بكثير خلال فترة طولها مائتا سنة

---

(١) العقد : عشر سنوات .

عما كان عليه هذا المعدل خلال المائتى عام السابقة لها مباشرة ؛ ومع ذلك ففى الإمكان إيراد حشد من الأمثلة الشائعة للدلالة على أن القضية التى أجفل عندها هذا الباحث الكبير فى المصريات ، هى فى الواقع قضية تاريخية مسلّم بها .

فمن قبيل المثال :

نعرف أن البارثينون Parathenon[1] فى أثينا قد شُيد خلال القرن الخامس قبل الميلاد ، وأن معبد هادريان شُيد خلال القرن الثانى بعد الميلاد ، وأن كنيسة القديسة صوفيا بنيت بالقسطنطينية خلال القرن السادس بعد الميلاد ؛ فصداقاً للمبدأ الذى ارتكز عليه عالمنا الأثرى ؛ كان لا بد وأن يكون هناك فاصل زمنى أقصر بكثير بين تاريخ تشييد كل من البناءين الأول والثانى — وقد شُيد كل منهما بنفس الطراز المعمارى تقريباً — وبين تشييد البناءين الثانى والثالث ، اللذين يختلف كل منهما عن الآخر اختلافاً بيناً من حيث الطراز المعمارى .

ولكن هذه التواريخ المؤكدة الثابتة القاطعة ، تظهر لنا — هنا — بأن أقصر الفاصلين فى هذه الحالة ، كان بين البناءين اللذين يتباين طرازهما المعمارى .

كذلك ، قد نضل الطريق ، إذا بدا لنا أن نضع ثقتنا فى نفس المبدأ النظرى المسلّم به سلفا ؛ فى محاولة لتقدير الفواصل الزمنية « النسبية » الواقعة بين عتاد الجندى الرومانى إبان الأيام الأخيرة للإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، وبين عتاد جندى ساكسونى فى جيش أوتو الأول Otto I إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة : وبين عتاد فارس نورماندى مرسوم على طنفسة

---

(١) البارثينون : معبد قديم فى أثينا شيد على الأكروبول . (المترجم)

« بايو Bayeux »[١] . ولما كانت الدروع المستديرة وخوذات المصارع المربعة الحافة ذات القنّة التي تجهز بها جنود « أوتو Otto » ؛ هي مجرد تعديلات طفيفة على أساس عتاد جنود ماجوريان Majorian الإمبراطور الروماني المتأخر ، في حين أن جنود وليم الفاتح زُوّدوا بخوذات مخروطية سرماتية[٢] وصدرات محرشفة[٣] على هيئة خطّافات : فقد يقودنا هنا — كذلك — فرض ثبات المعدّل الزمني للتغير ، إلى الهروب من مواجهة الوقائع ، بالتخمين بأن الفواصل الزمنية بين أوتو الأول (حكم من ٩٣٦ إلى ٩٧٣ ميلادية) وبين وليم الفاتح (حكم في نورماندى من ١٠٣٥ إلى ١٠٨٧ ميلادية) لابد وإن كانت أكثر طولا من الفاصل الزمني بين ماجوريان Majorian (حكم من ٤٥٧ إلى ٤٦١ ميلادية) وبين أوتو الأول .

مثال آخر :

إن أى فرد يُلقي نظرة إجمالية على اللبس العادى الذى كان يرتديه الرجل المدنى الغربى فى عام ١٧٠٠ ميلادية وفى سنة ١٩٥٠ ميلادية ؛ سيرى — بلمحة — أن السُّترة والصُّدرة والسِّروال والمظلّة عام ١٩٥٠ ، ما هى إلا مجرّد تعديلات طفيفة على السُّترة والصُّدرة والسراويل والسيف الشائعة جميعاً فى سنة ١٧٠٠ ، وإن كلا اللباسين يختلفان تمام الاختلاف عن الصُّدرة

---

(١) طَنْفِسة بايو : لفة من الكتان — أطلق عليها اسم طنفسة تجاوزاً وإن أصبح اللقب علماً تاريخياً عليها — عرضها ٢٠ بوصة وطولها ٢٣١ قدم . وهى ما تزال محفوظة فى دار مطرانية بايو Bayeux فى مقاطعة نورماندى بفرنسا . ومرسوم عليها بخيوط الصوف الملوّن ، الأحداث المتصلة بغزو وليم الفاتح إنجلترا وفتحها . ويقال إن زوجته « ماتيلدا » هى التى وضعت تصميمها . وقد احتفظ بها « أودو » شقيق وليم الفاتح ومطران بايو .
(المترجم)

(٢) سارمتيا Sarmatia . كانت قديماً بولندا الحالية وجانباً من روسيا . على أن المصطلح عليه فى الوقت الحاضر : إطلاق اسم سارماتيا على بولندا قديماً . (المترجم)

(٣) المحرشف : نسبة إلى الحراشف — كحراشف السمك مثلا . (المترجم)

وجورب الساق الشائعين عام ١٦٠٠ ميلادية . وفى هذه الحالة — وهى على نقيض المثالين المتقدمين — كان التغير الذى حدث ، أبعد مدى بكثير فى الفترة الأولى والأقصر ، عنه فى الفترة الثانية الأطول .

وما هذه الأقاصيص المتسمة بالحيطة ، إلا تحذير ضد خطر الاعتماد على النظرية القائلة بثبات المعدل الزمنى للتغير ، باعتباره أساساً لمحاولة تقدير الوقت الذى لابد أن تكون الطبقات المتعاقبة من أنقاض المساكن البشرية ، قد استغرقته لتتراكم فى موقع ما ؛ موقع مطلوب إعادة كتابة تاريخه ، بناء على الأدلة المادية وحدها ، التى تكشف خبيئتها مجرفة عالم الآثار ؛ لعدم توافر البيانات ثابتة التاريخ المدونة فى السجلات المكتوبة .

وعسانا بأن نتابع هجومنا الاستهلالى على هذه النظرية القائلة بثبات معدل التغير الثقافى . وذلك بذكر بضعة أمثلة عن : تعجيل التغير ، أولا ، ثم عن إبطائه . وأخيراً ، عن تعاقب التعجيل والإبطاء .

فظاهرة الثورة ، هى المثال المألوف عن عوامل « التعجيل » . فإنها — مصداق لما رأيناه فى سياق آخر من هذه الدراسة — حركة اجتماعية تولدت عن تلاقى جماعتين يتصادف أن تكون إحداهما متقدمة عن الأخرى فى مجال أو فى آخر من مجالات النشاط البشرى المختلفة . فالثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ — مثلا — كانت فى طورها الأول ، مجهوداً « تقلصيا » للحاق بالتقدم الدستورى الذى حققته بريطانيا فى بطء ، إبان القرنين السابقين . ويقينا ، إن الحركة اللبرالية الغربية فى أوروبا ، ألهمت هذا العدد الكبير من الثورات — التى أصيب معظمها بالعقم فى القرن التاسع عشر ، هذه الحركة اللبرالية ، التى أطلق عليها طائفة من المؤرخين اسم « حب تقليد الإنجليز » . (انجلومانيا) .

وثمة أنموذج مألوف « للتعجيل » ، نجده فى سلوك رجال الحدود القاطنين على هامش حضارة ما ، أو فى سلوك البرابرة الذين يقطنون خارج الحضارة بقليل ، إذا مافكروا — جميعاً — بغتة فى اللحاق بجيرانهم الأعظم منهما تقدما ؛

ويذكر كاتب هذه الدراسة – بجلاء – التأثير الذى أحدثته فى نفسه زيارة « المتحف النوردى » فى إستكهلم عام ١٩١٠ . فإنه بعد أن اجتاز سلسلة من الحجرات تعرض نماذج من الثقافات الإسكندنافية فى غضون العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث وعصر البرونز وعصر الحديد السابق للمسيحية ؛ أخذه العجب إذ ألفى نفسه فى حجرة تعرض منتجات حرف فنية اسكندنافية بأسلوب النهضة الإيطالية . وعجب إذ فاتته مشاهدة منتجات العصر الوسيط . فعاد أدراجه حيث وجد – بكل تأكيد – حجرة خاصة بعرض منتجات العصر الوسيط » لكن كانت محتوياتها لا يؤبه لها . فعندئذ أخذ يدرك أن بلاد اسكندناوا قد انتقلت – فى ومضة – من العصر الحديدى المتأخر الذى بدأت خلاله فى إبداع حضارة مميزة خاصة بها » إلى العصر الحديث المبكّر الذى أصبحت فيه شريكا – لا يفترق عن غيره – فى ثقافة إيطالية مسيحية غربية ذات معدل واحد . فكان جزء من ثمن هذا الفعل الفذ المتمثّل فى التعجيل ؛ هو ذلك الإفقار الثقافى الذى يحمل معالمه ذلك المتحف النوردى .

وكما كان الحال فى بلاد أسكندناوا إبان القرن الخامس عشر الميلادى ، كان الحال كذلك بالنسبة لجميع العالم غير الغربى – وإن كان منهمكا فى إصطناع الحضارة الغربية – أثناء الجيل الذى عاش فيه الكاتب . فإن من الأمور المألوفة : أن تشاهد الشعوب الإفريقية – مثلا – وهى تسعى إلى أن تُنجز خلال جيل واحد أو اثنين ، تقدماً سياسياً واجتماعياً وثقافياً استغرق من الشعوب الأوربية الغربية – التى كان الإفريقيون يحاكونها ويقاومونها فى نفس الوقت – ألف سنة أو أكثر . وكانت هذه الشعوب تنزع إلى الإفراط فى تقدير مقدار التعجّل الحقيقى الذى أنجزته أفريقيا » بينما كان المشاهد من أهل الغرب ينزع إلى بخس الجهود التى بذلتها أفريقيا فى هذا المقام .

وإذا كانت الثورات مظهراً دراميّاً للتعجيل ، فإن ظاهرة الإبطاء يمكن مشاهدتها على شكل إعراض بليد عن مسايرة حركة الجسم الرئيسى ،

ويمكن العثور على مثال للإبطاء فى عناد الولايات الجنوبية من اتحاد الولايات الأمريكية فى استبقاء نظام الرق طوال جيل كامل ، بعد أن تم إلغاؤه فى جزائر الهند الغربية المجاورة ، وهى جزء من الإمبراطورية البريطانية . وثمة أمثلة أخرى تقدمها جماعات من المستعمرين الذين نزحوا إلى بلاد « جديدة » واحتفظوا فيها بمقاييس كانت شائعة فى أوطانهم الأصلية وقتما خلفوها وراءهم ، وظلوا يحتفظون بتلك المقاييس حتى بعد أن نبذها أبناء عمومتهم فى الوطن القديم بوقت طويل ، وساروا إلى الأمام قُدُماً . وهذه حالة مألوفة ، ويكفى ذكر : كويبك ومرتفعات الابالاش والترنسفال خلال القرن العشرين الميلادى إذا قورنت بكل من فرنسا والصتر Ulster وهولندا — فى نفس القرون — على التوالى .

وتعرض الصفحات السابقة من هذه الدراسة[1] أمثلة عديدة عن التعجيل والإبطاء على السواء ، وفى وسع القارئ نفسه استعادتها . وواضح — مثلا — أن ما دعوناه بـ « المسايرة »[2] هو نزعة مماثلة لما أطلقنا عليه « التعجيل » ؛ وإن ما دعوناه « التزمت »[3] ، نزعة مجانسة لما أطلقنا عليه « التأخير » . وواضح كذلك أنه طالما كان التغيير يعنى الاتجاه إلى الأسوأ أو إلى الأفضل ؛ فإن « التعجيل » ليس بالضرورة حسناً ، كما أن « الإبطاء » ليس بالضرورة سيئاً .

وفى وسعنا أن نرى فى التاريخ الغربى الحديث لفنون الملاحة وبناء

---

(١) صفحات ٤٢٣ — ٤٣٤ من الجزء الثالث من هذه الترجمة .

(٢) فى الأصل — الهيرودية Herodianism ، شيعة يهودية يضرب بها المثل فى الرياء واصطناع الأساليب الانتهازية والطرق المسالمة ، لبلوغ الأهداف . (المترجم)

(٣) فى الأصل — الزيلوتية Zealotism : طائفة يهودية اعتنقت مبدأ العنف لتنفيذ أغراضها ، والتزمت فى معتقداتها الفكرية . (المترجم)

السفن » سلسلة من التغيرات المتعاقبة فى معدلات السرعة . ويجرى هذا التسلسل « لا بالنسبة لجيلين اثنين ؛ لكنه يشمل ثلاثة أجيال ، ولربما يصل إلى أربعة أجيال . وتبدأ القصة بتعجيل فجائى يقلب الفنون رأساً على عقب خلال فترة الخمسين سنة من ١٤٤٠ إلى ١٤٩٠ ميلادية . وتلا هذا التفجّر ؛ « إبطاء » استمر طوال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر . ولكن تبعه بدوره — بعد هذا التوقف الطويل — تعجيل فجائى آخر استمر طوال الخمسين سنة من ١٨٤٠ إلى ١٨٩٠ ميلادية . وفى عام ١٩٥٢ ؛ كان الطور التالى يتسم بالغموض ، إذ كان ما يزال فى طريق التقدم . على أنه يبدو لعين الرجل غير الفنى ؛ كما لو أن أوجه التقدّم التكنولوجى التى أحرزت جانباً كبيراً من الرقى ؛ تبدو — على بروزها — أقصر من أن تبلغ ما بلغته المنجزات الثورية التى تحققت فى نصف القرن الفيكتورى :

« خلال القرن الخامس عشر . . . حدث تغيّر سريع وخطير فى بناء السفن . . . فى مدى خمسين سنة ، تطورت المركب الصالحة للملاحة فى البحار ، من مركب ذات سارية واحدة فأصبحت ذات ثلاث ساريات تحمل خمسة أو ستة أشرعة »[1] .

ولم تهيئ هذه الثورة التكنولوجية لمبدعيها منفذاً إلى جميع أركان العالم فحسب ، بل إنها هيأت لهم كذلك تفوقاً على جميع الملاحين غير الغربيين الذين اصطدموا بهم وتمثلت الميزة الخاصة لهذه السفينة الجديدة ، فى قدرتها على البقاء فى البحر إلى أجل لا يكاد ينتهى تقريباً ، دون أن تحتاج إلى أن ترسو فى ميناء ؛ وقد تفوقت فى هــذا على ما تلاها وما سبقها من طرز السفائن ؛ فلقد كانت السفينة — كما سميت خلال فترة مجدها بالسفينة

(١) Bassett - Lowke, J.W., and Holland, G. : Ships and Men صفحة ٤٦ (London 1946 Harrap

المثالية – نتاج تآلف سعيد بين الأساليب التقليدية المختلفة المتصلة ببناء السفن وتجهيزها ؛ وكان لكل منها ميزات خاصة ، لكن كان لكل منها كذلك أوجه النقص الناتجة عن هذه الميزات ؛ فالسفينة الغربية التى ظهرت إلى الوجود خلال الفترة الواقعة بين ١٤٤٠ ميلادية و ١٤٩٠ ميلادية ، قد جمعت بين مزايا السفينة الطويلة التى تسير بالمجاديف ، والتى كانت شائعة زمنا طويلا فى البحر المتوسط وعرفت باسم القادس[1] ؛ وبين مزايا ثلاثة أنواع مختلفة على الأقل من السفن وهى :

١ – السفينة الماخرة عباب البحر المتوسط والمعاصرة للسفينة سالفة الذكر ، وهى سفينة أسطوانية ذات أشرعة مربعة ومعروفة باسم « القليون »[2] .

٢ – المركب الشراعى الكبير ذو الأشرعة المثلثة الشكل الذى كان يمخر عباب المحيط الهندى وقد رسم سلفه فى السجلات المرئية المتعلقة ببعثة مصرية إلى أراضى إفريقية الشرقية المعـــروفة ببلاد « بُونت Punt » إبان حكم الإمبراطورة حتشبسوت (١٤٨٦ – ١٤٦٨ ق ؛ م) .

٣ – السفينة الضخمة التى كانت تجوب المحيط الأطلسى والتى لفتت نظر يوليوس قيصر عام ٥٦ قبل الميلاد وقتما احتل شبه الجزيرة التى أُطلق عليها فيما بعد اسم بريتانى Brittany[3] ؛

ولقد استكمل التصميم الجديد – الذى جمع خير مزايا هذه النماذج الأربعة – قبل أن ينتهى القرن الخامس عشر . ومن ثم ؛ لم تختلف فى أسسها خير السفن التى مخرت عباب البحار – وقتذاك – عن السفن التى كانت شائعة فى عصر نلسون .

---

(١) القادس : galley .

(٢) القليون : Currach .

(٣) بريتانى مقاطعة فى شمال فرنسا .

وبعد انقضاء ثلاثة قرون ونصف من « الإبطاء » ، ألفى فن بناء السفن الغربى نفسه فى بداية مرحلة أخرى من مراحل « التعجيل » . وفى هذه المرة ؛ سار العمل الإبداعى السريع إلى الأمام قدُماً فى إتجاهين متوازيين :

فمن ناحية — حل المحرك البخارى محل الشراع .

ومن ناحية أخرى اقترن ذلك بصحوة فن بناء السفن الشراعية من رقاده الطويل . فطوّر طراز البناء القديم إلى درجة من الكمال ، لم يكن يحلم بها أحد حتى ذلك الوقت . وكان من مقتضاها إحتفاظ السفينة الشراعية — فى سبيل طائفة من الأغراض — بقدرتها على الصمود أمام منافسة السفينة البخارية ، خلال فترة التطور البنّاء فى الخمسين عاما (١٨٤٠ — ١٨٩٠ ميلادية) .

فإذاً ما تطلعنا الآن إلى تفسير لظواهر « التعجيل » و « الإبطاء » التى هى خروج واضح على رتابة الحركة التى يجب أن نتوقعها فى المجتمعات التى تخضع خضوعا تاما لقوانين الطبيعة إذا أردنا تفسير هذه الظواهر ؛ فسنعثر على تفسيرنا فى قاعدة « التحدّى والاستجابة » التى بحثناها ، وقدّمنا الشواهد عليها بتفصيل فى باب سابق من هذه الدراسة .

فلنتناول الحالة الأخيرة التى أوردناها « ألا وهى التعجيلان الكبيران اللذان تفصل بينهما فترة إبطاء طويلة الأمد » فى تاريخ بناء السفن والملاحة فى الغرب :

كان التحدّى الذى استثار بناء السفينة الغربية الحديثة فى غضون نصف القرن من سنة ١٤٤٠ إلى سنة ١٤٩٠ ميلادية ، سيامى الطابع . إذ لم يقتصر فشل المسيحية الغربية عند نهاية العصور الوسطى فى شق طريقها صوب المناطق الجنوبية الشرقية نحو دار الإسلام (جهود تمثّلت فى الحروب الصليبية) بل لقد ألفت نفسها مهددة — هى نفسها — تهديداً خطيراً بفعل الهجوم المضاد الذى شنه الأتراك فى أعلى الدانوب وعلى طول ساحل البحر

المتوسط . ومما زاد موقف الغرب خطورة فى هذا الوقت ، أن المجتمع المسيحى الغربى كان يشغل فى ذلك الوقت رأس أحد أشباه جزر القارة الأوراسية . وإن مجتمعاً هذا موضعه القلق لابد – إن عاجلا أم آجلا – أن يُلقى فى البحر بفعل ضغط قوى أشد بأسا ، مندفعة إلى الخارج من قلب العالم القديم . اللهم ؛ إلا إذا عمل هذا المجتمع المحاصر على تفادى الكارثة ، فانطلق من طريقه المسدود إلى فجاج الأرض الواسعة . وإلا حق له أن يتوقع أن يقاسى على أيدى الإسلام ، المصير الذى أوقعه هو نفسه (أى المسيحية الغربية) قبل ذلك بعدة قرون على مجتمع مسيحى عقيم ، كان مركزه فى أقصى الحدود الكلتية من العالم المسيحى الغربى .

فنى أثناء الحروب الصليبية ، اختار المسيحيون اللاتين ، البحر المتوسط معبرا لعملياتهم الحربية . فعبروه فى مراكب من طراز البحر المتوسط التقليدى ، مدفوعين بنشوفهم إلى الاستيلاء على مهد عقيدتهم المسيحية ؛ ولكنهم فشلوا . وتلا ذلك تقدم التهديد الإسلامى الذى وضع خصومه من أهل الغرب بين نارين : الشيطان والبحر العميق . فكان أن اختاروا البحر العميق ، فابتكروا السفينة الجديدة . وانبنت على ابتكارها ، نتائج جاوزت أعنف أحلام أكثر المتفائلين من مريدى الأمير البرتغالى « هنرى الملاح » .

وإلى النجاح الساحق الذى أحرزته فى القرن الخامس عشر استجابة فن تشييد السفن لتحدى الإسلام ؛ تعزى فترة « الإبطاء » الطويلة التى أعقبت ذلك فى صناعة بناء السفن الغربية .

وكانت فترة « التعجيل » الثانية فى هذا المجال ، راجعة إلى سبب مغاير تماما . ذلك هو الثورة الاقتصادية الجديدة التى بدأت تؤثر فى أجزاء من أوروبا الغربية عند نهاية القرن الثامن عشر . وتمثلت الخاصيتان البارزتان لهذه الثورة فى :

١ ــ زيادة مفاجئة فى عدد السكان بمعدل يرتفع ارتفاعا مطّردا .

٢ ــ رجحان كفة التجارة والصناعة الآلية على الزراعة .

ولا نحتاج هنا إلى سرد قصة التوسّع الصناعى الغربى فى غضون القرن التاسع عشر ؛ وهى قصة معقدة ، لكنها معروفة . وما صاحب هذا التوسع من زيادة عدد السكان ؛ زيادة لم تؤد فقط إلى تضاعف ــ بدرجات متفاوتة ــ عدد سكان مختلف البلاد فى الجزء الغربى من العالم الغربى الأوربى القديم ، لكنها شرعت كذلك فى ملء البقاع الخلاء الواسعة فى الأراضى الجديدة التى استحوذ عليها الرواد من أهل الغرب فيما وراء البحار : وواضح أن النقل عبر المحيطات كان يغدو بمثابة « عنق زجاجة » خانقة تعوّق هذه التطورات ، لو لم يستجب صناع السفن إلى هذا التحدّى بقلوب صادقة وعزم قوى ، على غرار استجابتهم للتحدى منذ أربعمائة سنة مضت .

* * *

وبعد ؛ فلقد اخترنا مثالنا من المجال المادى من شئون البشر . ووقع اختيارنا على اثنين من الاستجابات التكنولوجية المتعاقبة فى صناعة معينة لتحديين اثنين :

الأول ــ سياسى وحربى .

والثانى ــ اقتصادى واجتماعى .

لكن مبدأ التحدى والاستجابة » هو نفسه لا يتغير خلال صروف الدهر جميعها ؛ سواء أكان تحدى البطون الخاوية التى تشتهى الخبز ، أو تحدى النفوس الجائعة التى تتوق إلى الله العلى القدير .

ومهما يكن من أمر التحدى ؛ فهو فى جميع الأحوال » نعمة حرية الاختيار التى يمنحها الله عباده .

الفصل الثامن والثلاثون

ناموس الله

سنحاول فى هذا الفصل من هذه الدراسة ، تحقيق قدر من الوقوف على حقيقة العلاقة بين القانون والحرية فى التاريخ . فإذا عدنا الآن إلى السؤال الذى يلح علينا ، سنجد أننا قد توصلنا بالفعل إلى إجابة .

فما هى علاقة الحرية بالقانون ؟

وإن مما ثبت لدينا ، يفصح أن الإنسان لا يعيش فى ظل قانون واحد فقط . إنه يحيا فى ظل قانونين اثنين ؛ أحدهما هو ناموس الله الذى هو الحرية ذاتها ، تحت اسم آخر ، أكثر بهاء[1] .

إن « ناموس الحرية الكامل » — كما يدعوه القديس يعقوب فى رسالته[2] — هو كذلك قانون المحبة ، لأنه ما من أحد يستطيع منح الإنسان حريته ، غير إله هو بنفسه « المحبة » . ولا يستطيع الإنسان إستخدام هذه الهبة الإلهية ليختار بمطلق حريته الحياة والخير ، عوضاً عن الموت والشر ؛ إلا إذا أحب الإنسان — من جانبه — الله بالقدر الذى يكفى ليدفعه هذا الحب الاستجابى ، إلى التسليم لله ؛ وذلك بأن يجعل إرادة الله ، إرادته هو نفسه .

إن إراداتنا ملك لنا ولكننا لا نعرف كيف

أن إراداتنا ملك لنا ، لنجعلها ملكاً لك[3] .

---

(١) يرى الأستاذ المؤلف أن لفظ liberty أكثر بهاء من لفظ freedom .
(المترجم)

(٢) رسالة القديس يعقوب إصحاح ١ آية ٢٥ وإصحاح ٢ آية ١٢ . (المترجم)

(٣) Tennyson : In Memoriam in the Inovocation

« إن التاريخ هو : . . قبل كل شيء ، دعوة ، نداء ، قانون ، يجب على الكائنات البشرية الحرة الاستماع إليه والاستجابة له . هو إجمالا « تفاعل بين الله والإنسان[1] » لقد ثبت أن القانون والحرية فى التاريخ هما شيء واحد ، بمعنى أنه من الثابت أن حرية الإنسان هي ناموس الله الذى هو المحبة ذاتها . لكن هــذا الكشف لا يحل مشكلتنا : وذلك لأننا عندما أجبنا عن سؤالنا الأصيل ، أثرنا موضوعاً جديداً . فبمعرفة أن الحرية تتطابق مع إحدى مجموعتى أحكام القانون ، أثرنا موضوع علاقة كل من المجموعتين بالأخرى .

وقد يبدو — للوهلة الأولى — أن الإجابة هى أن قانون المحبة وقانون الطبيعة البشرية اللاشعورية — وظاهر أن لكل منهما ولاية على شئون البشر — ليسا متباينين فحسب ، لكنهما متضاربان ، بل إنهما متنافران . ذلك لأن قانون النفس اللاشعورية يهيمن على نفوس دعاها الله للعمل معه ، فى حرية . وكلما تعمقنا فى الموازنة بين هذين « القانونين » ظهر لنا اتساع الهوة المعنوية بينهما . فإن قدّرنا « قانون الطبيعة » وفقاً لمعيار « ناموس المحبة » ، ونظرنا بعين المحبة جميع ما فعلته الطبيعة ، لشاهدنا شيئاً رديئاً للغاية .

انظر . . . إن السماء العليا والأرض ترتجفان من أساسهما :

جميع الأفكار التى تشق القلب موجودة هنا . . وجميعها باطل[2] .

إذ أن إحدى النتائج التى استخلصها المشاهدون من البشر ، لما فى الكون من شرور معنوية ، هى أن دنيا الأهوال هذه ، لا يمكن أن تكون من صنع الله .

فالأبيقوريون[3] ذهبوا إلى أنها النتيجة التلقائية لالتقاء مفاجئ بين ذرات لا تفنى .

---

(١) Lampert, E : The Apocalypse of Historne (London 1948, Faber)

(٢) Housman, A. E : Shropshire Lad xlviii

(٣) نسبة إلى الفيلسوف أبيقور . (المترجم)

أما المسيحي ، فيجد نفسه مكرهاً على اختيار أحد رأيين يبلبل كلاهما فكرة يلبلة مفجعة .

فإما أن الله — وهو محبة — لا بد أنه خلق كوناً ظاهر الفساد :

وإما أن يكون خالق الكون إلهاً آخر غير إله المحبة !!

ولقد اعتنق الملحد « مارسيون Marcion »[1] فى بداية القرن الثانى الميلادى والشاعر بليك Blake[2] فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى — اعتنق كلاهما — الرأى الأخير . إذ قام الحل الذى ذهبا إليه لهذا اللغز المعنوى ؛ على نسبة خلق الكون إلى إله « لا حاب ولا محبوب » . فعلى حين يجذب الإله المخلّص النفوس بالمحبة ؛ فإن الإله الخالق ليس فى وسعه إلا أن يفرض قانونا ويوقع عقوبات وحشية على من يخرق هذا القانون شكلا . وهذا الإله السوداوى المزاج الفارض نفسه سيداً — الذى رأى فيه مارسيون « يهوى jehevah[3] » الموسوى ودعاه بليك بـ « يوريزين Urizen » وأطلق عليه تهكما « أبا غير كائن » — لابد أن يكون سيئا بما فيه الكفاية ؛ إذا كان كفوًا على أداء واجباته بما يتفق ووجهة نظره المحدودة . لكن هذا الإله اشتهر بأنه يفشل فى أداء واجباته بكفاءة ، ولا بد أن يُرد فشله : إما إلى عدم كفايته « أو إلى سوء نيته !! . ولا شك أنه ليس ثمة علاقة مفهومة — أيا كانت — بين آثام العالم وآلامه !!

وعلى حين أن مارسيون قوى الحجة من ناحية توكيده ارتباط عملية خلق

---

(١) مارسيون : مؤسس شيعة المارسونية . ومن رأيه أن بشارة السيد المسيح تتألف من المحبة الطليقة الخير ، وأن النظام الموسوى — بما يضمه بين ثناياه من ثواب وعقاب — هو مجرد قانون وضعى لا صلة له بالله . ومن ثم ينكر « مارسيون » جميع ما ورد فى العهد القديم والعهد الجديد على السواء ؛ إلا بضعة رسائل قليلة وجانب من إنجيل لوقا . (المترجم)

(٢) بليك — وليم بليك (١٧٥٧ — ١٨٢٧) : شاعر ونقاش إنجليزى . وكان يعتقد بأن الملائكة توحى بأشعاره وأعماله الفنية . (المترجم)

(٣) يهوى : أقدس أسماء الله فى اليهودية . (المترجم)

الكون بالشر ، فإن حجته ضعيفة فى إنكاره عدم وجود رابطة ما بين الخلق وبين الخير والمحبة . لأن الحقيقة هى أن محبة الله هى مصدر حرية الإنسان . وأن الحرية التى تمهد الطريق أمام عمليـــة الخلق ، إنما تفتح بفعلها هذا ، الباب لرواج الخطيئة إلى العالم . ويمكن اعتبار كل تحد نداء من الرب » أو إغراء صادرا من الشيطان على السواء . وإن محاولة مارسيون تبرير محبة الله — حتى ولو أدى ذلك إلى إنكار وحدته — أبعد عن الصواب من محاولة إيريناوس Arenaeus[١] تبرير الرأى القائل بتطابق « الخالق » مع « الفادى »[٢] حتى ولو أدى به ذلك إلى القول بتطابق مظهرين لتجلى الربوبية[٣] ؛ لا يتأتى — من الناحية المعنوية — التوفيق بينهما من وجهة النظر البشرية .

وفضلا عن ذلك ؛ فلقد حقق العلم الغربى الحديث — بصورة مذهلة — بينة التجربة — المسيحية عن صدق التناقض المنطقى والمعنوى . فإن المجهود الذى بُذل فى سبيل محاولة التوفيق بين مظهرين لتجلى الله ؛ لا يتأتى التوفيق بينهما — وهو ما أرّق ألباب القديسيين والباحثين — قد أعلنت أكثر من مدرسة من المدارس المحدثة فى علم النفس فى الغرب » بأنه قد أرّق بالفعل النفس اللاشعورية فى غمار صراع سالف ، أدى — منذ البداية — إلى تكوين الشخصية الأدبية لكل من قديس وباحث المستقبل » فى مرحلة الطفولة المبكر » شغلت فيه « أم » الطفل الوليد ، المكان المستقبل للإله فى عالم النفس :

---

(١) إيريناوس — القديس إيريناوس ١٢٠ — ٢٠٢ ميلادية » كان أسقف مدينة ليون فى نهاية القرن الثانى الميلادى . ويرجع أصله إلى أزمير بآسيا الصغرى . وقد بذل جهوداً صادقة لتحويل فرنسا الوثنية إلى المسيحية . وقد توسط فى تسوية الخلاف الناشب بين كنيسة روما وكنائس آسيا الصغرى بشأن تحديد مواعيد عيد الفصح . (المترجم)

(٦) الفادى — فى المسيحية — هو السيد المسيح عليه السلام . (المترجم)

(٧) يقصد الأستاذ المؤلف بمظهرى تجلى الربوبية » الأب والابن فى العقيدة المسيحية . (المترجم)

« عند ما يبدأ الرضيع . . . مبكرا . . . خلال السنة الثانية من حياته بعد مولده . . فى تحديد فارق بين ذاته وبين الحقيقة الخارجية ، تقف الأم ممثلة للعالم الخارجى ، وواسطة لنقل مؤثراته إلى الطفل . بيد أنها تظهر أمام وعيه النامى فى مظهرين متعارضين :

« فإنها موضع حب الطفل ، وهى مصدر راحته وأمنه وهدوئه » .

لكنها — كذلك — تمثل السلطة . فإنها المصدر الأساسى للسلطة المفروضة عليه بطريقة خفية ، والتى تعترض — بتعنت — طائفة من الدوافع التى عن طريقها ، تشق حياته الجديدة طريقها إلى العالم الخارجى . ويولّد لدى الطفل ما تلاقيه دوافع الطفولة من كبت ، مشاعر الغضب والكراهية والرغبات الهدّامة — أى ما يطلق عليه علماء النفس عامة (العدوان) — موجهة ضد السلطة التى تعترض طريقه . بيد أن هذه السلطة البغيضة ، هى كذلك الأم الحبيبة . ومن ثم يجابه الطفل صراعه الأول . فثمة مجموعتان من الدوافع لا يمكن التوفيق بينهما ، تتجهان صوب الهدف نفسه . وهذا الهدف هو مركز العالم المحيط بالطفل »[١] .

وهكذا ، طبقا لإحدى نظريات علم النفس ، فإن الصراع المعنوى الذى يتخذ سبيله داخل الشعور الواعى عند ما يبلغ الإنسان مرتبة الرشد والنضج ، يُلحظ لاشعوريا فى الطفولة المبكرة . هذا ، وفى الصراع الذى يجرى فى إبان الطفولة — كما فى مرحلة البلوغ — يتقاضى الفوز الروحى ثمنا روحيا . إذ تقهر المحبة البدائية ، الكراهية عن طريق تحميلها عبء الخطيئة الأولى[٢] . وبهذا يؤيد علم النفس ، الكشف الإيرينى[٣] المسيحى المناهض

---

(١) صفحة ١٠٧ Huxley, J. : Evolutionary Ethics : The Romanees Lectures, 1943 ; reprinted in Huxeley, T. H. and y : Evolution and Ethics 1843-1943 London Pilot Press.

(٢) صفحة ١١٠ من المرجع السابق .

(٣) نسبة إلى القديس إيريناوس (المترجم)

لفكرة مارسيون السالفة الذكر وهو أن الحب والكراهيـــة والاستقامة والخطيئة ، يتصل أحدهما بالآخر – اتصالا لا يُفصم – عن طريق سلسلة الخلق :

« من غير ألم ، لا يتركز حب قوى على هدف شخصى . وبانتفاء مثل هذا الحب لا صراع بين تأثيرات لا يتأتى التوفيق بينها ، ولا خطيئة ؛ وبانعدام مثل هذه الخطيئة لا يوجد الإدراك المعنوى الفعّال »[١] .

---

(١) المرجع السابق .



الباب الثاني عشر

طوالع الحضارة الغربية



الفصل التاسع والثلاثون

الحاجة إلى هذا البحث

انتاب كاتب هذه الدراسة – وقتما تناول قلمه لتحرير هذا الجزء الحالي – نفور من هذا العبء الذي فرضه على نفسه فرضاً ، وهو إحساس يتجاوز النفور الطبيعي من المجازفة بالبحث في موضوع يقوم على النظر والتأمل ،

فلا شبهة في أن تنبوءات قيلت في عام ١٩٥٠ ، قد تكذبها الأحداث ، قبل أن يجد مخطوط هذا الكتاب طريقه إلى المطبعة ودور النشر ، بزمن طويل . على أن خشية المؤلف من أن يعرّض نفسه للسخرية – وهي التي كانت تحكم تصرفات عقله – هذه الخشية « قمينة بأن تصرفه عن التفكير في كتابة أي جزء من هذه الدراسة . وإذ قد أخذ على نفسه كتابة القسم الثاني عشر من كتابه » بعد أن أودع القدر فعلا « إحدى عشرة رهينة »[1] فلعله يستمد الشجاعة مما تعكسه الاحتمالات التي تنتظر الحضارة الغربية . وهي احتمالات كانت على أية حال – عام ١٩٥٠ – أقل قتامة مما كانت عليه وقتما بدأ المؤلف يعدّ – في الأشهر الأولى من عام ١٩٢٩ – مسودّة المذكرات الأصلية لإعداد هذا الجزء ، الذي هو الآن بين يديه .

إذ أن الكساد الهائل الذي كان يوشك أن يبدأ – بكل ما كان يحمله من عواقب بما فيها نشوب الحرب العالمية الثانية ، قد قضى قضاء تاما – قبل أن يحل عام ١٩٥٠ بوقت طويل – على الوهم الذي ساد العالم قبل عام ١٩٢٩ ، بأن الأمور لم تتغير كثيراً عما كانت عليه قبل سنة ١٩١٤ ؛

---

(١) يشير المؤلف إلى الأحد عشر قسماً السابقة .

وعلى هذا ، فإن نفور المؤلف من معالجة موضوع هذا الجزء من الكتاب « جدير بأن يخفف منه كثيرا » مرور هذين العقدين الباهرين من السنين . هذا إذا كان هذا النفور مجرد تحرّج عن الخوض فى غيابات التكهن : على أن هذا النفور لا يتصل – عن قريب أو عن بعيد – بصعوبة تقدير « طوالع الحضارة الغربية » ، أو ما يُخبئه لها المستقبل بين طياته . ولكن يكمُن الباعث الحقيقى « فى خشية المؤلف من أن يتخلى عن أحد المبادئ الأساسية التى تحكم مناهجه فى دراسة التاريخ .

ولقد كان يزعج الكاتب « خوفه من أن يصبح عُرضة للتخلى عن موقف اعتقد أن منه – وحده – يستطيع أن يرى – فى شمول صادق – كل تاريخ نوع من المجتمع ، ليست الحضارة الغربية إلا أحد ممثليه . وفى رأيه ، أن قد عززت إيمانه بصواب هذا الموقف غير الغربى ، النتائج التى أسفرت عنها أحداث هذين العقدين من السنين اللذين أمضاهما البشر وهم يحاولون قراءة خارطة التاريخ من زاوية غير غربية .

ومن الحوافز التى دفعت الكاتب دفعاً إلى ولوج هذه الدراسة ، ثورته ضد ما اصطلح عليه الناس وشاع فى الغرب حديثاً ، وهو : إعتبار تاريخ المجتمع الغربى كأنه « التاريخ » بصفة عامة . وقد بدا للمؤلف أن هـــذا الاصطلاح نشأ عن وهم التركيز على « الذات » . وهو وهم وقع فيه أبناء الحضارة الغربية مثلما تردى فيه – من قبل – أبناء الحضارات المعروفة والجماعات البدائية الأخرى[1]. ولعل خير وسيلة للتخلص من فكرة التركيز

---

(١) عندما كان المستر سومرفيل صاحب هـذا المختصر لدراسة التاريخ يقيم خلال عام ١٩٣٥ على منحدر جبل كليمنجارو ، نما إلى علمه سبب نشوب الحرب العالمية الأولى « كما تفهمه قبيلة تشاجا التى تعيش على الجانب الجنوبى من هذا الجبل :

« كان الدكتور هانز ماير الألمانى هو أول من تسلّق جبل كليمنجارو عام ١٨٨٩ . فلما بلغ القمة ، ألفى هناك إله الجبل الذى أعرب عن إمتنانه للمنة التى لم يحظ بها من قبل ؛ بمنحه =

على الذات ، تتمثل فى تبنّى الفكرة المضادة القائلة بتساوى جميع ممثلى أى نوع من المجتمع — من الناحية الفلسفية — مع بعضهم بعضاً :

ولقد تبنى الكاتب هذه الفكرة المضادة ، فكان أن بدا له من خلال الأجزاء الستة الأولى من هذه الدراسة ، ما يؤيد إيمانه بها ؛ وفى الجزء السابع ؛ رأى الكاتب أن الحضارات غير متكافئة فى قيمتها ؛ فى ضوء مبحث يقوم على الدور الذى يلعبه إنهيار الحضــارات وتحللاتها ، فى تاريخ العقيدة الدينية :

بيد أن هذه الدراسة ، لم تسفر — مع ذلك — عن التفخيم من شأن الحضارة الغربية من جديد . فإن البحث قد أسفر — على العكس — أن تحضارات الجيل الثانى وهى الحضارات : السورية والسندية والهلينية والصينية ، كانت هى من أبرز الحضارات من وجهة نظر الباحث الذى يرى أن سير التاريخ إنما يقوم على النمو المطرد فى تزويد نفوس البشر — فى هذه الحياة الدنيا — بإمكانيات روحية :

وإذا كان إعتناق الكاتب وجهة النظر هذه ، قد عزز إحجامه الأول عن تخصيص مبحث خاص للحضارة الغربية ، إلا أنه بتقريره عام ١٩٥٠ التزام نهج وضعه خلال سنوات ١٩٢٧/٢٩ ، إنما كان يخضع للضرورة المنطقية التى

= الألمانى متسلق الجبل ومواطنية كافة بلاد تشاجا . واشترط إله الجبل شرطاً واحداً هو أن يقوم أحد مواطنى هذا الرجل الألمانى كل سنة (ولعلها خمس سنوات) بتسلّق الجبل تحية وولاء . وسارت الأمور على ما يرام ، واحتل الألمان شرق أفريقية الألمانية ، حتى عام ١٩١٤ . لكن الألمان فى عام ١٩١٤ ؛ تقاعسوا عن تأدية هذا الواجب . فكان أن غضب إله الجبل فسحب عطيته ومنح البلاد إلى أعداء الألمان الذين أعلنوا الحرب عليهم وطردوهم منها . إن هذه الحرب الإنجليزية الألمانية فى قلب أفريقيا الشرقية قد جلبت معها مصادفة — كما يحدث عادة إبان الحروب — دورات حروب ثانوية فى مناطق بعيدة ليست لها أهمية خاصة . ويبدو تفسير قبيلة تشاجا لهزيمة الألمان معقولا مثل تفسيرات كثيرة أخرى عنها . وفى الحق ؛ يعتبر المستر سومر فيل التفسير خيراً من تفسيرات كثيرة أخرى ، من ناحية أنها تعترف بأهمية الدور الذى يلعبه الدين فى مجريات التاريخ .

تطلبتها ثلاث حقائق لم تفقد شيئاً من وجاهتها خلال السنوات التى فصلت بين ١٩٥٠ و ٢٩/١٩٢٧ .

الحقيقة الأولى — أن الحضارة الغربية كانت خلال الربع الثانى من القرن للعشرين المسيحى ؛ هى تمثل نوعها الوحيد البارز ، الذى لم يُظهر علامات قاطعة على التحلل . فإن من بين الحضارات السبع الأخرى ؛ كان ثمة خمس حضارات هى : المسيحية الأرثوذكسية وفرعها الروسى ، والكيان الأساسى لحضارة الشرق الأقصى وفرعه الكورى اليابانى ، والحضارة الهندية ؛ لم يقتصر الأمر على أنها مرّت بمرحلة الدولة العالمية ، بل تجاوزتها . أما بحث تاريخ الحضارة الإسلامية (الإيرانية العربية) ، فقد أثبت بالدليل القاطع أن هذين المجتمعين قد انهارا كذلك .

ومن ثم ؛ لعل المجتمع الغربى هو المجتمع الوحيد الذى كان فى هذه السنوات (١٩٢٧ — ١٩٥٠) لا يزال فى مرحلة الارتقاء ؛

الحقيقة الثانية — أن توسّع المجتمع للغربى وإشعاع الثقافة الغربية؛ قد وضع جميع الحضارات الأخرى الباقية وجميع المجتمعات البدائية الباقية ، فى نطاق إطار عالمى شامل ، يصطبغ بالصبغة الغربية .

الحقيقة الثالثة — وهى حقيقة مزعجة تجعل من الاستقصاء أمراً لازماً ؛ ومدارها أن جميع مصائر الجنس البشرى بأسره قد جُمعت لأول مرة فى تاريخه فى موضع نفيس لكنه غير مستقر ، كما لو أنه بيض جُمع فى سلة واحدة :

انقضت الأيام . عندما كان الجنون تحصره

البحار أو الهضاب ؛ من الانتشار بين الجنس البشرى :

وقلما كانت الحكمة تسيطر فى سكينة مطمئنة ؛

رغماً عن حمق نيرون وهو يعزف على أوتار عوده ،

وكان الرب يبتسم من خلال طلعة البوذا ، مرحباً .

رغماً عن تبشير كالفين فى جنيف بالإيمان ؟
لأن أرضنا المتصلة بعضها ببعض قد انكمشت حتى غدت صفحة ؟
ويعنى وجود هتلر واحد فيها ، الجنون للجميع .
وكل موجة من قلق تنتشر فى أنحاء العالم
وتجزع ايبوه من الحرب التى تلوح بها أيبسدين[1] .

وفى حرب عالمية ثالثة تُستخدم فيها الأسلحة النووية والبكتريولوجية ، يبدو أمراً بعيداً عن الاحتمال « أن يغفل ملاك الموت حتى عن هذه الزوايا والأركان من مواضع سكنى الإنسان . تلك المواضع التى كانت حتى وقت حديث : إما غير مرغوب فيها بالمرة ، أو صعبة المنال ، أو تتوافر لها هاتان الصفتان . وكانت بحالتها ؛ تهىء لقاطنيها الفقراء الضعاف المتأخرين ، مناعة أصيلة ضد الاهتمام الذى لا يرحب به أحد من جانب العسكريين « المتحضرين » !!

ولقد عرض الكاتب فى حديث ألقاه بجامعة برنستون قبل إنقضاء ثلاثة أسابيع على إعلان مبدأ ترومان بتقديم المساعدة الأمريكية لليونان وتركيا ضد الضغط الروسى (١٢ مارس سنة ١٩٤٧) ؛ عرض فكرة مرّت بخياله مدارها أن العالم المتأثر بالثقافة الغربية ، لو سمح لنفسه بالتردّى فى حرب عالمية ثالثة ؛ لترتب على ذلك بعث أسطورة من أساطير أفلاطون إلى الوجود فعلا : تخيّل فيها الفيلسوف الأثينى رعاة الجبال ينحدرون من حصونهم ـ الفينة بعد الفينة ـ ليقيموا حضارة جديدة على الموقع الخاوى لحضارة قديمة بادت فى نهاية طائفة من الجائحات ألمّت بتلك الحضارة بصفة دورية .

---

(١) Skinner, Martyn : Letters to Malaya I & II (London 194).
ايبوه وايبسدين : مدينتان فى الملايو . (المترجم)

ويعني هذا – في تصور نفسى لا شعورية جماعية – أن الرعاة يرمزون إلى الطاقات البشرية البدائية السليمة المدّخرة لإنجاز الإبداع الذى ما يزال الرب يحتفظ به ذخيرة .

وإن الحضارة تعتبر أكثر الأعمال البشرية الحديثة حداثة ، ولعلها أشد ما أنجزه البشر خطورة . فإن أصاب الإنسان المتحضر الشجن خلال عملية تحضّره ، فلعله يعتمد دائماً – كلما أعوزه الأمر – على الاستقاء من القوة الاحتياطية التي ما تزال كامنة في إخوته البدائيين ، الذين لفظهم من تلك المناطق المنتقاة من الأرض التي استأثر بها لسلطانه . فباتوا « يهيمون على وجوههم في الصحارى والجبال ، مرتدين جلود الماعز والأغنام » . ولقد طفقت البقية الحيّة من أبناء هابيل الأبرياء – نسبياً – يهيلون فحمات النار على رؤوس أبناء « قاين » ، وذلك بقدومهم لنصرة قاتليهم وقتما فضحت الخطايا أبناء « قاين » . ومصداقاً لذلك ؛ نجد راعياً من آسكرا Ascara[1] – على سفح جبل هليكون – ينطق بتقدمة مأساة التاريخ الهليني ؛ ورعاة من النقب على مشارف صحراء العرب « يقفون في بيت لحم إلى جانب مهد المسيحية .

ولقد ذهب المؤلف عام ١٩٤٧ في دعايته الأفلاطونية السالفة الذكر إلى أنه إذا كان قد قدر على الحضارة الغربية التي ينتمي إليها هو وسامعوه ؛ أن تبتلى بكارثة شاملة ؛ فلعل عبء إعادة السير في طريق التحضّر لكفالة استمرار جهد ثقافي ظل قائما طوال خمسة أو ستة آلاف سنة الأخيرة ، يقع على كاهل أهالي التيبت الذين ظلوا محتمين حتى الآن وراء هضبتهم . أو لعله يقع على كاهل الاسكيمو الذين ما يزالون حتى الآن ؛ يستكنون مسترخين أمام عواصف ثلجية هي بالنسبة لهم « أقل حقداً من أى نوع من أنواع البشر .

---

(١) موطن هسيود – الشاعر . (المترجم)

وفى خلال ثلاثة أعوام ونصف عام إنقضت منذ إلقاء ذلك الخطاب وكتابة هذه الأسطر فى الأرباض الهادئة لنفس المدينة الجامعية ؛ دهم سير الأحداث التاريخية ، هذه الأخيلة ودهسها . فى لحظة كتابة هذه السطور فى ديسمبر ١٩٥٠ ، أذيع أن تجريدة صينية شيوعية فى طريقها للاستيلاء على مدينة لهاسا[١] . فى حين أن الاسكيمو الذين كانوا سعداء فيما مضى لأنه ما من عدو أو صديق لهم عدا الطبيعة المادية ؛ قد ألفوا أنفسهم قابعين فى الجزء المطروق من طريق قذف القنابل عبر المناطق القطبية بين حوضى الفولجا والمسيسبى ، وفى بطن أرض طريق الغزو عبر الطرف الثلجى لمضيق بهرنج من الموطن المنعزل للسكان المقيمين فى الطرف الشمالى الشرقى لروسيا الأسيوية حتى الاسكا ؛ أصبحت روسيا تنفصل عن الجسم الرئيسى لقارة الولايات المتحدة بمجرد « ممر بولندى » من أراضى كندا[٢] .

وهكذا أصبح المجتمع الغربى المنتشر فى أصقاع المعمورة ، يمسك الآن بيديه مقادير البشرية بأسرها فى لحظة يقع فيها مصير الغرب نفسه على طرف أصبع رجل واحد فى موسكو وآخر فى واشنجتون ، فى وسعهما بالضغط على زر أن يفجّرا قنبلة ذرية .

وبعد ؛ تلك هى الوقائع التى دفعت الكاتب أن يسجّل — وهو كاره — عام ١٩٥٠ ميلادية « النتيجة التى وصل إليها — وهو كاره — عام ١٩٢٩ . نتيجة قوامها أن بحثا فى مصائر الحضارة الغربية ، هو جزء ضرورى من دراسة تاريخية تكتب فى القرن العشرين .

---

(١) لهاسا : عاصمة التيبت . وقد سيطرت الصين الشعبية عليها الأمر الذى أصبح يعكّر صفو العلاقات بين الصين الشعبية والهند . إذ كانت الهند ترغب فى جعل التيبت دولة حاجزة بينها وبين الصين . (المترجم) .

(٢) يشبه المؤلف هنا ألاسكا التى أصبحت فيما بعد الولاية ٤٩ من الولايات المتحدة الأمريكية بروسيا الشرقية ، والأراضى الكندية بدانتزج . (المترجم)

الفصل الأربعون

قصور الردود الأولية

تُرى ما هو المصير الذى كان ينتظر المجتمع الغربى فى عام ١٩٥٥ ؟

أول ما يحتمل تبادره إلى ذهن دارس التاريخ ، بتخمين تقدير إحتمالات الحياة فى الغرب ؛ حين يضع نصب عينيه — عند تقديره — سخاء الطبيعة الواضح للعيان . فما الحضارة الغربية — قبل كل شيء — إلا حضارة من نفس النوع الحضارى الذى لا يجاوز عدده الواحد والعشرين .

وبالأحرى ؛ هل يتوقع منطقيا ، أن تفلت الحضارة الحادية والعشرون من المصير الذى تردت فيه الحضارات الأخرى السالفة ؟

لو أخذنا فى الاعتبار عدد مرات الفشل الذى كان بمثابة الثمن الفادح الذى اقتضاه توفيق كل حضارة فى تطوير الحياة على سطح الأرض فى التاريخ البعيد ؛ لظهر أنه من غير المحتمل أن أية حضارة من حضارات الجيل الثالث — وهى من نوع حضارى لا يزال فى عنفوان شبابه — تستطيع أن تكرّس نفسها للبحث عن طريق — لم يُطرق من قبل — لتمضى الحياة وتزكو دون قيْد أو حدّ ، أو لخلق جنين يتولد فيه نوع جديد من أنواع المجتمعات .

ونلاحظ على هذا الاستدلال ، أنه مستنبط من تجارب الحياة فى المستوى السابق لظهور البشرية . وقد يكون من الحق أن الطبيعة — وقتما أخذت على عاتقها تطوير الكائنات البدائية — كانت قادرة على صياغة ملايين من الأنواع ، حتى تتيح لنفسها فرصة بعيدة المدى لإبراز نوع جديد أسمى . فلا شبهة — والحالة هذه — أن العشرين نوعا من الحضارات ، وهى جُمّاع ما أسفر عنه فى خاتمة المطاف تطور النباتات والحشرات والأسماك وما إلى ذلك ؛ يعتبر

عدداً فى مجال الطبيعة ، ضئيل ضآلة تثير الضحك . لكن من الناحية الأخرى ؛ لا مبرر الافتراض بأن قواعد التطور التى لا معدى عن توافرها للكائنات الحيوانية أو النباتية ، ينبغى حتما أن تكون صالحة للتطبيق على أنواع تغاير تلك الكائنات تماما ؛ أنواع مثل المجتمعات البشرية الآخذة بأساليب الحضارة .

والحق ؛ إن الاحتجاج بوفرة الطبيعة ، لا يقوم — فى هذا البحث — على أساس . وإننا ما أثرناه هنا ، إلا لنستبعده .

عندئذ ؛ يتبقى أمامنا — رداً على أسئلتنا — ردان أوّليان priori ، مثيران — ولكن يتسمان بتناقضهما التام — ، يجب إمعان الفكر فيهما ، قبل أن نمضى قُدماً فى بحث الأدلة المستقاة من الحضارات نفسها . وجدير بالذكر أن كاتب هذه الدراسة (وقد ولد عام ١٨٨٩) عاش ليرى العالم الغربى ينكفئ من أحد هذين الإحساسين إلى الآخر :

فأحد الإحساسين ؛ يتجلى فى نظرة أبناء الطبقة الوسطى البريطانية فى نهاية القرن التاسع عشر إلى الأمور . وخير ما يمثل هذه النظرة ؛ الفقرة التالية المقتبسة من عبارة كتبها معلّمان حاكيا فيها — بأسلوب ساخر — أفكار تلميذ عن التاريخ ، كما دونها فى أوراق امتحانه تحت عنوان « ١٠٦٦ وكل ذلك » :

« بلغ التاريخ الآن أجله فأصبح هذا التاريخ أمراً نهائيا » .

ولقد شارك المنتصرون الألمان والأمريكيون فى آخر دورات الحرب الأوربية الحديثة ، تلك النظرة التى اعتنقتها الطبقة المتوسطة الإنجليزية فى أواخر القرن التاسع عشر . ولم يكن الشك قد أخذ يتطرق إلى أذهان أولئك الذين أفادوا من الأحوال التى سادت عقب الحرب العامة ١٧٩٢ — ١٨١٥ (مثلهم فى ذلك مثل إخوانهم الإنجليز) فى أن العصر الحديث من تاريخ الغرب لم يولّ إلا ليبدأ عصر آخر « بعد الحديث » منفرداً بتجارب مفجعة .

إذ كانوا يتصورون — لمنفعتهم — إن الحياة التي يحيونها — حياة الأمن والدعة والرضا — قد بلغت — بمعجزة — حالة من الاستقرار ستدوم أبد الآبدين . ومن ذلك : أن شعوراً بـ « اللانهاية » قد بدا أنه ساد طوال الستين عاما التي عاشها العصر الفيكتوري فى إنجلترا : هذا على الرغم من أن فحصا عابرا للصور التي عرضت فى اليوبيل الماسى للملكة ، يظهرا تغيراً سريعا فى جميع نواحى الحياة إبتداء من الأساليب التكنية ، حتى أزياء الناس .

ولقد كان المحافظون من أهل الطبقة الوسطى الإنجليزية الذين أقبل من أجلهم عصر الهناءة والازدهار الطويل الأجل[١] ، كما كان الأحرار من الطبقة الوسطى الانجليزية الذين عاشوا على هامشه ؛ كانوا جميعاً مدركين — طبعاً — أن حصة الطبقة العاملة الإنجليزية من الرخاء الذى تنعم به الطبقة الوسطى ، ضئيلة إلى حد مذهل . كما تبين لهم أن الرعايا البريطانيين فى معظم المستعمرات والأملاك التابعة للمملكة المتحدة ، لا ينعمون بالحكم الذاتي الذى كان ميزة يتمتع بها رفاقهم من الرعايا البريطانيين القاطنين فى المملكة المتحدة وفى بعض أملاك التاج البريطانى ؛ بيد أن المحافظين دأبوا على إسقاط هذا التفاوت من حسابهم ؛ باعتباره أمراً لا معدى عنه . أما الأحرار . فكانوا يعتبرونه أمراً قابلا للإصلاح .

والمثل يقال عن معاصرى الإنجليز من الأمم الأخرى ، فى هذه الحقبة من الزمن :

فكان مواطنو شمال الولايات المتحدة مدركين بالمثل بأن رفاقهم من مواطنى الجنوب لا يشاركونهم رخاءهم الاقتصادى .

كذلك أدرك رعايا الرايخ الألمانى بأن سكان « أرض الرايخ » الذين

---

(١) فى الأصل : العصر الألفى — وهو عصر يستمر ألف سنة ، ويحكمه السيد المسيح وفقاً للمسيحية ، ويسود العالم — خلاله — (الرخاء والاستقرار والدعة) . (المترجم)

ضُمّوا إليه من فرنسا « ما يزالون فرنسيين بقلوبهم ، وأن بقية الأمة الفرنسية لا تسلّم ببتر المقاطعتين المتنازل عنهما . فالواقع ، لبثت أفكار الانتقام تراود أذهان الفرنسيين ، وطفق سكان الألزاس واللورين الخاضعتين لألمانيا ، يحلمون بأن يتحقق يوماً ما نفس حلم التحرر الذى كان يطوف بأذهان السكان الخاضعين فى شلزويج وبولندا ومقدونيا وإيرلندا .

ولم تكن مثل هذه الشعوب لتسلّم بالمذهب الوادع المريح القائل بأن « التاريخ قد بلغ غايته » . بيد أن ثقتهم التى لا تتزعزع فى أن النظام الذى فُرض عليهم ، سوف يجرفه — عاجلا أم آجلا — تيار الزمن المتدفق أبداً ؛ هذه الثقة الشعبية ، لم يكن لها أبداً كبير أثر على الأخيلة البليدة لمندوبى الدول المسيطرة ، وقتذاك .

وبالأحرى ، فى وسعنا أن نقرر مطمئنين ، أنه فى عام ١٨٩٧ ميلادية ، لم يكن ثمة أحد — رجلا كان أو امرأة — حتى من بين أعنف المبشرين بالثورة الوطنية أو الاشتراكية — يحلم بأن المطالبة بمبدأ تقرير المصير سوف تمزّق إمبراطوريات : هابسبرج وهو هنزلرن ورومانوف والمملكة المتحدة لبريطانيا وإيرلندا ، فى غضون الخمسة والعشرين سنة التالية . ولم يُتصور قط أن المطالبة بالديمقراطية الاجتماعية سوف تنتشر من طبقة عاملة نضج وعيها مبكراً فى مدن طائفة قليلة من المقاطعات الصناعية فى الغرب « إلى فلاحى المكسيك والصين . وكان غاندى (الذى ولد عام ١٨٦٩ م) ولينين (الذى ولد عام ١٨٧٠ م) ما يزالان إسمين مجهولين .

وما كانت كلمة « الشيوعية » لتعنى سوى حدَث باهت قصير تافه من أحداث الماضى التى نزلت بفرنسا عقب الكارثة التى نزلت بها فى حرب السبعين . واعتُبر هذا الحدَث — وقتذاك — آخر ما لفظه بركان « التاريخ » بعد أن هدأت ثورته وخمدت نيرانه .

ولم يكن ثمة خوف من تجدد إشتعال نارأمكن إخمادها مدى ربع قرن ، بتأثير الخطة المهدئة التي سارت عليها الطبقة البورجوازية فى فرنسا ، على عهد الجمهورية الثالثة .

ولم يكن ذلك التفاؤل الرضيّ الذى إعتنقته الطبقة المتوسطة أيام الاحتفال باليوبيل الماسى ، بالشىء الجديد للملكة فيكتوريا . وإذ نراه شائعاً قبل ذلك بمائة عام ، تلك هى الأيام المجيدة التى عاش فيها المؤرخ « جيبون » وألقى فيها « تيرجو »[1] فى السوربون عام ١٧٥٠ م « الخطاب الثانى » ، تحت عنوان « المنافع التى حققتها المسيحية للجنس البشرى » .

فى وسعنا أن نستشف نزعة التفاؤل هذه ، قبل ذلك بمائة عام أخرى ، معمثلة فى الملاحظات العابره التى أبداها « بيبس Pepys »[2] . فهذا الكاتب الساخر — صاحب اليوميات الأريب — كشف عن صعود فى « مقياس الضغط » السياسى والاقتصادى . فكان من رأيه أن أحداث عام ١٦٤٩ وما إليها — وتتضمن مذبحة سان بارتولوميو[3] وديوان التفتيش الأسبانى[4] — أصبحت أشياء تمتّ إلى الماضى . وحقا ، يعتبر الجيل الذى

---

(١) تيرجو Turgot (١٧٢٧ – ٨١) : سياسى واقتصادى فرنسى . رنا طوال حياته العامة إلى تحرير الفلاحين الفرنسيين من استبداد الأرستقراطية . لكنه لم ينجح ، إذ خضع الملك لويس السادس عشر لضغط النبلاء فطرد تيرجو من منصبه . وله طائفة من المؤلفات الاقتصادية والأدبية . (المترجم)

(٢) صمويل بيبس (١٦٢٣ – ١٧٠٣) : صاحب يوميات إنجليزى . كتب مذكرات تعتبر أهم المراجع عن عصر النهضة . (المترجم)

(٣) مذبحة سان بارتولوميو : جرت فى باريس فى ٢٤ أغسطس عام ١٥٧٢ . وقتل فيها عدد ضخم من الهيجونوت (بروتستانت فرنسا) . وكانت بداية ابتئصال هذا العنصر من فرنسا . وتمت هذه المذابح بأمر من الملكة كاترين دى مديشى . (المترجم)

(٤) محاكم التفتيش : تألفت محاكم التفتيش بناء على توصية أصدرها المجلس الدينى المنعقد فى تولوز عام ١٢٢٩ . وأصدر البابا جريجورى التاسع قراره بتنظيمها . وكانت الغاية من إقامتها بحث أحوال المتهمين بالهرطقة والخروج على قواعد المسيحية كما كانت تفهمها الكنيسة فى هذا الوقت . وانتشرت هذه المحاكم فى أسبانيا والبرتغال وإيطاليا وفرنسا . إلا أنها =

عاش فيه « بيبس » بداية العصر الحديث المتأخر ، الذى هو أحد الصور الكبرى التى عمّ فيها الإيمان بالتقدم والكمال البشرى . فقبل عصر « بيبس » بجيلين ، نرى « لبياً » جلجل صوته بهذا التفاؤل ، ألا وهو فرنسيس باكون[1] :

وهذا « الإيمان » الذى عاش ثلاثمئة عام ، لقى نهايته فى ظروف شاقة ، بعد عشر سنوات إنقضت على الضربة القاصمة التى أصابته فى سنة ١٩١٤ . ونستشف ذلك فى خطاب ألقاه مؤرخ ممتاز ، وأحد موظفى الدولة هو السير هيدلام مورلى (١٨٦٣ – ١٩٢٩) :

« فى تحليلنا لهذه الثقافة « الغربية » ، أول حقيقة نلاحظها هى أنه وإن كان هناك بلا ريب تاريخ مشترك وحضارة مشتركة لجميع أوربا الغربية ، فإن شعوبها لم تنخرط فى أى اتحاد سياسى رسمى ، كما لم تخضع تلك البلاد – فى أى وقت – لحكومة واحدة مشتركة . ولقد بدا وقتا ما ؛ كما لو أن شارلمان سيسيطر على المنطقة بأسرها ، إلا أن هذا الأمل – كما نعلم – قد تبدد : إذ فشلت محاولته لتكوين إمبراطورية جديدة ، كما فشلت جميع المحاولات التى تلتها . ومن وقت لآخر ؛ تجددت محاولات قامت بها الإمبراطورية بعد ذلك ، أو قام بها حكام إسبانيا وفرنسا لتوحيد أوروبا الغربية بأسرها فى دولة – أو إمبراطورية – واحدة كبرى . بيد أننا فى كل مرة ؛ نرى

= ترعرعت خاصة فى إسبانيا حيث انحصر عملها فى محاكمة المشتبه فى مسيحيتهم من المرتدين من المسلمين واليهود . وظلت هذه المحاكم تمارس عملها البغيض حتى صدور قانون ١٨٣٤ الذى ألغاها رسمياً . (المترجم)

(١) فرنسيس باكون (١٥٦١ – ١٦٢٨) ، فيلسوف إنجليزى . له طائفة من المؤلفات التى تنمّ عن عبقرية فذّة ، أشهرها مؤلفه « الطريقة الجديدة للكشف العلمى » ثم كتاب « البعث العظيم » . وكان لنبوغه وتعدد جوانب ثقافته ، أثر كبير فى نشره نظرية أنه هو المؤلف الأصلى لكل ما ينسب إلى شكسبير من أعمال . (المترجم)

نفس الشيء : إستثارة الوطنية الإقليمية ، والاستعانة بالحرية الفردية لإلهاب شعور المقاومة الذى يحطّم جهود كل فاتح . وهكذا فإن ثمة طابعا أزلياً تتميز به أوروبا ، ينعته النقاد بالفوضى . ذلك لأن إنتفاء الحكم المشترك ، يغذى الصراع والعراك والحرب والفتنة التى لا تنقطع — بين الوحدات الحكومية المتناقضة التى تنازع إحداها الأخرى فى سبيل السيطرة والاستحواذ على الأرض » .

« وتلك حالة تُثير الألم الشديد عند الكثيرين . لأنها تنطوى — بلاريب — على تبديد طاقات ضخمة ، وتدمير الثروة وخسارة عظمى فى الأرواح فى بعض الأحيان . لهذا نرى كثيرين يؤثرون قيام حكومة مشتركة تشيّد تدريجيا ؛ وهم يوازنون بين تاريخ أوربا وتاريخ الإمبراطورية الرومانية ؛ أو يوازنون حاليا بين تاريخ أوروبا وتاريخ الولايات المتحدة الأمريكية ، ويخرجون من هذه الموازنة بنتيجة ليست فى صالح التاريخ الأوربى ، وإن الكثيرين ليتوقون — منذ أيام دانتى وما بعده — إلى قيام حكومة نظامية ، لعلها تعكس المشيئة الإلهية وتكون أداتها . وطالما سمعنا من يقول « إذا كان الإنجليز والإيطاليون والبولنديون والروتينيون والألمان والسكندنافيون يعيشون على تربة أمريكا جنبا إلى جنب سالمين راضين ، فماذا يمنعهم من أن يفعلوا ذلك فى مواطنهم الأصلية ؟

« إننى لا أقف اليوم لأناقش المُثُل العُليا للمستقبل . إننا نُعنى بالماضى . وكل ما ينبغى علينا أن نعمله هو ملاحظة حقيقة مدارها أن هذه الفوضى ، هذه الحرب ، وهذا الصراع ، هذا كله قد وُجد فى الوقت الذى بلغت فيه طاقات القارة ذروتها . ولنلاحظ كذلك أن طاقات عالم البحر الأبيض المتوسط — وتتمثل فى القوة الحيوية وفى الروح الفنية وفى الأصالة الثقافية — تبدو أنها تتحلل تدريجياً وبصورة منتظمة ، وأن بداية تحللها قد توافقت

مع إقامة حكومة مشتركة . أفلا يكون الاحتكاك والاضطراب – فى الحقيقة – لامجرد تدمير الطاقة ، ولكن يكون عاملا لتوليد تلك الطاقة »(١) .

وعجيب أن نسمع صوت جيبون المتفائل لايزال يتردد صداه فى إنجلترا ؛ وهو يسمع الآن بصوت مخيف لنذير غامض . على أنه ما إن حل عام ١٩٢٤ حتى شاع فى هذا العالم الغربى الذى برح به الألم « شعور مناقض تمثل فى قرارات تبحث فى دلالة إنهيار الحضارة الهلينية السابقة ، وسقوطها .

وقبل أن يلقى هيدلام مورلى خطابه بخمس سنوات ؛ أعلن بول فاليرى – بفصاحته المعهودة – أن جميع الحضارات مصيرها الفناء . كما قرر شبنجلر نفس الشىء فى العصر ذاته .

وأيا ما تكون الحال ؛ ففى وسعنا الآن أن نرى أن مذهب « التقدم » قام على بضعة من القضايا المنطقية الخاطئة .

ولكن هل يدفعنا التسليم بهـذه الحقيقة إلى تقبل مذهب « الهلاك الحتمى » ؟ .

مثل هذا القول مجرد إستدلال . لأن فى وسع المرء كذلك ، أن يجادل بالقول بأنه ما دام الإنسان قد تردى فى حمأة اليأس ، فلن يكون ثمة والحالة هذه طريق غيرها . إن تشاؤم فاليرى وتفاؤل جيبون – كلاهما – إخضاع الانفعالات للبحث العقلى ، تلك الانفعالات التى علقت – ظاهرا – بالحياة القصيرة التى عاشها كل منهما .

---

(١) J. W. Headlam-Morley : The Cultural Unity of Western Europe [illegible] the [illegible] Past and Other Essays [illegible] the Development of Civilization; edited by E. H. carter (Oxford 1925, Blackwell P.P. 68-89).

الفصل الحادى والأربعون
نحوى تاريخ الحضارات

(١) التجارب الغربية مع الحضارات الغير الغربية السابقة

حاولنا فى أجزاء سابقة من هذه الدراسة ، أن ننفذ ببصرنا إلى العوامل التى أدت إلى إنهيار الحضارات وإلى عملية تحللها ؛ وذلك باستعراض الوقائع التاريخية المتصلة بعمليتى الانهيار والتحلل . فكان أن أسفرت دراستنا لظاهرة إنهيار الحضارات ؛ على أن السبب فى كل حالة ، نوع من الإخفاق فى تقرير المصير . فإن مجتمعاً منهارا يُثبت – بلا ريب – أنه قد حرم حقه فى توجيه إرادته نحو تحقيق فعل نافع ؛ بتردّيه فى عبودية وثن من صُنع يديه .

فإن طبّقنا هذا الرأى على المجتمع الغربى ؛ ألفيناه يسلك خلال منتصف القرن العشرين المسيحى ؛ مسلك العاكف على عبادة بضعة من الأوثان ؛ إلا أن من بين هذه الأوثان ، ثمة وثناً سما فوق الأوثان الأخرى : هذا هو وثن الدولة الإقليمية .

ولهذه الظاهرة فى حياة الغرب فى عصر ما بعد الحديث ، دلالتها المزعجة ، من ناحيتين :

الأولى – أن هذا التأليه للدولة الإقليمية ، كان هو العقيدة الدينية الحقيقية للغالبية العظمى لسكان العالم الآخذ بأسباب الحضارة الغربية ؛ وإن لم يعترفوا بذلك صراحة .

الثانية – أن هذه العقيدة الباطلة ، هى السبب فى إنقضاء أجل ما لا يقل عن أربع عشر حضارة – وقد يكون عدتها ست عشرة – من الحضارات الإحدى والعشرين التى سجّلناها فيما سبق .

وحقاً ، ما برحت الحرب التى يقتل فيها الأخ أخاه ، وتزاد فيها أساليب العنف باطراد — وهذه الحرب نتيجة التعلّق بالدولة الإقليمية — هى إلى أبعـــد حد ، أكثر العوامل المشتركة لفناء حضارات ثلاثة أجيال بأسرها :

فنى الجيل الأول — كان فى تلك الحرب — بكل تأكيد — دمار الحضارتين السورية والأنديانية(١) . ولعلها كانت كذلك عامل دمار الحضارة المينووية .

وفى الجيل الثانى — تسببت فى دمار الحضارات البابلية والسندية والسورية والهلينية والمكسيكية والياكوتية(١) .

وفى الجيل الثالث — كانت هى عامل دمار الحضارة المسيحية الأرثوذكسية ، سواء فى وطنها الأصلى أو فى فرعها الروسى .

وكانت بالمثل عامل دمار حضارة الشرق الأقصى وفرعها اليابانى .

ودمّرت كذلك ، الحضارتين الهندية والإيرانية .

أما بالنسبة للحضارات الخمس الأخرى (باستثناء الحضارة الغربية) ، فقد نرى كذلك أن الحضارة الحيثية قد جلبت على نفسها الدمار ، بفعل حرب أهلية نشبت فى عقر دارها . وذلك قبل استكمال عدّتها لقتال عالم مصرى أصابه التحجّر . فانتهى المطاف بها إلى الاستسلام لهجرات بربرية وفدت عليها .

وأما الحضارة المايانية ، فلا تظهر — على ما نعلم — دليلا على نشوب حرب داخلية . ويبدو أن الحضارة المصرية وحضارة الشرق الأقصى فى الصين ، قد ضحيتا بحياتهما على مذبح وثن غير الدولة الإقليمية ، هو نظام عالمى يضم بيروقراطية طفيلية يطّرد نموها .

---

(١) الحضارات : الأنديانية والمكسيكية والياكوتية ، حضارات البحث فى أمريكا الوسطى وقد سبق الحديث عنها فى الفصل الأول من هذه الترجمة . (المترجم)

يتبقى بعد ذلك الأنموذج الوحيد الباقى وهو المجتمع العربى . وكان من المحتمل أن يلقى مصرعه تحت وطأة نظام بدوى دخيل طفيلى يجثم على عالم متحضّر غير بدوى . وهذا النظام البدوى ، ماثل فى سيطرة الأرقاء المماليك على مصر . فكان من المحتمل أن يلقى المجتمع العربى نهايته تحت وطأة هذا النظام ، لولا أن هذا المجتمع قدّم حالة فريدة من الانهيار تحت سنابك غاز دخيل .

وفضلا عن ذلك ، فإن التأثير المدمّر لتأليه نظام الدولة الإقليمية ذات السيادة — خلال العصر ما بعد الحديث من التاريخ الغربى — قد ألهب حدته مؤثر شيطانى . فقد زال النفوذ الكابح الذى كانت تمارسه الكنيسة العالمية . فإن تأثير الديمقراطية — فى شكل نزعة قومية صاحبها فى كثير من الحالات نوع من العقيدة المذهبية — قد جعل الحرب أشد ضراوة . وجاء التصنيع والتكنولوجيا فزودا المتحاربين بأسلحة تعظم طاقتها التدميرية باستمرار .

ولا ريب فى أن الثورة الصناعية التى أخذت تؤثر على العالم الغربى فى القرن الثامن عشر المسيحى ، هى صورة مقابلة تماماً للثورة الاقتصادية التى دهمت العالم الهلينى خلال القرن السادس قبل الميلاد . فى كلتا الحالتين : أخذت الجماعات التى كانت تحصل فيما مضى على معاشها — معتزلة بنفسها فى كثير أو قليل — من الزراعة الاستهلاكية : أخذت تدخل مع بعضها البعض فى مشاركة اقتصادية ، تستهدف زيادة إنتاجها ودخلها « بفضل بصرها بإنتاج السلع التى تتخصص فى إنتاجها وتبادلها .

وبقيامها بهذا الأمر ، زالت عنها صفة « الاستكفاء الذاتى » . ولم يعُد فى وسعها أن تعود إليه ، حتى وإن شاءت . والنتيجة فى كلتا الحالتين ، بناء المجتمع بناءً جديداً على المستوى الاقتصادى « وهو بناء مباين لبنائه على المستوى السياسى . ولقد قابلتنا فى دراستنا — أكثر من

مرة – النتيجة المدمرة لهذا التنـاقض ، على التركيب الاجتماعى للمجتمع الهلينى .

وإذا كان لإنبعاث النزعة الحربية أثر مهلك فى تاريخ الحضارات ، فإن ظهورها فى بروسيا – فى بداية الأمر – فى عصرى الملكين البروسيين : فردريك وليم الأول وفردريك وليم الأكبر (١٧٠٣ – ٨٦ ميلادية) ثم فى ألمانيا فى مجموعها ، ليُعتبر أحد الأعراض الهدامة فى التاريخ الغربى الحديث . وقد اختلفت الحرب وقتذاك عن الحرب فى جميع عصور التاريخ الغربى الحديث ، من ناحية ضعف طاقتها التدميرية ، ومظهرها الذى كان يتسم بالتكلف . لكن النزعة الحربية الشبيهة بالكلب العقور ، التى إنبعثت فى مرحلتها الأخيرة فى ألمانيا تحت حكم الاشتراكية الوطنية ، لا يمكن أن تُقرن إلا بـ « الاندفاع الأشورى » بعد أن رفع تيجلات بيلسر الثالث (حكم ٧٤٧ – ٧٢٧ ق . م) خدته إلى منتهاها . أما القول بأن ما أصاب أداة الحرب الألمانية الاشتراكية الوطنية من تحطيم ، قد أدى إلى القضاء على النزعة الحربية فى جميع أنحاء العالم الغربى الصبغة ، فإنه يبدو حتى وقت كتابة هذه السطور ، موضع شك كبير .

بيد أن ثمة بشائر تحدو إلى التفاؤل فى مواجهة هذه النُذُر المشئومة . فلقد استطاعت الحضارة الغربية التخلص من نظام قديم لم يكن يقل عن الحرب شراً ، ذلك هو نظام الرق . ومن ثم ، فإن فى وسع الحضارة الغربية أن تستمد من هذا النجاح المنقطع النظير ، قوة تمكنها من القضاء على نزعة الحرب هذه . فلا يخفى أن الحرب والرق سرطانان توأمان أُصيبت بهما الحضارة منذ ظهرت إلى الوجود ، وإن الانتصار على أحدهما يبشر بالقضاء على الآخر .

ثم إن هذا المجتمع الغربى الذى ما زال موصوماً بنزعة الحرب ، قد استطاع أن يشحذ عزيمته فى مجالات روحية أخرى :

فى استجابته للتحدى الذى استثاره ضغط السياسة الصناعية على نظام الملكية الخاصة ، استطاع المجتمع الغربى فى كثير من البلاد ، أن يشق طريقاً وسطاً بين السياسة الاقتصادية القائمة على الفردية المطلقة — من جانب — وسيطرة الدولة الجماعية على أوجه النشاط الاقتصادى ، من جانب آخر[1] .

كذلك حقق المجتمع الغربى بعض النجاح فى مسايرة تأثير الأفكار الديمقراطية على التربية . فإن الديمقراطية قد فتحت أبواب الثقافة على مصراعيها للجميع ، تلك الأبواب التى ما فتئت فى حراسة أقلية صغيرة حريصة ، تستغلها منذ فجر الحضارة ، استغلالا تعسفياً . وبذلك أعطت الروح الديمقراطية الغربية الحديثة ، البشرية أملا جديداً .

إلا أنها دفعت ثمن ذلك ، حين عرضت البشرية لخطر جديد ، لما جرّه تعميم التعليم العام من انطلاق ألوان الدعاية دون وعى : وتظهر فى ما يقوم به رجال الإعلان ووكالات الأنباء والجماعات المتكتلة صاحبة النفوذ ، والأحزاب السياسية ، والحكومات الديكتاتورية ، ما يقومون به من إستغلال الجماهير ، إستغلالا يجمع بين المهارة ومجافاة المبادئ . والأمل معقود فى احتمال أن يخفق هؤلاء المستغلون للجماهير من أنصاف المتعلمين ، فى أن « يكيّفوا » ضحاياهم بحيث يحولوا بينهم وبين مواصلة تعليمهم إلى الحد الذى يزوّدهم بحصانة تقيهم شر هذا الاستغلال .

على أن المعركة الروحية الحاسمة التى جابهت رجل الغرب عام ١٩٥٣ ،

---

(١) فى الأصل : يجابه طريقاً بين سيللا Scylla وخاريبديس Charybdis . ولقد ذكر هوميروس فى الجزء الثانى عشر من الأوديسية ، أنه اسم كائن مخيف له ستة رؤوس يعيش على صخرة تكتنفها دوامة من الماء . وكانت الرؤوس فى وضع يجعلها تحول بين مرور أحد من بوغاز مسينا . (المترجم)

لم تُنشب على الصعيد الحربى ولا على الصعيد الاجتماعى أو الاقتصادى أو الثقافى ، لكن ميدان المعركة الروحية الحاسمة وقتئذ كان حول موضوع الدين .

فهل وصل الأمر بالديانات : اليهودية والمسيحية والإسلام ، إلى حد أنها تستعصى على العلاج بسبب روح التعصب الجارف الذى يحفل به تاريخها ويناقض مبادئها ؟

وهل ثمة فضيلة كامنة فى التسامح الدينى الذى جنح إليه العالم الغربى فى أواخر القرن السابع عشر الميلادى ، وقد صحا من أوهامه ؟

وإلى متى تظل نفوس الناس فى الغرب محتملة مواصلة العيش بدون عقيدة دينيـــة ؟

وإذا كانت نفوس الناس فى الغرب قد استبد بها قلق الفراغ الروحى ففتحت الباب لدخول شياطين مثل : القومية والفاشية والشيوعية ؛ فإلى متى يظل إيمانها الذى كسبته أخيراً بالتسامح ، صامداً للتجربة ؟

لقد كان التسامح سهلا ميسراً فى عصر امتاز بفتور العقيدة الدينية ، فقدت أثناءه ألوان المسيحية الغربية سيطرتها على قلوب المسيحيين وعقولهم ، فى الوقت الذى لم تجد فيه هذه القلوب والعقول أهدافاً بديلة توجه إليه ولاءها المضيع . فالآن وقد أخذت تغازل آلهة أخرى[1] ؛ فهل تستطيع نزعة تسامح القرن الثامن عشر أن تصمد أمام نزعة تعصب القرن العشرين ؟

إن السائرين فى بيداء المجتمع الغربى — وقد انحرفوا عن طريق الإله الواحد الصمد الذى آمن به أجدادهم — أولئك الذين علمتهم التجربة الواقعية بأن الدول الإقليمية — مثل الكنائس الطائفية — أوثان تجلب عبادتها الحرب لا السلام ؛ أن هؤلاء السائرين فى بيداء المجتمع الغربى ، قد تدفعهم التجربة

---

(١) يقصد المؤلف بالآلهة الأخرى ، مذاهب الشيوعية والفاشية والنازية وما إليها من النظم الجامعية . (المترجم)

إلى التعلق بهدف بديل لعبادة الأوثان وهو « الإنسانية الشاملة »[1] . إن « عبادة الإنسانية » التي فقدت حيويتها في القالب الجاف الذي صاغته فلسفة أوجست كومت الوضعية[2] ، قد بهرت أنظار العالم عندما انطلقت مدوية من أفواه الشيوعية الماركسية .

لقد سبق أن شنت المسيحية وهي في عنفوان قوتها ، حرب حياة أوموت — لخلاص أرواح البشر — ضد العبادة الهلينية لمذهب « الإنسانية الشاملة » ؛ متمثلا في « الربة روما » و « الرب قيصر » ، ففازت في المعركة . فهل قُدّر عليها مرة أخرى بعد إنقضاء ألفي سنة ، أن تشن معركة جديدة ضد تجسيد جديد لنفس هذه العبادة الرهيبة ؟

لقد أثارت العبادة الهلينية في نفوسنا نفس السؤال ، لكنها لم توح لنا بالإجابة المنشودة .

* * *

فإذا ما انتقلنا الآن من أعراض إنهيار المجتمع الغربي إلى أعراض تحلله ، يتبادر إلى أذهاننا ما ألفيناه أثناء تحليلنا « الانقسام في الكيان الاجتماعي » ؛ من آثار واضحة المعالم عن وجود انقسام مميز ذي شعب ثلاث في العالم الغربي الحاضر :

أقلية مسيطرة — بروليتاريا داخلية — بروليتاريا خارجية .

---

(١) الإنسانية الشاملة أو الجماعية : أي النظم التي تَحجُبُ الحرية الفردية وتجعل من الجماعة أساس النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مثل الشيوعية والفاشية . (المترجم)

(٢) الفلسفة اليقينية أو الوضعية : تحصر هذه المدرسة الفلسفية تعاليمها في « التجربة » وتصدف عما دون ذلك . ومن ثم ؛ فإنها لا تؤمن بالقيم الروحية الدينية باعتبارها شيئاً غير محسوس . ويرى أوجست كومت مؤسس المذهب اليقيني ، ضرورة إعادة تقييم القيم الاجتماعية والمعنوية على ضوء العلوم الصحيحة . (المترجم)

بالنسبة للبروليتاريا الخارجية ؛ فإنها تنقسم إلى ثلاث فرق :

الأولى – البروليتاريا الخارجية الغربية . ولسنا بحاجة إلى الوقوف عندها . لأن المتبربرين الأول ، قد استُبعِدوا – لا عن طريق الإبادة – ولكن بنقلهم إلى صفوف البروليتاريا الداخلية الغربية ، التى أصبحت تضم بين ظهرانيها أغلبية كبرى من جيل البشرية النائم . وهكذا غدا البرابرة – وقد تم إستئناسهم قسرا – إحدى الكتائب الصغيرة التى تألفت منها هذه البروليتاريا الداخلية – الواسعة النطاق – فى المجتمع الغربى فى القرن العشرين .

الثانية – وأعظم من هؤلاء المتبربرين نصيباً ، أبناء الحضارات الغير الغربية الذين وقعوا فى شراك الغرب التى أخذتهم من كل جانب .

والفرقة الثالثة – تعتبر أقل الفرق الثلاث حظاً ؛ وبالتالى أشدها عزلة . وقد تألفت من الشعوب المختلفة التى اقتُلعت من أصولها سواء أكانت أصولا غربية أو غير غربية . وقد طفقت تكابد مختلف درجات القهر . فمنهم المنحدرون من أرقاء الزنوج الأفريقيين الذين أُقتيدوا بالقوة عبر الأطلسى ، ومنهم سلالة العمال الصينيين والهنود المستوردين بعقود ، الذين حُملوا عبر البحار بوسائل لا تقل قهراً عما اتُّبع بالنسبة للعبيد الإفريقيين . ثم كان هناك آخرون أقتُلعوا من مواطنهم إقتلاعاً ، دون أن يعبروا البحار .

وأكثر أمثلة الاصطباغ البروليتارى قوة ؛ تتجلى فى « البيض المساكين » فى الجنوب العتيق من أرض الولايات المتحدة وفى اتحاد جنوب أفريقيا – وهم الذين إنحدروا إلى المستوى الاجتماعى الذى كان عليه إخوانهم المستعمرون الأكثر نجاحاً : سواء أكانوا مجلوبين ، أو أرقاء أفريقيين من أهل البلاد .

بيد أنه يمكن القول ، أن فوق هذه الجماعات التى عرفت بؤسها ، تقوم بروليتاريا داخلية ؛ حينما وجدت جماهير من الناس من أهل الحضر

والريف ، تحس بأن النظام الاجتماعى الغربى لم يتح لها ما هى جديرة بالحصول عليه ، وتتفق حالتها مع تعريفنا لها . ذلك لأن تعريفنا للبروليتاريا فى كل مكان من هذه الدراسة ، يقوم على إعتبارات سيكلوجية . وقد التزمنا هذا التعريف باستمرار لنعنى به أولئك الذين يحسون بأنهم لم يعودوا بعد ، ينتمون روحانيا إلى المجتمع الذى يجدون أنفسهم – ماديا – يعيشون فى نطاقه .

ولقد وجد رد الفعل البروليتارى ضد الأقلية المسيطرة ، تعبيراً عنيفاً خلال أوقات متعددة وفى أماكن مختلفة : منذ حروب الفلاحين خلال القرون الوسطى ، إلى يعاقبة الثورة الفرنسية . وقد عبّر رد الفعل البروليتارى عن نفسه فى منتصف القرن العشرين الميلادى تعبيراً أشد قوة مما سبق له التعبير فى أى وقت من الأوقات . وتم ذلك فى نطاق مجريين :

الأول – اتخذ رد الفعل إتجاها شيوعيا ، حيثما كانت المظالم اقتصادية فى الغالب .

الثانى – اتخذ رد الفعل اتجاهاً وطنياً ثورياً ضد الاستعمار ، حيثما كانت المظالم سياسية أو عنصرية .

وكان أن ظهر للعيان عام ١٩٥٥ ميلادية ، عِظَم الخطر الذى يهدد الحضارة الغربية من جانب الكتلة الروسية الصينية الشيوعية . بيد أنه كان ثمة من الناحية الأخرى عوامل تحد من الخطر هى أقل إثارة ، ولكنها ليست بالضرورة أقل أثراً :

فالأمر الأول الذى نجده فى صالح الحضارة الغربية المهددة ، هو ذلك المزيج من الوطنية الروسية الذى نجده فى الشيوعية الدولية . فإنه وإن كانت روسيا تؤكد – فى غيرة تماثل غيرة القديس بولص – بأنها تتجرد تماماً من حماقة التمييز العنصرى بين الشعوب ، إلا أن عدم إخلاصها الحقيقى لما تزعمه ، يُضعف القوة المعنوية للشيوعية . ذلك لأنه فى الوقت الذى

كانت قضية الغرب تعانى فى شرق آسيا خصومة رهيبة ؛ كان فى وسع الغربى الذى تتسنى له قراءة أفكار ساسة الكرملين الصامتين أن يُدرك أنهم يرقبون – بمزيج متناقض العواطف – إنتصارات حلفائهم الصينيين ؛ فإن مستقبل مانشوريا ومنغوليا وسنكيانج ، له قبل كل شيء أهمية خاصة للصين وروسيا كلتيهما ؛ أهمية تفوق بكثير ، أهمية مستقبل الهند الصينية وهونج كونج وفورموزا .

لقد كان من الواضح أن من الممكن أن يغدو مالينكوف أو خليفته خروشوف أو خليفة خروشوف : تيتو آخر[1] . وأنه بعد أن أعاد الغرب تسليح ألمانيا واليابان – وبعد أن أعاد الاتحاد السوفيتى تسليح الصين – عندئذ قد يهلل الغرب لإنبعاث الوطنية الروسية باعتبارها « أمل الإنسان الأبيض[2] » .

---

(١) مذهب تيتو ، يعنى قيام الشيوعية فى بلد واحد يكيّف مبادئها وفقاً لظروفها الخاصة . وبالأحرى فإن الشيوعية عند تيتو ليست دولية الطابع بل قومية . ولا يلتزم البلد الذى يعتنقها باقتفاء أثر بلد شيوعى آخر . وكانت بقية البلاد الشيوعية تعتبر هذا الرأى انحرافاً عن الشيوعية الأصيلة ، بيد أن الأمور تطورت فى أوروبا الشرقية حتى أصبحت جميعها تعتنق مذهباً شيوعياً وطنياً تطبقه وفقاً لمصالحها القومية ولم تعد ترتبط بالبلاد الشيوعية الأخرى – أى الشيوعية الدولية – إلا بما يتفق ومصالحها القومية .

ويقصد الأستاذ المؤلف هنا أن الأمور قد تتطور تطوراً يدفع روسيا إلى إعتناق مذهب شيوعى أوربى ، واعتناق الصين مذهباً شيوعياً صينياً فتقوم العداوة بين الدولتين . وهذا ما أيدته الأحداث داخل الكتلة الشيوعية بالفعل . (المترجم)

(٢) إن الآراء التى أبداها الأستاذ المؤلف عام ١٩٥٥ بشأن توقعه تصدع الشيوعية الدولية ، حققتها الأحداث التى ما انفكت تظهر على مسرح السياسات الدولية . إذ يستفحل تفكك وحدة العالم الشيوعى يوماً بعد آخر . ومناط الأسباب الحقيقية ، هى كما أشار الأستاذ المؤلف : المصالح القومية » وهى تمكس بذورها « المظاهر الحضارية القومية » . فإن المصالح القومية فى القوميات التى تكوّن العالم الشيوعى » أصبحت تطفو على سطح الأحداث . وتبين للباحثين أن أحكام التاريخ – أو التطورات الحضارية باستخدام مصطلحات الأستاذ المؤلف – أقوى من المبادئ المذهبية وأعظم تأثيراً وفعّالية من آراء الأيديولوجيين . إذ تبدّى =

– البيان أن مستقبل الشيوعية قد بات يتوقف على اختلافات الأحزاب الشيوعية فى تطورها تطوراً قومياً وطنياً . كما أوضحت الأحداث التى تمر بها الشيوعية الدولية ، خطأ كارل ماركس فى تجاهله أن التقسيمات القومية كفيلة بأن تطلق فى الشيوعية الدولية قوى عارمة ، قمينة بتفتيت وحدتها وتقويض دعائم الجهاز الذى يشرف على عملية التوحيد . فإن كارل ماركس لم يتوقع عجز التنظيم الدولى الخاضع لسيطرة مركزية ، عن الصمود لضغوط الحركات القومية داخل التنظيم لتسلم زمام حكم بلادها وإدارته وفق المصالح الوطنية التاريخية . فالتاريخ – حقاً – أقوى من المبادئ مهما تسامت فى المنطق والفكر .

فلقد أثبتت الأحداث الأخيرة ، أن كلا من الاتحاد السوفييتى والصين ، يجابه مجموعة مختلفة من المشكلات والأفكار والفرص ، وأن كلا منهما – مسيراً بالتاريخ – يعمل فى المكان الأول تحقيق مصالحه الخاصة . وتبين – بمرور الأيام – أن كلا من الفريقين ، يضطلع بمسئوليات داخلية وخارجية تتطلب منه سلوك طريق معين قد يجافى الطريق الذى يتخذه الفريق الآخر . فأسفر هذا عن انبعاث مشكلات تفسد علاقات البلدين . بل طفت إلى سطح الأحداث ، رواسب الماضى وأحقاده الكامنة فى أعماق اللاشعور فى نفسية الشعبين ، والتى ظُنّ – خطأ – أن اشتراك البلدين فى أيديولوجية واحدة يكفل زوال الماضى وبداية عهد جديد من التعاون والتآزر ضد العدو المشترك ، الامبريالية . وفى الحق ؛ فإذا كانت الصين والاتحاد السوفييتى قد تعاونا فى الماضى ، فقد كانت المصالح القومية لحمة التعاون وسداه .

وثمة ظاهرة – فى موضوع الصراع السوفييتى الصينى – هامة للغاية . فإن الأحزاب الشيوعية الأوربية تقف – عدا القليل النادر منها – فى صف الاتحاد السوفييتى ، فى حين تؤازر الأحزاب الشيوعية الأسيوية الأفريقية – عدا القليل منها – الصين الشعبية . وهذا ما يجعل للصراع الصينى السوفييتى مظهراً خاصاً له نتائجه الرهيبة . فإن الأحزاب الشيوعية الأسيوية الأفريقية مسيرة بعقلها الباطن بشعور أن روسيا دولة بيضاء تنتمى إلى العنصر الذى ذاق الملونون على يديه ويلات الاستعمار والامبريالية والاضطهاد العنصرى .

وهكذا تكوّنت فى العالم – من ناحية الجوهر – كتلتان شيوعيتان : أسيوية / أفريقية تتزعمها الصين الشعبية ، وأخرى أوربية تتزعمها موسكو . ولقد أصبح لهذا الانقسام صدى يشتد يوماً بعد آخر ، نتبينه فى دراسات الباحثين فى الشئون الدولية ، وتُجمع كلها عن تقارب فكرى بين الاتحاد السوفييتى وبقية أوربا ، يشتد يوماً بعد آخر وستكون له نتائجه على الصعيدين السياسى والاقتصادى مما يحقق حلم ديجول عن أوربا : من الأورال إلى الأطلسى . وهذا التقارب – كما يقول الباحثون الأوربيون – يؤكد اتجاه روسيا إلى الحضارة الأوربية وانتصار الثقافة الأوربية – فى نهاية المطاف – فى روسيا ، وهو ما جاهد لتحقيقه القيصر بطرس الأكبر ومن تلاه من الحكام والمفكرين الروس ، وهو اتجاه عطلته – كما يقولون – انحرافات التاريخ . (المترجم)

وقديماً سفه الناس القيصر ولهلم الثانى[1] لتنبيهه الأذهان إلى « الخطر الأصفر » وكانوا يحسبون هوسه جنوناً . لكن ، ما يزال بعض الكتاب يتمسك بالقول بأنه لم يكن حسن النية فحسب ، بل كان رجلا حاذقاً كذلك ، ومما له دلالته ، أن هتلر كان يثنى بالمثل على رأى القيصر فى هذه النقطة بالذات . ولهذه الدلالة التى تبدو للوهلة الأولى غير مقنعة ، أساس صلد يقوم على حقيقتين لا تقبلان الجدل :

الأولى — أن روسيا هى الأرض الرئيسية الوحيدة فى بلاد الجنس الأبيض ، حيث ظل السكان يتزايدون خلال القرن العشرين وفقاً لمعدل زيادة سكان أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية خلال القرن التاسع عشر .

الثانية — أن روسيا أيضاً من بلاد الجنس الأبيض التى تتاخم حدود الصين والهند .

فإذا أتيح لإحدى هاتين الدولتين أو كلتاهما معاً (وكلٌ أشبه بالقارة ويضم حوالى ربع الجنس البشرى تقريباً) أن تصلا — بعملية اقتباس النظم الغربية الإدارية والتكنولوجية — إلى المدى الذى تصبح عنده القوة البشرية العاملة الهندية أو الصينية ، يُحسب حسابها فى ميزان القوى العالمية الحربية والسياسية وفقاً لنسبتها العددية وحدها ، هنا يُنتظر أن يصرّ مثل هذا الجبار العاتى المكين ، على إجراء تعديل تام فى توزيع أراضى العالم وفى توزيع ثرواته ، وهو توزيع لا يزال مجافياً للعدالة .

عندئذ ، قد تجد روسيا نفسها — وهى تكافح لصيانة كيانها نفسه — مسوقة دون إرادتها لتُسدى للعالم الغربى الذى يقف متراخياً محتميا وراء أسوارها ، تُسدى إليه مِنّة قيامها بدور الدولة الحاجزة . وهى منة لا يُتوقع

[1] (١) إمبراطور ألمانيا الذى دالت دولته بعد خسارتها الحرب العالمية الأولى .
(المترجم)

لها من الغرب جزاءً ولا شكورا ؛ وقد سبق أن قامت الكتلة الرئيسية للعالم المسيحي الأرثوذكسي[1] بتأدية هذا الدور لهذا العالم الغربي نفسه . ولم يأت الخطر وقتذاك من الهند أو الصين ؛ لكنه جاء من جنوب غربي آسيا ، بعد أن توحدت تحت قيادة قوة ديناميكية فتية هي : قوة العروبة والإسلام .

إن هـــذه التنبؤات المتصورة إلى أبعد حدود التصور تمتّ بكليتها إلى مستقبل لم تتضح معالمه للناظرين بعد . ولعل ثمة ما يبعث على الأمل فى أن الجماعة الغربية التى اصطدمت بالصينيين بعنف فى كوريا واشتركت فى صراع يائس فى الهند الصينية ؛ قد توصّلت إلى اتفاق مع الأندونيسيين غداة تحررهم من حكم اليابانيين ، وتنازلت مختارة عن سلطانها إلى أهالى الفلبين وسيلان وبورما والهند وباكستان .

وإن عملية المصالحة التى تمت من قارة آسيا — ممثلة فى جماعات مختلفة كانت خاضعة للسلطان البريطانى — وبين المجتمع الغربى — ممثل فى القادة البريطانيين — إن هذه العملية ؛ قد فتحت باب الأمل بأن جماعة — على الأقل — من الحشد الأسيوى الضخم فى البروليتاريا الغربية الداخلية الواسعة النطاق التى تسعى قُدُماً إلى الإنفصال عن الأقلية الغربية المسيطرة ؛ إن ثمة أملا بأن هذه الجماعة قد تحوّل طريقها وتتجه إلى هدف آخر يقوم على المشاركة على قدم المساواة مع السادة الغربيين السابقين .

وقد يحدث نفس الشيء فى أقطار العالم الإسلامى فى آسيا وشمال إفريقيا ، ولمعظم الأقطار الأفريقية جنوب الصحراء . لكن ثمة مشكلة أشد من ذلك تعقّداً ، قائمة فى تلك المناطق التى أغرت أحوالها المناخية الأوربى باستيطانها فضلا عن بسط سيطرته عليها . وتتبدى نفس المشكلة — ولكن فى وضع أقل خطورة — فى المناطق التى استجلب إليها الأوربى عناصر غير بيضاء

---

(١) أى الإمبراطورية البيزنطية . (المترجم)

لتؤدى للرجل الأبيض ضروب الأعمال الكريهة والبدائية التى يكره هو القيام بها . ويبدو الاختلاف فى درجة الخطورة فى الحالتين – من وجهة نظر الإنسان الأبيض – فى الإحصاءات الموضوعة عن التكوين العنصرى للأهالى المحليين . فحيثما يكون السكان غير البيض هم أهالى البلاد – كما هو الحال فى جنوب إفريقيا – فإن عددهم يطغى على الأقلية البيضاء المسيطرة . أما فى البلاد التى يُستجلب إليها غير البيض على غير إرادتهم – كما هو الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية – فإن الأكثرية البيضاء المسيطرة ، تطغى على الأقلية الغير البيضاء .

وفى الولايات المتحدة – وقت كتابة هذه السطور – لقى الاتجاه نحو تقوية الحاجز اللونى بحيث يتحوّل إلى تمييز طبقى على نحو ما عرفته الهند ؛ لقى مناهضة من اتجاه مضاد مستمد من روح المسيحية . وإذا كان من المتعذر – الآن – أن نرى ما إذا كان هذا الهجوم – المستمد من المسيحية – أملا ضائعاً أو « بادرة للمستقبل » ، فإنه لبشير بالخير ، أن نرى روح الخلاص تفعل فعلها فى الولايات المتحدة وفى الهند على السواء . ومصداقا لذلك ؛ نجد الضمير المسيحى فى قلوب الغالبية المسيطرة من البيض التى تمسّكت فيما مضى بتحرير العبيد قد تحققت من أن العتق عن طريق التشريع وحده ، لايكفى . كما نجد – فى الناحية الأخرى – أن البروليتاريا الملوّنة تُبدى – بنفس الروح – إمارات استجابة .

ولقد شاهدنا فى قسم سابق من هذه الدراسة ؛ أن نفور البروليتاريا الداخلية ، هو أوضح ظواهر التحلل لأية حضارة . ونحن إذ نضع هذا أمام أبصارنا ، ماضون فى البحث عن أية دلالة لهذا النفور ولهذه المصالحة معاً ، فى داخـــل المجتمع الغربى ؛ كما هو قائم فى منتصف القرن العشرين :

ولقد دأبنا – باستخدام نفس المنهاج – على أن نتعمق فى بحث تلك

العناصر من البروليتاريا التى لا تمت بأصلها إلى أرومة أوربية ، ولكنها جلبت داخل حدود المجتمع الغربى عن طريق التوسع الغربى الذى شمل العلم بأسره .

على أنه لا حاجة إلى القول ؛ أنه يزال هناك ، ذلك الجزء الكبير من البروليتاريا الذى لا يتأتى — من الناحية العنصرية — تمييزه عن الأقلية المسيطرة . ونعنى به ؛ هذه الغالبية من أهل الغرب رجالا ونساء ، الذين كان « كبار القوم » — الذين نشأوا فى أحضان الأقلية الممتازة التى عرفها الغرب فى القرن التاسع عشر — ينعتونهم بأسماء مختلفة مثل : « الطبقات العاملة » و « الطبقات الدنيا » و « العامة » و « الجماهير » ؛ بل إنهم قد يطلقون عليهم فى سخرية لاذاعة اسم « الجمهرة غير النقية » .

هنا ؛ تروعنا ضخامة المشكلة . ويجب أن نكتفى بالقول بأنه فى جميع الأقطار الغربية — وبصفة خاصة فى أعظمها تقدما فى الصناعة وأعلاها كعبا فى إعتناق الأساليب العصرية — حدث خلال نصف القرن الأخير فى كل مجالات الحياة ، تقدم حقيقى هائل نحو تحقيق العدالة الاجتماعية .

ولم تكن الثورة السياسية التى بوساطتها تحررت الهند من السلطان البريطانى ؛ أقل بهاء من الثورة الاجتماعية فى بريطانيا ، حيث كانت القوة والثورة والفرص المتاحة — إلى عهد قريب — حكرا على أقلية ضئيلة متخمة بالامتيازات . وعن طريق هذه الثورة الاجتماعية ؛ استطاع ذلك البلد الغربى أن يتحول إلى جماعة حققت قدراً كبيراً من العدالة الاجتماعية على حساب التضحية بقدر ضئيل من الحرية الفردية . ولم يتخلف عن هذا التحول عند الجانبين ؛ سوى القليل التافه من شعور البغضاء .

وصفوة القول ؛ إن الاستعراض الآنف الذكر للوقائع الداحضة — أو المؤيدة — لترجيح القول بتردى الحضارة الغربية فى الكارثة بفعل حدوث انقسام داخل بروليتارية داخلية فيها ؛ إن هذا الاستعراض يثير لنتيجتين محتملتين :

الأولى — أن القوى التى تعمل فى سبيل المصالحة ؛ تبدو أقوى من القوى المناظرة لها التى كانت تعمل فى المجتمع الهلينى ، فى مرحلة مناظرة من تاريخه ؛

الثانية — أن هذا الاختلاف — الذى هو فى صالح الغرب — يبدو أنه يرجع — أساسا — إلى التأثير المستمر لروح مسيحية ، لم تفقد سيطرتها — بعد — على قلوب الرجال والنساء فى الغرب . وذلك رغما عن أن عقولهم قد تُعرض عن العقيدة التى تُرجمت فيها حقائق المسيحية الثابتة إلى اللغة الثانية : لغة الفلسفة الهلينية الوثنية .

حقا ؛ إن المجتمع الهلينى — موضوع المقارنة — كان مفتقرا بشكل واضح إلى تلك الحيوية الدافقة التى هى من سمات الدين الأسمى ؛ تلك الحيوية التى زوّدت يرقة المجتمع الغربى بـ « يفعته » . وقد يكون من باب التخمين ؛ أن ثمة شيئاً من العلاقة بين هذه المناعة الظاهرة للعيان التى يتمتع بها جوهر الروحانية المسيحية ، وبين جدب الأديان الأخرى التى أطلّت برأسها — إبان ذلك العصر — فى أماكن مختلفة من أنحاء العالم الغربى ؛

ونستطيع أن نختتم بحثنا هذا بأن الشهادة المستخلصة من الأحداث السابقة فى المجتمع الغربى لا تعتبر حاسمة فى إيضاح مستقبل الحضارة الغربية ؛

(٢) تجارب غربية فريدة

ما برحنا حتى الآن ؛ نتحرى فى الحضارة الغربية خلال مرحلة عصورها التى دعوناها « ما بعد الحديثة » ؛ عناصر يمكن مقارنتها بنظائرها فى تاريخ الحضارات الأخرى . بيد أن ثمة — كذلك — عناصر لا نظير لها فى تاريخ الحضارات الأخرى .

ويطفر أمام أنظارنا مظهران تنفرد بهما الحضارة الغربية :

الأولى ــ المدى الذى بلغه الإنسان فى الغرب فى سيطرته على الطبيعة غير البشرية .

الثانى ــ السرعة المتزايدة للتغير الاجتماعى الذى حققته تلك السيطرة .

حقا ، كان الجنس البشرى سيد الإبداع على الأرض منذ سلك طريق الارتقاء التكنولوجى : من مرحلة العصر الحجرى الأدنى ، إلى مرحلة العصر الحجرى الأعلى . ونعنى بذلك ، أنه منذ ذلك الوقت ، بلغ الإنسان مرتبة تكنولوجية لم يعد معها مستطاعا ــ سواء للطبيعة الجامدة أو أى مخلوق آخر غير بشرى ــ أن يستأصل الجنس البشرى ، أو حتى أن يعرقل تقدمه .

ومن ثمت ، لم يكن فى وسع أى كائن على الأرض أن يعترض طريق الإنسان أو يدفع به إلى الدمار ، اللهم إلا الإنسان نفسه . ذلك لأن الإنسان ــ كما رأينا ــ قد إنساق صوب الهلاك بفعله هو ، مصداقا لما رأيناه فى الأربع عشرة أو الخمس عشرة حضارة . وها هو يستبين له بوضوح ــ فى خاتمة المطاف ــ أنه بعد نجاحه فى تفجير القنبلة الذرية عام ١٩٤٥ ، قد بات يستحوز على درجة من السيطرة على الطبيعة الغير البشرية ، بحيث تعذر عليه بعد ذلك ، أن يتجنب تحدى الآفتين اللتين جلبهما بنفسه على رأس العالم ، وذلك حين زود نفسه بنوع جديد من المجتمعات : فى شكل مجتمع لا يزال فى طور التحضر .

إن هاتين الآفتين التوأمين ، مظهران مختلفان لآفة واحدة هى : الحرب ، على أنه قد يكون من الملائم التميز بينهما بإطلاق اسمين مختلفين عليهما :

الحرب كما تفهم عادة .

وحرب الطبقات .

وبعبارة أخرى ، الحرب الأفقية ، والحرب الرأسية .

وهذا موقف لم يُهيأ الجنس البشرى لمواجهته . وللدراسة احتمالاته ؛ عسانا أن نُعالج الأمر بتبسيط مهمتنا ، وذلك بتقسيم عملنا إلى مبحثين منفصلين :

الأول – التكنولوجية والحرب والحكومة .

الثانى – التكنولوجية وحرب الطبقات والعمالة .

الفصل الثاني والأربعون

التكنولوجية والحرب والحكومية

(١) إحتمالات حرب ثالثة

كان من نتائج الحربين العالميتين الأخيرتين ، أن الدول العظمى قد تناقص عددها من مجموعة من الدول ، يتفاوت عددها من حين إلى آخر . وضمت في نطاقها دولا — كإيطاليا — أضفت عليها المجاملة البحتة ، لقب الدول العظمى ، على الرغم من أن كل امرئ يدرك عجزها عن القيام بالواجبات التي يتطلبها هذا المركز . ولقد تناقص عدد هذه الدول العظمى إلى دولتين عظيمتين فقط هما : الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي .

فرض الاتحاد السوفييتي سلطانه على ألمانيا الشرقية . كما فرضه — كذلك — على معظم الدول التي تخلفت عن الإمبراطوريتين السابقتين : الهابسبرجية والعثمانية[1] . وهذه الدول ، سبق أن اجتاحها الرايخ الثالث الوطني الاشتراكي في غضون الحرب العالمية الثانية : والسبب الوحيد في أن ألمانيا الغربية وجمهورية النمسا (التي أقيمت في فترة ما بين الحربين) لم تلقيا مصير جيرانهما في الوقوع في قبضة الروس حتى عام ١٩٥٦ ، هو أن هذين البلدين وقعا — في الوقت نفسه — تحت حماية الولايات المتحدة وحليفاتها من دول غرب أوروبا .

حقاً ، بات واضحاً أن إستبدال إستقلال يصعب الدفاع عنه بحماية

---

(١) تألفت الإمبراطوريتان في أوروبا من دول البلقان جميعها ومن المجر والنمسا وتشيكوسلوفاكيا والجزء الغربي من بولندا . (المترجم)

الولايات المتحدة – حتى ذلك الوقت – هو الضمان الوحيد ضد السيطرة الروسية (أو الصينية) التى تُنذر بأن تُصبح – على طول المدى – أمرا خطيراً لأية دولة فى العالم .

ولقد ألِفَت الولايات المتحدة فترة طويلة أن هذا الدور فى العالم الجديد . وها هى تؤديه فى العالم القديم . فإن مبدأ مونرو – منذ عقد المحالفة المقدسة[1] حتى الرايخ الثالث – قد عصم الدول التى تخلفت عن الإمبراطوريتين الإسبانية والبرتغالية فى القارة الأمريكية ، من الوقوع بين براثن إحدى الدول الأوربية . لكن هذه الدول اللاتينية قد دفعت ثمن ذلك : قبول زعامة الولايات المتحدة عوضا عن الإدارة الاستعمارية الإسبانية أو البرتغالية . على أن الخيرين قلما يكونون قريبين من القلوب ؛ فإن لم تتجرد أفعال الخير من شبهات الغرض تماما ، فإنها تخرج عن نطاق الخير . ويطالعنا فى المقام ؛ ما أصبحت عليه مشاعر الفرنسيين – مثلا – إزاء الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٥ ، فإنها لا تختلف كثيراً عن المشاعر التى ما برح البرازيليون – مثلا – يكنّونها للأمريكيين طوال المائة عام الماضية .

وأيا ما تكون الحال ، ففى عام ١٩٥٦ : ألفى الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة – كلاهما – يجابه أحدهما الآخر باعتبارهما الدولتين العظيمتين الوحيدتين الباقيتين على سطح الأرض . وإذا كان وجود دولتين فى أى توازن دولى بين القوى يعتبر – فى أحسن الحالات – عدداً يبعث على الحيرة ؛ فيجب أن لا يعزب عن البال أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى كانتا – إذا قورنتا بألمانيا واليابان قبل عشرين عاما – دولتين مكتظتين

---

(١) عهد وقعه عام ١٨١٦ قيصر روسيا إسكندر الأول وإمبراطور النمسا وملك بروسيا . وتعهدوا فيه باتباع مبادئ المسيحية فى الشئون الداخلية والخارجية . وإنه وإن كانت الغاية الظاهرة منه المحافظة على السلم ، لكن رنا بأولئك الملوك – فى الحقيقة – إلى الإبقاء على الأوضاع التى كانت قائمة فى أوروبا وقتذاك . (المترجم)

بالثراء فى وسعهما توفير العمل السلمي فى فلاحة أراضيهما ، لعشرات من السنين القادمة .

لكن أبان التاريخ للعيان ، أن الخوف المتبادل ، لا يقل أثراً — كمصدر للعدوان الحربى — عن الحرمان الاقتصادى . وحقاً ، لم يتهيأ للشعبين الروسى والأمريكى أن يفهم كل منهما الآخر . ويبدو ذلك من إختلاف مزاجيهما :

فإن التسليم المتصف بالوداعة ، هو قوام مزاج الرجل الروسى العادى . بينما الملل الصاخب ، قوام المزاج الأمريكى .

ولقد انعكس هذا الاختلاف فى المزاج ، على موقف كل منهما تجاه الحكومة المستبدة :

فقد استسلم لها الروس ، باعتبارها قضاء محتوما . أما مريدو الشيوعية فى روسيا ، فقد رأوا هناءتهم الكاملة فى المساواة النظرية التى ما انفكوا يخلطون بينها وبين الحرية ، خلطاً يثير العجب .

بينما تعلم الأمريكيون من واقع تاريخهم ، النظر إلى الحكومة المستبدة على أنها نظام أثيم فى وسع أى شعب خلعه بمحض رغبته . ورأى الأمريكيون هناءتهم كلها[1] فى الحرية الشخصية ، وخلطوا بينها وبين المساواة خلطا عجيبا .

وهذه الفروق فى المزاج والمبادئ ، جعلت من الصعب على هذين الشعبين أن يفهم كل منهما الآخر ويثق به . وهذا الارتياب ولد الخوف ، فى وقت تبدلت فيه ساحة النزال التى يتخذها كل فريق ميدانا يهدد فيه الفريق الآخر ؛ تبدلت — بل تنكرت معالمها — بفعل التقدم السريع الذى أصابته التكنولوجيا ، على نحو لم تعرفه البشرية من قبل . فكان أن تقلصت أبعاد العالم — الذى كان يوما فسيح الأرجاء — بحيث تعذر على المتنازعين

---

(١) Summum bonum.

أن يتخذوا مواقعهم فى ساحة النزال دون أن يقترب أحدهم من الآخر ويصطدم به .

وهكذا ، يبدو أن التنافس بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة على السلطان ، فى هذا العالم الذى أصبح موحّداً بفضل التقدم التكنولوجى الحديث ، قد تفصل فيه — على طول المدى — أصوات ثلاثة أرباع الجيل البشرى الذى يعيش فى الوقت الحاضر . هذه الجيل الذى لا يزال — بعد انقضاء خمسة أوستة آلاف سنة منذ فجر الحضارة — يعيش فى نفس المستوى المادى من الحياة ، فى العصر الحجرى الحديث . إلا أنه غدا مُدركا أن بلوغه مستوى من العيش ، قد أصبح أمرا ممكنا . فإن هذه الغالبية الناهضة التى ما انفكت حتى الآن مغمورة فى ممارسة حقها فى إختيار أى من أسلوبى الحياة السوفيتى أو الأمريكى ، يتوقع لها أن تختار أيا من هذين الأسلوبين ، يحقق لها آمالها الثورية .

ومع هذا ، فعلى الرغم من أن الكلمة الأخيرة قد تكون لهذه الغالبية من الجنس البشرى — من غير الغرب — التى عاشت مغمورة حتى اليوم ، إلا أنه يبدو من المحتمل أن الثقل الحاسم المرجّح فى ميزان القوة بين روسيا وأمريكا ، لن يأتى من هذه الأرباع الثلاثة من سكان العالم ، وإنما سيأتى — فى المدى القصير — من هذا الربع الباقى من سكان العالم الذى تتركز فيه فى الوقت الحاضر طاقات الحرب الصناعيـــة فى العالم ، والذى لا يزال يعيش فى فى غربى أوروبا .

فإذا ما استخدمنا مصطلحات علم الجغرافيا ، نستطيع أن نقرر أن ثمة قارة واحدة قائمة الآن هى «أورافراسيا»[1] تحف بها — على البعد — جزيرتان ضخمتان هما أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية . وعلى مرمى البصر من هذا

---

(١) أورافراسيا : أوروبا / أفريقيا / آسيا . (المترجم)

المنظر الأرضى ؛ تبدو روسيا وكأنهما القوة البرية ، على حين تبدو أمريكا وكأنها القوة البحرية . وهذا يماثل تماما ؛ دور الدولة البحرية الذى أدته بريطانيا فى الحروب الأوربية الإقليمية الطابع التى نشبت خلال الفترة الحديثة من التاريخ الغربى وفيها قامت إسبانيا وفرنسا وألمانيا — على التوالى — بدور أعداء بريطانيا فى القارة .

وما برح الخطر البالغ يكتنف القسم الأوربى الغربى من عالم ما بعد الحرب . لأنه رأس الجسر الذى تتخذه الدولة البحرية[1] لبلوغ القارة . ففى سالف الأيام ؛ كانت الأراضى المنخفضة[2] ميدان صراع « أوروبا الغربية » دارت فيه المعارك العنيفة بين دولها الإقليمية المتحاربة . ويبدو الآن ؛ كما أن أوروبا الغربية بأسرها ستؤدى — فى حالة قيام حرب عالمية أخرى — دور ميدان الصراع للعالم المتحضّر بالحضارة الغربية . ولعل هذا التحوّل الذى أصاب الخارطة الاستراتيجية ، شىء من القصاص « الشاعرى » . بيد أن موقع أوروبا الغربية كـ « ميدان صراع » ماكان ليصدّ الأوربيين عن سكناه منذ عام ١٩٤٦ ، كما لم يصد الفلمنك عن سكنى الأراضى المنخفضة منذ الأيام السابقة لنهاية القرن الخامس عشر .

ولم يكن فى مقدور التقدم التكنولوجى أن يُضعف سلطان المشاعر الإنسانية على شئون البشر . إذ أن النزعة الحربية لا تمتّ إلى التكنولوجية ، بل هى من شئون البشر . فهى — أى النزعة الحربية — رغبة فى القتال . والحروب مثيرة ؛ حينما تُشن فى مكان آخر وبين أقوام آخرين ؛ ولعل أكبرها إثارة ، تلك تندلع ثم تخمد سريعاً .

---

(١) أى بريطانيا قديما والولايات المتحده حديثا . (المترجم)

(٢) الأراضى المنخفضة (أو الفلاندرز) : تشمل فى الوقت الحاضر الشمال الغربى لبلجيكا وقسم من جنوب هولندا والقسم الشمالى من فرنسا . وما برحت مسرحا للمعارك والحروب ، وآخرها معركة الفلاندرز التى وقعت فى ١٠ مايو — ٢ يونيه عام ١٩٤٠ والتى انتصرت فيها الجيوش الألمانية انتصارا مبينا ، انبنى عليه استيلاؤها على بلجيكا وهولندا وفرنسا . (المترجم)

وقد إعتاد المؤرخون بجميع الحضارات ، إعتبار الحروب أشد الأحداث التي تتناولها كتاباتهم جذبا للاهتمام . وكانت أكثر الجيوش في الماضي قليلة العدد نسبيا ، ووقودها أناس يؤثرون القتال على غيره من الحرف . إلا أن فنون الحرب الحديثة في الغرب ، قد أصبحت تشكل حدثا خطيراً ، منذ « النفير العام » الذي أطلقته الثورة الفرنسية عام ١٧٩٢ . وما فتئت فنون الحرب في المستقبل تُنذر بخطورة أشد .

ومن الظواهر الجديرة بالإعتبار ، أن الحرب أصبحت تميل الآن إلى القضاء على النزعة العسكرية في الشعوب التي تُكابدها . كما لا يخفى أن إرادة الشعوب قد غدت قوة لامناص للحكومات المستبدة من الإذعان لها في نهاية الأمر . ويطالعنا في هذا الشأن مثال فرنسا التي عانت في الحرب العالمية الأولى أشد الأهوال ، فكان أن تقاعست عن الصمود للحرب الثانية . ووُفّق هتلر في التأثير على الألمان لدفعهم إلى خوض غمار حرب جديدة . بيد أنه بدا في عام ١٩٥٦ شك عظيم فيما إذا كان في قدرة هتلر آخر — إن كان ثمة بالمرّة مجال لظهور هتلر آخر — أن يدفع العالم إلى الحرب مرة أخرى .

وإن من العبارات ذات المغزى ، تلك الصفة التقليدية التي يخلعها الديكتاتوريون على أنفسهم بأنهم « محبو السلام » . ولو كان نابليون قد امتد به العمر إلى عصر الحرب الذرية لعدل عن ترديد العبارة التي ما فتئ — وهو في منفاه بسانت هيلانه — يصف بها الحرب بأنها « حرفة جيلة » .

على أن هذه الآراء لا تصدق — في الدرجة الأولى — إلا على الشعوب التي تقدمت في مجال الحضارة والتي عركتها حروب القرن العشرين . وفي آسيا اتخذ استسلام الشعوب التقليدي منذ الأزل ، الشكل السياسي للرضوخ السلبي لحكومات جائرة . وكان لابد لعملية الاقتباس الثقافي من الحضارة الغربية ، أن تقطع شوطا طويلا يجاوز مجرد إقتباس الفن العسكري الغربي ، قبل أن يبدأ الجندي الفلاح الأسيوي التفكير في مناقشة أو تحدي الأوامر

التي تطلب إليه التضحية بحياته ، حتى فى حروب عدوانية لا تعنى شيئاً بالنسبة إليه شخصياً .

فإلى أى مدى يتأتى — فى منتصف القرن العشرين — لحكومات أسيوية أن تذهب إليه فى إستغلال نزعة الاستسلام المتصلة فى رعاياها ، لتحقيق أغراض عسكرية ؟

لعل الأمر يبدو أمام أعين أهل الغرب ، كما لو أن الجندى الروسى أو الصينى الفلاح ، قد أجاز لحكومته التصرف المطلق بحياته . بيد أن التاريخ قد دلل على وجود حد لا تجرؤ أية حكومة صينية أو روسية على تجاوزه دون التعرّض للقصاص . وبدلل على صحة هذا القول أن الحكومات الصينية المختلفة ابتداء من تسين Tsin حتى حكومة الكيومنتانج[1] ؛ التى تهورت بدفع الأمور بعض الشيء أكثر مما ينبغى ، فدفعت ثمن تهورها ، كراهية الشعب لحكمها .

وتكرر القصة نفسها فى التاريخ الروسى كذلك .

فإن القيصرية التى ألهمتها الحكمة أن تُسلِّم للشعب الروسى بإصلاحات الستينات من القرن التاسع عشر ترضية له عن أوجاعه فى القرم[2] ؛ أن هذه القيصرية قد دفعت حياتها ثمنا لعنادها فى إفتداء الهزائم العسكرية التى مُنيت بها روسيا مع اليابان عام ١٩٠٤ — ٥ ؛ التى دفعت إلى قيام الثورة الروسية العظيمة عام ١٩٠٥ ، ثم هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى التى دفعت إلى الوجود ثورة ١٩١٧ المزدوجة[3] .

---

(١) حزب تشانج كاى تشك فى الوقت الحاضر . ويقتصر حكمه الآن على جزيرة فورموزا . (المترجم)

(٢) نشبت حرب القرم عام ١٨٥٤ بين روسيا القيصرية من جانب وتركيا وإنجلترا وفرنسا وحلفائهم من جانب آخر دفعا للأطماع الروسية عن تركيا . (المترجم)

(٣) اندلعت فى روسيا عام ١٩١٧ ثورتان : أسفرت الأولى عن تخلع القيصرية وتولية حكومة كيرنسكى التى كانت تتجه إلى إقامة الديمقراطية الغربية ، والأخرى بولشفية وأسفرت عن تولى لينين الحكم . (المترجم)

وبالأحرى ؛ ثمة حدود تنهار عندها معنويات روسيا أو أى بلد زراعى آخر . على أنه يرجح القول بأن حكومة الاتحاد السوفييتى تفضل مجابهة أهوال حرب مع الولايات المتحدة على أن تقدم لها تنازلات سياسية تبلغ بالروس — فى نظرهم — مبلغ الخضوع للتفوق الأمريكى .

فإن كان يحتمل — والحالة هذه — توافر ظروف — تمكن الاتحاد السوفييتى من خوض غمار حرب من نفس مستواه : فهل ستقف الولايات المتحدة نفس الموقف ؟

الرد بالإيجاب ، مصداقا لما بدت عليه الأحوال العالمية عام ١٩٥٦ . إذ ما برح الشعب الأمريكى منذ إقامة أول مستعمرة من مستعمرات الثلاث عشرة[1] وأقدمها ، فى طليعة الشعوب التى تصدف عن النزعة الحربية وتمقتها ، إلا أنه يعتبر فى نفس الوقت من أصلح الشعوب فى العالم الغربى لخوض غمارها . ونعنى بعزوف الشعب الأمريكى عن الحرب ؛ كراهية أفراده الخضوع للتنظيم العسكرى ، ولأنهم لا يطمحون مثل الغاليين[2] فى الظفر لبلادهم بمجد حربى ، إكراما للمجد ذاته . وترد صلاحية الأمريكيين كجنود : إلى أنه حتى غلق الحدود حوالى عام ١٨٩٠ ، كانت ثمة دائماً فرقة من جنود الحدود ذات خبرة بحمل السلاح واستعماله بمطلق حريتها الخاصة سعيا لتحقيق مصالحها الذاتية . وهذا وضع كان — منذ وقت طويل — مجهولا فى القسم الأكبر من أوربا الغربية .

وإن هنود أمريكا الشمالية ليعترفون حقا بتلك الروح النزاعة إلى القتال ، منذ هبوط الرجل الأبيض إلى الشواطئ الأمريكية قادما من الجزائر البريطانية . وهى النزعة التى اتسمت بها — خاصة — الأجيال العشرة من أمريكى الحدود ، كما يعترف بها الفرنسيون منافسو المستعمرين الإنجليز خلال القرن الثامن عشر . وقد عرفها فى القرن التاسع عشر ، الضحايا المكسيكيون ،

---

(١) كانت هذه المستعمرات هى نواة الولايات المتحدة الأمريكية . (المترجم)

(٢) أى جنس الفرنسيين . (المترجم)

ومن الناحية الأخرى ، تؤكدها المصادمات التى نُشبت بين رجال الحدود الأنجليز والأمريكين ومنافسيهم ، للاستحواز على أمريكا الشمالية . وما فتئ الشعب الأمريكى بأسره – لا رجال الحدود فحسب – مستعدا لإخضاع نفسه للنظام الحربى الصارم ، على شريطة أن يكون خضوعه عارضا إستثنائيا ، ولولا هذا الاستعداد ، ماكان ليقيض لروح الإقدام فى رجال الحدود ، أن تتغلب على خصوم يقفون معهم – ثقافيا – على قدم المساواة .

ولقد تكشفت صفات الجندية الكامنة فى الشعب الأمريكى – فى مجموعه – لخصومه الألمان إبان الحرب بين الألمان والأمريكيين ، أعوام ١٩١٧/١٨ و١٩٤١/٤٥ . على أن أشد مظاهر الإقدام والاحتمال والنظام والقيادة عند الأمريكيين تأثيراً فى النفس ، تطالعنا فى حرب انتظم فى معمعانها أمريكيون ضد أمريكيين – فإن حرب ١٨٦١/٥ بين الشمال والجنوب[1] ، كانت أطول الحروب التى نشبت فى العالم الغربى منذ سقوط نابليون حتى اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى ، كما كانت أصعبها مراسا وأفظعها خسائر فى الضحايا ، لكنها كانت – كذلك – أحفلها بالتجديدات التكنولوجية .

وبالإضافة إلى ما قدمناه ، لم تؤثر الحربان العالميتان الأخيرتان فى الولايات المتحدة تأثيراً سيكلوجيا يماثل تأثرهما فى معنويات الأوروبيين . فإذا كانت هاتان الحربان العالميتان قد دمرتا خلال عمر واحد – فى فترة ما تزال عالقة بالأذهان – ألمانيا وضحايا ألمانيا من الروس وأهالى غرب أوروبا ، تدميراً يماثل فى قسوته ، تلك القسوة التى دمرت بها الحرب الأهلية الأمريكية ولايات الجنوب ، إلا أن الحربين العالميتين قد خلفتا الولايات المتحدة فى الواقع ، بمنأى عن الأضرار .

وبالحرى ، لم يكن ثمة من يشك – فى عام ١٩٥٦ – فى أن الشعب

---

(١) كان الاتحاد يمثل الولايات الشمالية ، والتحالف ولايات الجنوب . (المترجم)

الأمريكي كان مستعدا لمواجهة أهوال حرب مع الاتحاد السوفييتي ، مؤثرا ذلك على أن يقدم له أية تنازلات تبلغ فى أعين الأمريكيين مبلغ الخضوع للتفوق الروسى .

بيد أن هذا الشاهد التاريخى الآنف الذكر الذى يوحى باحتمال وجود إرادة للحرب — فى ظروف معينة — عند الشعبين الأمريكى والروسى ؛ هذا الشاهد التاريخى والتأثير السيكلوجى لهذه التطورات ، ينبغى أن يكون موضع التقدير فى ضوء تطورات الحرب الذرية . وهو تأثير لن يتخلف كثيراً فى ظروف منتصف القرن العشرين عن التطورات التكنولوجية ذاتها ؛ فإن ملاقاة الموت فى سبيل وطن أو قضية ؛ يصبح تضحية لا مبرر لها وفعلاً من أفعال البطولة لا معنى له ، إذا إتضح — بالتأكيد — أن البلد بأسره سيفنى — بما فى ذلك هذا الوطنى الغيور وهذه القضية وأنصارها — فى نكبة واحدة شاملة .

(٣) نحو نظام عالمى للمستقبل

لم يحل عام ١٩٥٥ حتى كان القضاء على الحروب حتما مقضيا .

لكن ، لن يتأتى القضاء عليها ، إلا إذا أمكن تركيز الرقابة على الطاقة الذرية فى يد سلطة سياسية واحدة . وترتب على هذا الاحتكار للسيطرة على السلاح الرئيسى الذى أنتجه العصر ، أن تقوم هذه السلطة السياسية بدور حكومة عالمية . وفى الظروف التى كانت قائمة فى عام ١٩٥٥ ، كان لا مندوحة أن يكون المقر الفعلى لهذه السلطة السياسية : واشنجتن :

بيد أنه ؛ لا الولايات المتحدة — ولا الاتحاد السوفيتى — كانت مستعدة لأن تضع نفسها تحت رحمة الأخرى .

وفى هذا المأزق الحرج ؛ كان الأسلوب التقليدى — لا محالة — لتحقيق أقل قدر من المقاومة السيكلوجية ؛ هو اللجوء إلى محنة التقاتل . وقد رأينا

كيف أن « الضربة القاضية » كانت الوسيلة الوحشية التي بواسطتها مرّت الحضارات المنهارة – الواحدة تلو الأخرى – من مرحلة عصر الاضطراب إلى مرحلة الدولة العالمية . إلا أنه في حالتنا هذه ، قد تصرع « الضربة القاضية » لا العدو وحده ، ولكنها قد تصرع أيضاً : المنتصر « والحكم ، وحلقة الملائكة ، والنظارة » جميعاً .

وفى هذه الظروف ، تتعلق آمال البشرية فى تأمين مستقبلها ، باحتمال تجمُّل حكومتى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وشعبيهما بالصبر الذى يعينهما على المضىّ فى السياسة التى يُطلق عليها فى الوقت الحاضر : التعايش السلمى .

إن أعظم خطر يُهدد رخاء الجنس البشرى – بل وجوده نفسه – ليس إختراع الأسلحة النووية . ولكنه إنبعاث حالة نفسية فى نفوس الناس تشبه تلك التى سادت العالم الغربى فى مطلع عهده الحديث ، طوال مائة عام تبدأ بنشوب الحروب الدينية حوالى سنة ١٥٦٠ م . ومصداقا لذلك ؛ نرى فى مستهل النصف الثانى من القرن العشرين ؛ رأسماليين وشيوعيين ، يشعرون – مثلما شعر الكاثوليك والبروتستانت من قبل – بأن من الأمور المستحيلة والتى لا يمكن قبولها ، أن يرضوا بأن يتخلوا عن الولاء لمجتمع موزع – لوقت غير محدود – بين : عقيدة صادقة (هى عقيدتهم) وإلحاد ممقوت (هو عقيدة خصومهم) .

بيد أن تاريخ الحروب الدينية فى الغرب ، حمل بين طياته الدليل على إستحالة إستخدام قوة السلاح فى تسوية القضايا الروحية . كما أن تملّك البشرية للأسلحة النووية ، يقدّم نذيرا بأن السبيل لن يكون مُهيئا للرأسماليين والشيوعيين – على السواء – ليدركوا تفاهة الحرب الدينية ، بذلك الأسلوب التجريبى الذى عُرف عن تلك المحنة التى طال أمدها وعاناها الكاثوليك والبروتستانت فى عصر كانت فيه أسوأ أسلحة الإنسان : السيوف والحراب والبنادق التى تُحشى من فوهتها .

ومن ثم ، لا مبرر للتفاؤل القاطع — كما لا مبرر للتشاؤم الجازم — فى ظروف هذه حالها من التقلقل والغموض . وليس من السهل للجيل من البشر الذى يعيش اليوم ، سوى أن يوطن النفس — قدر الاستطاعة — على إدراك أنه يواجه قضايا يتوقف عليها كيانه نفسه ، وأنه يتعذر التخمين بما يخبئه له القدر .

ويطالعنا فى هذا المقام حادثة طريفة ، تمثل حال أبناء البشرية فى عام ١٩٥٥[١] ، الذين يجدون أنفسهم كما لو كانوا دواماً هائمين على سطح فلك نوح ، ففى صبيحة يوم ٧ أغسطس سنة ١٩٤٧ المشئوم وجد « تور هيرادهل Thor Heyerdahl »[٢] نفسه ورفاقه الفايكنج الخمسة أن التيار المتدفق غربا الذى سبق أن حمل الطوف « كون تيكى Kon-Tiki » مسافة ٤٣٠٠ ميل عبر المحيط الهادى ، يحملها الآن تجاه صخور جزيرة « راروتونجا Roarotonga[٣] » . ووراء خط أمواج الشاطئ الصخرى التى تتكسر على هذا الحاجز ، كان فى وسع الملاحين المقتربين من الجزيرة ، أن يتبينوا أشجار النخيل الشبيهة بالريش . وهم قد أدركوا أن هذا النخيل ، يزين جزائر شاعرية يحتويها بحر ساكن . على الشعف[٤] القاصب الزبد ، يمر بينها وبين هذا الملجأ الأمين ، فى خط يبدأ من الأفق وينتهى بالأفق[٥] .

ولا يهيئ مجرى التيار والريح للمسافرين فرصة الطوافه بحراً حول

---

(١) وقت كتابة هذا الفصل من كتابه . (المترجم)

(٢) كاتب أمريكى . ويشبه المؤلف موقف هذا الكتاب ورفاقه — فى قصته — بما كان يعانيه الفايكنج (سكان اسكندنافيا) فى رحلاتهم البحرية . (المترجم)

(٣) مجموعة من الجزائر الصغيرة التى تتكون منها جزائر كوك فى المحيط الهادى . وتقع هذه المجموعة بين خطى عرض ١٨ و ٢٢ جنوبا وخطى طول ١٤٧ و ١٦٣ غربا . (المترجم)

(٤) الشعب ، صخور قريبة من سطح الماء . (المترجم)

(٥) Heyerdahl, Thor : Kon-tiki (Chicago 1950).

الجزر ، إذ لا مناص لهم من مكابدة محنة قُدّر عليهم مكابدتها ، وإنهم – رغما عما قد يدور فى أذهانهم عن الاحتمالات التى تنتظر من يقع فى هذا المأزق من المسافرين – ما كان لهم أن يحزروا أى احتمال منها ، يُقدّر أن تنتهى إليه مغامرتهم .

فلو قُدّر للطوف أن يتحطم فى خضم الأمواج العاتية ، لتمزّق البحارة إربا على حافات الشُعْب المرجانية المدببة كالسكين ، إلا إذا دهمهم الموت السريع غرقا ، فأنقذهم من تلك الميتة الأشد إيلاما .

أما إذا تماسك الطّوف ونجح ملاحوه فى التشبّث به إلى أن تهزمهم الأمواج العاتية فتلقى بالطوف على الشّعب المرتفعة الجافة ، عندئذ يصبح فى قدرة الملاحين – بعد تحطّم طوفهم – السباحة فى البحر الساكن ، والوصول أحياءً إلى إحدى الجزائر التى يتوّجها النخيل .

أما إذا اتفق ميعاد وصول الطّوف إلى الشُعب مع إحدى حركات المدّ العالية التى تغمر الشُّعب فى أوقات منتظمة إلى عمق يدفع الأمواج العاتية إلى الانحسار ، عندئذ قد تزيح « كون تيكى » الموت عن كاهلها ، فتسلك طريقها فى الماء الصافى سليمة لا يمسها ضرر .

أما عن واقع الحال ، فقد فاض بالفعل مدّ عال عمل على رفع هيكل السفينة « كون تيكى » المهشّم بعيداً عن الشّعب ، وألقى به فى منطقة البحر الهادئ ، بعد انقضاء بضعة أعوام على إلقاء أمواج الشاطئ الصخرى لهيكل السفينة على صخور مرجانية مدببة قاحلة . على أنه لم يكن فى وسع أى رجل فى صبيحة ٧ أغسطس سنة ١٩٤٧ على سطح « كون تيكى » ، أن يقرر أيا من الاحتمالات السابقة يكون مصيره .

وبعد ، فإن تجربة هؤلاء الملاحين السكندنافيين الستة خلال ذلك اليوم ، تُشبه كثيراً ، المحنة التى كانت تنتظر البشرية ، فى مستهل النصف الثانى من القرن العشرين .

إن فُلك الحضارة الذى مضى يشق عباب التاريخ خمسة أو ستة آلاف سنة ، أخذ يندفع نحو شُعُب صخور يعجز بحارتها عن الطواف حولها . وإن هذا الخطر الذى ينتظرهم — والذى لا معدى عنه — ماثل فى الانتقال — المحفوف بالخطر — من عالم منقسم إلى منطقة نفوذ أمريكية وأخرى روسية ، إلى عالم موحد تحت سيطرة سلطة سياسية واحدة ؛ ينبغى عليها — فى عصر الأسلحة الذرية — أن تستأصل عاجلا أم آجلا ، بطريقة أو بأخرى ، هذا الانقسام الحالى فى السلطة السياسية .

فهل يتم الانتقال سلميا ، أو يتم بحدوث كارثة ؟

فإن تم بكارثة ؛ فهل تكون شاملة ، تستعصى على العلاج ، أو تكون مجرد كارثة جزئية تخلف وراءها عناصر تحقق — على مدى الأيام — البرء والشفاء ، بعد معاناة مرحلة من الألم والشقاء .

وما كان لأحد — حتى كتابة هذه الكلمات — أن يستبق الأحداث فيعلم — مقدماً — نتيجة المحنة التى يبدو للعيان أن العالم سائر إليها .

ومهما يكن من أمر ؛ فقد يكون فى وسع المراقب أن يمعن النظر فيما تتمخض عنه الأحداث ، دون انتظار للحكمة التى تستخلص — فى يسر وسهولة — بعد وقوع الكارثة ؛ طالما حصر تفكيره بشأن مصير التنظيم العالمى فى العناصر الضرورية لقيام حكومة عالمية : عناصر تشارك فى صفاتها كلا من الحكومتين نصف العالميتين ، اللتين تبلورتا — على التوالى — حول الولايات المتحدة وحول الاتحاد السوفييتى .

فإذا بحثنا مسألة قدرة التكنولوجية على تيسير سبل المواصلات ، ألفينا أن قيام حكومة عالمية ، قد غدا فرضاً قابلا — تماما — للتحقيق .

أما إذا انتقلنا — صعوداً أو هبوطاً — من الصعيد التكنولوجى إلى صعيد الطبيعة البشرية ؛ ألفينا الفردوس الأرضى الذى أقامه حذق الإنسان

الصانع[١] فى مهارة فائقة ، قد أحالته ضلالة الإنسان السياسى[٢] إلى جنة للحمق . فإن « برلمان الإنسان » الذى بدا أن الشاعر تنيسون Tennyson[٣] تنبأ بمولده مع اختراع الطائرة تقريباً ، ظهر الآن إلى الوجود يحمل إسماً أكثر جمودا هو « الأمم المتحدة » .

وإذا كانت الأمم المتحدة لم تكن من العجز بما أكّده نقادها أحيانا ؛ فقد ظهر بوضوح ، عجزها عن خلق حكومة عالمية .

إن الحقائق الماثلة فى توزيع القوى : لم تنعكس فى دستور المنظمة السخيف القائم على مبدأ أن لكل حكومة واحدة ، صوت واحد . ولم تجد — حينئذ — من وسيلة للتوفيق بين مساواة خيالية وحقائق الحياة القاسية ، خيراً من أن تمنح حق الاعتراض (الفيتو) لدول خمس عظمى ، انكمشت إحداها منذ ذلك الحين : فبعد أن كانت الصين ، غدت فورموزا ، بينما حُرم هذا الحق « الأقران » (الرسميون) لهذه الدول العظمى .

وخير ما يمكن أن يتوقع للأمم المتحدة ، تطورها من منبر لإلقاء الخطب وإثارة النقاش ، إلى إتحاد بين دولها . على أن ثمة إختلافاً هائلا بين إتحاد من دول مستقلة واتحاد يجمع الشعوب فى حكومة مركزية تطلب من كل مواطن — فى هذا الاتحاد — أن يحوّل ولاءه الشخصى لها « فتتلقاه منه . على أن من المعروف أن تاريخ النظم السياسية لم يُسجّل قط أنه كان فى الإمكان اجتياز تلك الهوة ، إلا على يد حركة ثورية . وعلى هذا ، فليس من المحتمل أن تصبح الأمم المتحدة نواة التنظيم العالمى الذى تنبعث عنه الحكومة العالمية العتيدة ، فى نهاية المطاف . لكن من المحتمل أن يحدث هذا ؛ لا عن

---

(١) Homo farber .

(٢) Homo politicus .

(٣) شاعر إنجليزى (١٨٢٩ — ٩٢) وكان يمجّد نظام البرلمان الإنجليزى . (المترجم)

طريق تطور الأمم المتحدة ، ولكن عن طريق تطور أحد نظامين سياسيين قائمين أعرق منها وأشد مراساً هما : حكومة الولايات المتحدة أو حكومة الاتحاد السوفييتي .

وإذا قُيِّض للجيل من البشر الذى يعيش فى وقتنا الحاضر ، أن يكون حراً فى إختيار إحداهما ؛ فإن أى باحث غربى ، لا يشك بالمرة فى أن الجمهرة الساحقة من جميع الرجال والنساء الأحياء ذوى الأهلية لتكوين أى رأى فى هذه القضية ؛ سيُؤثرون أن يكونوا رعايا للولايات المتحدة الأمريكية ، على أن يكونوا رعايا للاتحاد السوفييتى . فإن المزايا التى تجعل من الولايات المتحدة موضع إيثار دون منازع ، ترجح تماماً سيف الشيوعية الروسية المصلّت .

والميزة الأساسية التى تتمتع بها أمريكا فى أعين رعاياها الحاليين والمحتملين مستقبلا ، هى إحجامها الواضح الصادق عن الانسياق وراء تأدية دور الحكومة العالمية .

فإن جانباً لايستهان به من جيل المواطنين الأمريكيين الحاليين وآبائهم من غير المهاجرين ، قد اضطروا إلى اقتلاع جذور حياتهم من العالم القديم ليغرسوها فى العالم الجديد ، ويبدءوا حياة جديدة . وقد دفعهم إلى هذا ؛ توقهم إلى تخليص أنفسهم من شواغل القارة ، بعد أن نفضوا — بشكل ظاهر — ترابها عن أقدامهم . وإن وقدة الأمل التى جاشت فى صدورهم وحملتهم على الانسحاب من شواغل حياتهم الأولى ، لاتقل حدة عن الأسى الذى يحس به الجيل الحالى من الأمريكيين ، حين يضطرون إلى العودة إلى اهتمام بشواغل العالم القديم . ولقد جاء هذا الإضطرار — كما رأينا — نتيجة لتلاشى المسافات ؛ تلاشياً جعل العالمين القديم والجديد عالما واحداً لا يتجزأ . بيد أنه رغما عن أن الاعتراف بأن الأمريكيين مضطرون إلى

العودة للاهتمام بشواغل العالم القديم يزداد وضوحا كل يوم ، فإن ذلك لم يخفف من نفور الأمريكيين من قبول هذا الانسياق .

والميزة الثانية التي يتمتع بها الأمريكيون ، تتجلى فى سخائهم .

فإن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ـ كلاهما ـ دولتان مفعمتان بالموارد . على أن نظمها الاجتماعية والاقتصادية ليست متماثلة ؛ إلا من حيث سيطرة كل منهما على موارد ضخمة غير مستثمرة . بيد أن روسيا ـ عكس أمريكا ـ قد شرعت بالكاد فى استثمار إمكانياتها . كما أن التنمية التى قامت بها ودفعت ثمنها قدراً ضخما من الجهد والمكابد البشرية طوال الاثنتى عشرة سنة التى سبقت مباشرة هجوم الألمان عليها عام ١٩٤١ ؛ هذه التنمية قد أنزل بها الغزو الألمانى ضرراً فادحا . إلا أن الروس بعد الحرب ، وجدوا أنفسهم فى الجانب الظافر . لكنهم راحوا يعوضون أنفسهم عما أنزله الألمان من تدمير لمنشآتهم الصناعية ، بالاستيلاء على المعدات الصناعية ونقلها إلى بلادهم . ولم يقتصر هذا الإجراء على ألمانيا التى اعتُبرت مسئولة عن ويلات الحرب ، بل تعداه إلى بلاد شرق أوروبا ووسطها التى ادّعى الروس أنهم جاءوا لتحريرها من النازيين . كما تجاوزه إلى المقاطعات الصينية فى مانشوريا التى ادعوا أنهم وفدوا لتخليصها من ربقة اليابانيين .

حقا ، إن إتجاه الروس فى هذا الشأن مناقض تماما لسياسة التعمير الأمريكية بعد الحرب . وهى سياسة رسمها مشروع مارشال وغيره من المشروعات الأمريكية التى نُفِّذت فى عدد من البلاد التى قلبت الحرب أوضاعها . فكان أن استقامت أمورها مرة أخرى ، بفضل أموال المعونات التى وافق الكونجرس فى واشنجتون على بذلها ـ عن طيب خاطر ـ من دافعى الضرائب الأمريكيين الذين أخذت من جيوبهم هذه الأموال . وكان المتبع فى الماضى ـ عادة ـ أن تأخذ الدول الكبرى المنتصرة ، لا أن تُعطى .

ولم تُظهر سياسة الاتحاد السوفييتي تحوّلا عن هذه العادة السيئة(١) . لقد وضع مشروع مارشال قاعدة جديدة لامثيل لها فى التاريخ : وقد يقال بأن هذه السياسة السخيّة فى صالح أمريكا من وجهة النظر الواعية البعيدة المدى ، بيد أن الأفعال الطيبة لا تفقد شيئاً من طيبها ، إذا كانت — فى الوقت نفسه — أفعالا أملتها الحكمة .

ومع هذا ؛ فإن مواطنى بلاد غربى أوربا ، يقضّ مضاجعهم فى الوقت الحاضر ، الخوف من أن تتخذ أمريكا قرارا — قد لا تشترك فيه شعوب أوروبا الغربية بالرأى — من شأنه أن يجلب الأسلحة النووية الروسية على رؤوسهم كنتيجة — غير مقصودة — لقيام أمريكا بعمل رادع رداً على تحرّش الروس . وعلى الرغم من أن الدول التى تسير فى فَلَك الولايات المتحدة الأمريكية تتمتع فى معظم الأحيان بحرية تصرف تحسد عليها — وهى حرية ينكرها الاتحاد السوفييتى تماماً على الدول التى تسير فى فلكه —(٢) فإن هذه الدول التابعة — جميعاً — سواءٌ من حيث عجزها عن مواجهة هذه الأمور التى تمسّ كيانها نفسه ؛ حياة أو موتاً .

ويذكّرنا هذا ؛ بالخطاب الرنان الذى أذاعه وزير للخارجية الأمريكية — ريتشارد أولنى — فى عام ١٨٩٥ ، بمناسبة النزاع الإنجليزى الأمريكى حول الحدود بين جيانا البريطانية وفنزويلا ، وهو خطاب جعل له ذكراً خالداً ، قال :

« إن للولايات المتحدة اليوم — من الناحية العملية — السلطان على هذه

---

(١) شرع الاتحاد السوفييتى بعد وفاة ستالين فى بذل المعونات والمساعدات الاقتصادية والفنية إلى كثير من الدول النامية . ويظهر فى هذا الشأن ضاءً عظيما . وأقرب مثال يطالعنا فى هذا المقام تعاونه الصادق معنا فى تنفيذ مشروع السد العالى العظيم . (المترجم)

(٢) تغير وضع الدول الاشتراكية الأوربية عما سبق أن قرره الأستاذ المؤلف عام ١٩٥٥ ، إذ أصبحت تلك الدول تمتلك حرية أعظم فى تصرفاتها الخارجية والداخلية . (المترجم)

القارة . وإن حكمها قانون مفروض على الرعايا القاطنين فى نطاق سلطانها ؛ لماذا ؟ إنه لا يعزى إلى مجرد الصداقة الخالصة أو حسن النية « إنه ليس مجرد تقدير لسمو خلقها كدولة متحضّرة ، إنه لا يُعزى لما تتميز به — فى ثبات — معاملات الولايات المتحدة من حكمة وعدل واستقامة : ولكن هذا السلطان الذى يتمتع به الولايات المتحدة يرجع إلى مواردها التى لاحد لها ، يعززها موقعها المنعزل — بالإضافة إلى البواعث السابقة — الأمر الذى جعل الولايات المتحدة سيدة الموقف — فعلا — وأبعد من أن تنالها أية دولة عظمى أو الدول العظمى مجتمعة » .

وهذا القول المأثور : لم يفقد شيئاً من قوته إذ يطبق فى مجال للزعامة أوسع مدى من مجال أمريكا اللاتينية وحدها . وإذا كان الفرد من غير الأمريكيين يستسلم للحقيقة القائلة بأن السياط الأمريكية خير من العقارب الروسية ، فلقد « يتاح للفيلسوف » (باستخدام عبارة المؤرخ جيبون) أن يوسّع مجاله الذهنى ، فيكشف أن إحتكار دولة عظمى وقوية ، تقرير وتنفيذ السياسات التى تتوقف عليها حياة ومصائر الشعوب الدائرة فى فلكها ؛ إن هذا الاحتكار يحمل بين طياته مشكلة دستورية لا يحلها إلا صورة من الصور الاتحاد الفيدرالى . ولا ينتظر أن تتم تسوية القضايا الدستورية المترتبة على قيام تنظيم يعلو على النظم القومية فى سرعة وسهولة .

على أنه مما يبشر بالخير ، أن الولايات المتحدة قد غدت ملتزمة فعلا بحكم تاريخها نفسه — بقبول مبدأ الاتحاد الفدرالى .

الفصل الثالث والأربعون

التكنولوجية والصراع الطبقي والعمالة

(١) طبيعة المشكلة

إذا صدق القول بأن التأثير الذى تمارسه التكنولوجية الغربية ذات القدرة الفائقة – على نحو لم يسبق من قبل – على مجتمع عالمى آخذ بأسباب الحضارة الغربية لا يزال موزعا بين طبقات منفصلة تتباين تباينا كبيراً فى مستوى معيشتها ؛ إن هذا التأثير قد أصبح يجابه وارثى الحضارة الغربية بمشكلة عمالة ، تناظر مشكلة « الحكومة » التى سبقت مناقشتها فى الفصل السابق . على أنه يستلزم تحقيق ذلك أن يتسع معنى كلمة العمالة فيشمل الروح التى يُنجز العمل بها ، والمنفعة التى تُجتنى من الفراغ ؛ فضلا عن حجم العمل والفراغ وتوزيعهما .

وليست مشكلة العمالة – مثل مشكلة الحكومة – بالشىء الجديد فى ذاته . فإذا كان العامل الجوهرى فى إنهيار الحضارات الأخرى وتحللها ، هو إخفاقها فى التخلص من الحرب عن طريق السعى طوعا – وفى الوقت المناسب – لامتداد سلطان الحكومة من المجال الإقليمى إلى المجال العالمى ؛ فإن ثمة عاملا آخر ثانويا يكمن فى الإخفاق فى التخلص من الصراع الطبقى بالعمل – طوعا وفى الوقت المناسب – على إحداث تغييرات فى ضغط العمل وحصيلته وفى الاستمتاع بالفراغ والإفادة منه .

فى كلا المجالين : امتداد سلطان الحكومة وتغيُّر أوضاع المجتمع ، يرجع الاختلاف فى مدى القوة بين سيطرة الغرب – أخيراً – وأية سيطرة

أخرى سابقة على الطبيعة غير البشرية ، يرجع هذا الاختلاف إلى اختلاف فى نوع السيطرة . إذ قد ترتب على إزدياد الطاقة الإنتاجية الاقتصادية بصورة لم يسبق لها مثيل — بفضل تطبيق الأسلوب التكنولوجى الحديث — إنبعاث ظلم اجتماعى ظاهر للعيان ، بدأ لأول وهلة كما لو أنه قابل للعلاج ، ومن ثم أصبح استمراره لا يطاق .

وإذ أخذ ضَرْعُ الصناعة الميكانيكية العصرية يدر ثروة بعيدة التصديق على رجال الأعمال من أهل الغرب — الذين غرسوا بذرة الثورة الصناعية ثم جمعوا محصولها — فما هو الداعى لبقاء الثورة والفراغ حكرا لأقلية مميزة ؟

ولماذا لا تكون هذه الوفرة المستحدثة ، شركة بين الغربيين وبين عمال الصناعة الغربيين والفلاحين الأسيويين والهنود الحمر الأمريكيين : أولئك الذين سيقوا كالقطيع إلى عالم تنتظم فى صفوفه البروليتاريا الداخلية للمجتمع الغربى ؟

إن هذا الحلم الذى راح يداعب البشر عن إمكان تحقيق الوفرة للبشرية بأسرها ، قد بَعَثَ إلى الوجود مطالب لكفالة التحرر من العوز ، لم يسبق لها مثيل فى إلحاحها وقلة صبرها . فكان أن أبرز شيوع هذه المطالب فى كل مكان ، سؤال حول الطاقة الإنتاجية الصناعية الميكانيكية : هل حقا لا ينضب معينها ، كما كان يظن ؟

ويتوقف الرد على هذا السؤال على حل معادلة من ثلاثة أطراف غير معروفة :

الأول — مدى قدرة الطاقة التكنولوجية المتاحة ، على كفالة المطالب المتزايدة للجنس البشرى الذى ما برح يتكاثر ويطلب المزيد من الفراغ .

الثانى — إحتياطات العالم من الموارد المادية التى لا يمكن الاستغناء عنها بغيرها فى شكل : معادن ، ومن الموارد التى يمكن الاستغناء عنها

بغيرها ، فى شكل : الطاقة المائية والمحاصيل والماشية والقوى العاملة والحذق البشرى :

الثالث – مدى القدرة على استغلال هذه الموارد التى جمعها البشر بحيث يزداد عائدها ، ومدى قدرة البشر على موازنة الموارد التى يبددونها ، بجمع موارد أخرى لم تُستغل حتى اليوم .

إن تيار الكشوف الغريبة التى تجرى فى مجال العلم فى هذه الأيام « يُوحى بأن التكنولوجيا تتمتع بقدرة هائلة . بيد أن ردود الفعل البشرية فى عصرنا الحالى قد أيّدت فى نفس الوقت ؛ وجود حدود فعلية – على الصعيد الإنسانى – على القدرة على الإنتاج إلى مالانهاية ، باستخدام الطاقة التكنولوجية المتاحة . وتتمثل هذه الحدود فى العوامل البشرية . فإنه وإن تيسّر من الناحية التكنولوجية إنتاج شىء ما ، إلا أنه لا يتأتى إبراز الفكرة إلى حيّز التنفيذ إلا حين تتوفر الأيدى العاملة .

بيد أن هذا الاندفاع الهائل فى تمكين سيطرة الإنسان على الطبيعة الغير البشرية ؛ قد اقتضى ثمنا له ، فرض طائفة من القواعد لتنظيم العمال . فكان أن أخذوا يقاومون القيود التى فُرضت على حرياتهم . ومن شأن هذه المقاومة الحتمية ؛ أن تعرقل تحقيق الخطة التى كان من الواضح إمكان تحقيقها من الوجهة التكنولوجية .

هنا تعرض لنا الأسئلة التالية :

ما مدى استعداد العمال للتضحية بحرياتهم الشخصية فى سبيل زيادة الرخاء الذى يطالب كل منهم بنصيب أكبر « منه ؟

ما هو مدى استعداد عمال الصناعة فى المدن للخضوع لـ « التوجيه العلمى » ؟

وما هو المدى الذى تذهب إليه أغلبية البشر من عمال الفلاحة البدائيين

فى إقتباس الأساليب العلمية الزراعية الغربية ، وفى قبول القيود التى تفرض على ما نتصوره حقاً وواجبا تقليدياً مقدساً وفى الإنجاب ؟

إن أقصى ما يمكن قوله فى هذه المرحلة : أن الطاقة التكنولوجية التى تُرجى من ورائها زيادة الإنتاج ، تعدو فى سباق مع التمرّد الإنسانى الطبيعى الذى يُبديه — فرادى — الفلاحون والعمال الصناعيون .

إن تكاثر الفلاحين — بأعداد ضخمة — يهدد بالقضاء على ثمار التقدم التكنولوجى . ذلك لأن تزايد سكان العالم ، يستوعب — بالتبعية — كل زيادة تطرأ على وسائل المعيشة . وفى الوقت نفسه ، يهدد العمال الصناعيون بالقضاء على ثمار التقدم التكنولوجى ، وذلك بتحديدهم للإنتاج عن طريق الإجراءات المقيِّدة التى تفرضها نقاباتهم فى وجه كل زيادة محتملة فى الإنتاج .

(٢) تأثير استخدام الآلات على المشروع الخاص

إن السمة البارزة فى المجال الاقتصادى والاجتماعى ، هى صراع الشد والجذب : بين التنظيم الذى تفرضه الصناعة الآلية وبين التمرّد العنيد للإنسان على هذا التنظيم .

وخطورة الموقف ، ماثلة فى الحقيقة الآتية :

إن تحوّل الصناعة إلى صناعة آلية ، والنظام المفروض ، أمران — لسوء الحظ — متلازمان . وإن مراقبا لهذا الموقف ، قد يرى إنطباعاته وقد تأثرت بالنور الذى يرى المنظر فى ضوئه . فمن وجهة نظر الرجل الفنى ، قد يبدو أن موقف العناد الذى يقفه عمال الصناعة ، صبيانى ومجاف للعقل .

ألا يُدرك هؤلاء الناس أن كل هدف مرجو لابد له من ثمن ؟

وهل ظنوا أن فى وسعهم التحرر من العوز دون خضوعهم للاشتراطات التى لابد من توافرها قبل إشباع حاجاتهم ؟

على أن المؤرخ قد يرى المشهد بعين مختلفة :

فلعله يستعيد إلى ذهنه أن الثورة الصناعية قد بدأت فى إنجلترا خلال القرن الثامن عشر ؛ فى عصر وبلد كانت تتمتع فيهما أقلية بقدر عظيم جداً من التحرر من القيود التنظيمية ، وأن أفراداً من تلك الأقلية هم الذين أبدعوا نظام الإنتاج الآلى . وكانت حرية الاستثمار التى ورثها هؤلاء الرواد الأول لحركة التصنيع عن مرحلة إجتماعية سابقة ، وحى المرحلة الجديدة ودعامتها . وهى المرحلة التى كانوا هم مبدعيها ، وباعثيها إلى الوجود .

وفضلا عن ذلك ، فقد ظلت روح الحرية التى توافرت قبل الثورة الصناعية فى رب العمل ، والتى كانت المنبع الذى استقت منه الثورة الصناعية ؛ ظلت هذه الروح القوة الدافعة لهذه الثورة فى الفصل التالى من تاريخها . ومع ذلك ، فبينما استطاع رؤساء الصناعة أن يواصلوا — فى المرحلة الأولى — تجنب الوقوع تحت وطأة النظام الصناعى الذى هو من صنع أيديهم ؛ كان هذا هو المصير الذى لاقته الطبقة العاملة الجديدة فى المدن . والمدن هى التى أحست منذ البداية ، بالتأثيرات المدمرة على حياة البشر التى جاء بها نجاح التكنولوجيا المؤزر فى السيطرة على الطبيعة الغير البشرية . وإذا كانت التكنولوجية — كما رأينا فى موضع سابق — قد حررت الإنسان من إسار تعاقب الليل والنهار ودورة الفصول ؛ إلا أنها فى تحريرها إياه من ألوان هذه العبودية القديمة ، قد أوقعته فى عبودية من نوع جديد .

إن المنظمات النقابية التى كانت أظهر ما ساهمت به الطبقة العاملة فى بناء المجتمع الجديدة ؛ لم تكن إلا تراثاً تحدر من نفس العهد الفردوسى : عهد النشاط ، الخاص ، السابق للثورة الصناعية ، وهو العهد الذى كون رؤساء الصناعة . وإذا نُظر إلى هذه المنظمات النقابية باعتبارها وسائل لتمكين العمال من المحافظة على كيانهم فى خضم صراعهم مع أصحاب الأعمال ؛

إذا نظر إليها كذلك ، فهى – فى حقيقة الأمر – من صنع نفس المرحلة الاجتماعية التى أنجبت خصومهم الرأسماليين .

وشاهدٌ على المشاركة فى هذا الاتجاه ، نجده فى الحقيقة الآتية :

فإن تصفية أصحاب الأعمال فى روسيا الشيوعية ، قد أعقبه إخضاع النقابات لتنظيم معيّن . فى حين أن تصفية النقابات فى ألمانيا النازية ، قد أعقبه إخضاع أصحاب الأعمال الأفراد لتنظيم معيّن . وتختلف الأحوال عن ذلك فى بريطانيا ، إذ أسفرت الانتخابات العامة فى سنة ١٩٤٥ عن حكومة من حزب العمال ، وقام برنامجها على إنتزاع ملكية المشروعات الصناعية الخاصة من أيدى أصحابها ، مع صون الحرية الشخصية . لكن عمال الصناعات المؤممة لم يفكروا إطلاقاً فى حلّ نقاباتهم ، أو التخلى عن حقهم فى النهوض بمصالح أعضائها ، باستخدام كافة الأساليب التى دأبوا على استخدامها ضد « المستغلين » الأفراد الذين انتزعت منهم ملكية مشروعاتهم الخاصة . ولم يُنظر إلى هذا الإجراء على أنه مجاف للمنطق . ذلك لأن الغرض من نقابات العمال ، هو أن تقاوم التنظيم التعسّفى للعمال ، سواء فرضته الدولة ، أو فرضه الرأسمالى .

ومن سوء الحظ ، أن مقاومة العمال الخضوع لتنظيم تعسّفى – على أيدى أصحاب الأعمال – قد أدت بهم إلى إخضاع أنفسهم لتنظيم تعسّفى من صنع أيديهم . فإنهم فى مقاومتهم مصير التحوّل إلى آلات بشرية فى المصنع ، قد فرضوا على أنفسهم مصير العمل كآلات بشرية فى نقاباتهم . إن هذا المصير لا مهرب منه . هذا ولن يجدوا عزاءً فى أن عدوهم القديم المألوف – أى رب العمل الفرد – أصبح الآن هو أيضاً ، يخضع للتنظيم المفروض على الجماعة ، وأنه هو نفسه قد فقد كيانه واستحال – على غرارهم – إنساناً آلياً .

وهكذا ، لم يعد خصم العمال طاغية بشرياً تدركه الأفهام وتُصبّ على رأسه اللعنات وتحطم نوافذ بيته ، وقلما يفقد الجمهور صوابه . بل تحول خصم العمال — فى نهاية المطاف — إلى سلطة جماعية غير شخصية ، أعظم اقتداراً وأشد مكراً من أى كائن بشرى تمقته النفس وتبغضه :

وإذا كان إخضاع العمال أنفسهم لتنظيم تعسّفى يلتزمون به ، نذيراً بالسوء ، فإنه لأمر يبعث على الأسى ، أن نرى الطبقة الوسطى فى الغرب وقد شرعت تسلك الطريق الذى ما برحت طبقة عمال الصناعة فى الغرب تسير فيه منذ أمد طويل :

إذ يعتبر القرن الذى انتهى عام ١٩١٤ ميلادية ، العصر الذهبى للطبقة الوسطى فى الغرب . بيد أن العصر الجديد قد شهد إنهيار هذه الطبقة — بدورها — فى نفس البؤس الذى حكمت به الثورة الصناعية على طبقة عمال الصناعة . لقد كانت تصفية البورجوازية فى روسيا السوفييتية ، نذيراً مثيراً . ولكنك واجد دليلا أدق لما ستأتى به الأيام فى التاريخ الاجتماعى المعاصر لبريطانيا وغيرها من البلاد التى يتكلم أهلها الإنجليزية ؛ حيث لم تنشب أية ثورة سياسية .

وإن أبرز الخصائص السيكلوجية المميزة للطبقة الوسطى فى الغرب — إذا قورنت بطبقة « العمال » سواء الكتابيين أو اليدويين — إن أبرز هذه الخصائص السيكلوجية ، تتجلى فى إقبال الطبقة الوسطى الشديد على العمل .
بيد أن الحال ، قد تغيّر كثيراً عما كان عليه من قبل . ويطالعنا فى هذا الشأن ، مثال عظيم ضئيل فى قدره عظيم فى مغزاه :

ففى عام ١٩٤٩ ، أخفقت البيوت المالية فى والستريت Wall Street[1] بمانهاتن ، قلعة الرأسمالية فى الولايات المتحدة ، فى حثّ كتّاب الاختزال

(١) حى المال والأعمال فى نيويورك . (المترجم)

– يبذل مكافآت سخية عن ساعات العمل الإضافية – على إعادة النظر فى قرارهم الجماعى بالامتناع عن العمل فى مكاتبهم صباح أيام السبت . وكان أرباب الأعمال توّاقين إلى التضحية بعطلتهم يوم السبت ، بغية إجتناء الربح الذى يفقدونه إذا سلموا بإنقاص فترة العمل الأسبوعى . ولكنهم لم يعودوا قادرين على أن يؤدوا أعمالهم دون وجود عمال الاختزال إلى جانبهم يساعدونهم فى أعمالهم . وألفوا أنفسهم عاجزين عن إقناع معاونيهم هؤلاء ، الذين لاغنى عنهم فى أداء الأعمال الحالية للمال ، إقناعهم بأن العمل صباح السبت من كل أسبوع أمر يستحق التضحية . فقد أصبح كتّاب الاختزال مقتنعين بأن راحة إضافية ليوم – أو حتى لنصف يوم – لها عندهم قيمة أهم من مغريات مالية تُبذل لسحب قرارهم . إذ لم تعد الأجور الإضافية ذات نفع لهم ، ما دام الحصول عليها يتطلب التضحية بوقت فراغ إضافى ينفقون فيه تلك الأجور . وأنهم – فى هذه المفاضلة بين المال ومتع الحياة – قد آثروا متع الحياة على حساب المال . ولم يفلح أرباب الأعمال فى إقناعهم بالعدول عن رأيهم .

ولم يأت عام ١٩٥٦ ، حتى أخذ يظهر للعيان شيء أبعد من مسألة إنصياع كتّاب الاختزال – تحت تأثير المال – لوجهة نظر الماليين فى وال ستريت ، ذلك هو احتمال تحوّل رجال المال فى نهاية المطاف – بدافع من الضيق الاقتصادى – إلى وجهة نظر كتّاب الاختزال ، فقد بدأ يهب على حى المال فى نيويورك ، نسيم سبق أن لطّف حرارة القلوب القاسية لرجال الأعمال فى حى المال فى « لمبارد ستريت » بلندن .

وقد ضاقت – باستمرار – خلال القرن العشرين فُرص الأعمال المربحة أمام الطبقة الوسطى فى مراكز النشاط الرأسمالى فى الغرب ، مركزاً بعد آخر ، وكان لهـــذه النكسات الاقتصادية آثار زلزلت معنويات الطبقة الوسطى : فإن هذه الحماسة للعمل التى عُرفت عن هذه الطبقة قد جهّت بفعل

القيود المتزايدة فى مجال النشاط الخاص . كما أن التضخم والضرائب المرهقة قد جعلا من فضيلتيها التقليديتين – الكدح فى سبيل الكسب والتوفر على الادخار ،– جعل منهما أمراً لا معنى له . وتضافر إرتفاع تكاليف المعيشة ، مع ما صاحبه من ارتفاع مستوى المعيشة – فى الوقت نفسه – على خفض حجم عائلات الطبقة المتوسطة . وجاء حرمانها من الالتحاق بالوظائف العامة ، مهدداً بزعزعة كفايتها المهنية ؛ كما جاء فقدانها وقت « الفراغ » منذراً بتقويض ثقافتها . وبالإضافة إلى ما تقدم ، كابدت المرأة من الطبقة الوسطى متاعب أشد مما كابده الرجل . والمرأة هى الأم التى اعتمدت عليها – كما دلّت كتب السيّر – الطبقة المتوسطة العالمية فى الدفاع عن كيانها .

وقد ترتب على هجر الطبقة المتوسطة – بالتدريج – الأعمال الخاصة ودخولها فى الوظائف العامة أو ما يعادلها – سيكلوجيا – من وظائف المؤسسات الكبرى الغير الحكومية ؛ ترتبت على ذلك مكاسب للمجتمع الغربى ، كما ترتبت عليه خسائر .

فأما عن المكاسب : يتمثل المكسب الأساسى فى إخضاع الحافز الذاتى للكسب ، للحافز الغيرى للخدمة العامة . ويتأتى قياس القيمة الاجتماعية لهذا التغيّر ، بإمعان النظر فى نتائج ما أسفرت عنه التغيّرات التى تناظره فى تاريخ الحضارات الأخرى . وتطالعنا مثالا ؛ الصحوة الاجتماعية التى إنبعثت عن إنشاء الإمبراطوريات العالمية فى تاريخ الحضارات : الهلينية والهندية والصينية . إذ قد أنجزها وميّزها بطابعه – إلى حد كبير – توجيه مواهب طبقة دأبت على النهب والسلب ، إلى الخدمة فى الوظائف العامة . ومصداقاً لذلك ، استطاع أغسطس وخلفاؤه أن يجعلوا من رجال الأعمال الرومانيين الجشعين ، موظفى حكومة أخيار . وصنع الإمبراطور الصينى « هان ليو بانج » وخلفاؤه « موظفين صالحين من أعيان الطبقة الإقطاعية النّهابة . وصاغ كورنواليس وخلفاؤه « موظفين صالحين من الوكلاء التجاريين الجشعين لشركة الهند الشرقية البريطانية .

وأما عن الخسائر : فإنه على الرغم من إختلاف الوسائل فى كل من هذه الحالات ، أسفرت النتائج عن مظاهر ضعف بارزة . ويمكن تفسير فشلها — فى النهاية — بالبلبلة الفكرية الكامنة فى نفوس المشتغلين بالخدمة العامة ، حيث تلقى أسمى الفضائل وهى فضيلة النزاهة ، ولكن يضعفها الافتقار إلى التحمّس للعمل ، وعزوف عن اتخاذ موقف المبادأة أو التعرّض للمخاطر . وتتبدى هذه المظاهر — فى الوقت الحاضر — فى المحيط العام لموظفى الخدمة المدنية العامة ، من خلال استقراء أحوال الطبقة المتوسطة الغربية أثناء القرن العشرين . ولا يبدى هذا الاستقراء ما يبشّر بنجاحها فى القيام بالعبء الهائل الذى لاشك ستواجهه إن آجلا أو عاجلا ، وهو عبء تنظيم الحكومة العالمية والمحافظة عليها .

فإذا مارسنا دوافع المنحى التفكيرى للخدمة العامة ، نجدها — فى جوهرها — إستجابة لتحدّ قوامه ضغط على النفوس البشرى ، لا يقل فى شدته ، عما لو كان مصدر هذا الضغط مادياً لا روحانياً . ذلك لأن تطويع الجهاز الحكومى للدولة بلغت درجة عالية من التنظيم وتحكم ملايين كثيرة من البشر ، عمل شاق مدمّر للنفس البشرية ، شبيه بتطويع مجموعة من آلات تُدار فى مصنع ، إدارة علمية مثالية .

وفى الواقع ، قد تكون الإجراءات الحكومية أعظم فى التعمير أثراً ، من الحديد بالنسبة للمبانى . ولقد تغلغلت هذه الإجراءات فى نفوس موظفى الدولة . وبالمثل ، يماثل الدور للذى يؤديه نظام حزبى جامد فى مجالس تشريعية مُثقلة بالعمل ، الدور الذى تقوم به الأنظمة الشكلية والروتين ، فى حكومة مثقلة بأعباء المسئوليات .

ولم يكن عسيراً ، إدراك دلالة هذه الاتجاهات جميعاً لمستقبل النظام الرأسمالى المألوف . إذ ما برح رصيد الطبقة الوسطى الغربية من الطاقة السيكلوجية التى اكتسبتها قبل الثورة الصناعية ، يُشكل القوة الدافعة للنظام

الرأسمالى . وإذا كانت هذه الطاقة قد استُقطبت اليوم ثم تحوّلت فى نفس الوقت من النشاط الفردى الخاص إلى الخدمة العامة ؛ فإن هذا التحوّل نذير بنهاية النظام الرأسمالى .

« إن الرأسمالية فى جوهرها ؛ عملية تحوّل اقتصادى . . . إذ بانتفاء الابتداع ، يختفى عنصر أرباب الأعمال . وباختفاء دور أرباب الأعمال الفذ ، تختفى الأرباح الرأسمالية من الوجود ، ويزول معها الدافع الرأسمالى . إن المناخ الذى تنمو فيه الثورات الصناعية – أو « التقدم » بمعنى آخر – هو وحده المناخ الذى تستطيع الرأسمالية العيش فيه . . إن الرأسمالية المستقرة شىء يتناقض مع طبيعتها »[1] .

وقد بدا كما لو أن ظاهرة التنظيم الدقيق التى تفرضها التكنولوجية الصناعية ؛ أحرى بأن تسلب الحيوية ، من روح الاستثمار الخاص الموروث من عهد ما قبل الثورة الصناعية . وقد أثار هذا الاحتمال سؤالا آخر :

هل يستطيع النظام التكنولوجى القائم على الصناعة الآلية أن يظل حيّا بعد انهيار النظام الاجتماعى القائم على النشاط الخاص ؟

وإن لم تُكتب له الحياة ؛ فهل تستطيع الحضارة الغربية – نفسها – أن تظل فى الوجود « بعد انقراض الصناعة الآلية التى قدّمت لها تلك الحضارة ؛ رهانتها ؛ وذلك حين سمحت لسكانها بالتكاثر – إبان عصر الآلة – إلى مدى أبعد مما يستطيع احتماله أى اقتصاد لا يقوم على الصناعة ؟

لا مشاحة فى أن النظام الصناعى لا يستطيع أن يحيا ويعمل ، إلا حينما يتوافر رصيد – من الطاقة الإبداعية الذاتية – يدفعه إلى العمل . ولقد تمثّلت هذه الطاقة الدافعة – حتى اليوم – فى الطبقة المتوسطة .

---

(١) Shumpeter, J.A. : Business Cycles (New York 1939, McGrw-Hill vols II p. 103.

وهكذا ، يبدو ان السؤال النهائى هو : هل ثمة مصدر آخر للطاقة الذاتية يتأتى استخدامه لتحقيق نفس الغايات الاقتصادية ويستطيع العالم الآخذ بأسباب الحضارة الغربية الاغتراف منه ، إذا لم يكن ثمة مناص من استقطاب طاقة الطبقة المتوسطة أو تحويل اتجاهها ؟

فإذا كان ثمة بديل عملى يمكن التوصّل إليه ، ففى وسع العام أن يتطلع — وهو رابط الجأش — إلى نهاية النظام الرأسمالى . أما إذا لم يتوافر هذا البديل ، فإن المستقبل ملىء باحتمالات القلق والاضطراب .

وبالأحرى ، إذا كانت « مكنكة » الصناعة قد تطلبت فرض التنظيم الدقيق ، وإذا كان هذا التنظيم الدقيق قد استلب الروح من الطبقة العاملة فى الصناعة ومن الطبقة الوسطى بعدها ، فهل فى وسع أى يد بشرية — أيا ما تكون — أن تعالج الآلة الجبارة دون أن تحيق بها المكاره ؟

٣ — محاولات بديلة لتحقيق التوافق الاجتماعى

عولجت المشكلة الاجتماعية التى تواجه البشر من زوايا مختلفة فى البلاد المختلفة ؛ إحدى هذه الزوايا فى أمريكا الشمالية ، والثانية فى الاتحاد السوفيتى ، والثالثة فى غرب أوروبا :

١ — فأما عن النمو فى أمريكا الشمالية ، فلعلها قد استوحته من مَثَل أعلى مناطه تشييد فردوس أرضى فى عالم جديد . ويقوم هذا الفردوس الأرضى على أساس من النشاط الخاص ، آمن سكان أمريكا الشمالية (ونعنى شعب الولايات المتحدة والمتكلمين بالإنجليزية فى كندا) بقدرتهم على الاحتفاظ به سليما معافى ، مهما يكن من أمر مصيره فى البلاد الأخرى . ويتم ذلك برفعهم المستوى الاقتصادى والاجتماعى لطبقة الأجراء إلى مستوى الطبقة المتوسطة . ومن ثم ، هدفوا إلى إبطال مفعول ما وصفناه فى القسم السابق بالآثار الطبيعية الناجمة عن تعميم الآلات فى الصناعة .

قد يكون هذا الإيمان ملهما دافعا إلى العمل ، ولكنه متناه فى البساطة ، يقوم على بضعة أوهام يمكن أن تنحصر كلها فى وَهْم أساسى هو وَهْم : العزلة .

وتفسير ذلك ، أن العالم الجديد ، ليس جديداً كما تمنى المعجبون به أن يكون . ذلك لأن الطبيعة البشرية ـ وتحمل بين طياتها الخطيئة الأصلية[1] ـ قد عبَرت المحيط مع المهاجرين الأوائل وأورثوها أخلاقهم . بل أنه حتى فى القرن التاسع عشر ـ حين كان يبدو أن مبدأ العزلة قابل للتطبيق على الصعيد السياسى ـ كان هذا الفردوس الأرضى يحوى بين ظهرانيه فيضا من الحيّات[2] . حتى إذا تقدم القرن العشرون وعبس وجه الزمان ، اتضح ـ شيئاً فشيئاً ـ أن ثُنائية العالم ـ أى جديد وقديم ـ نظرية لاتتمشى والحقائق . فلقد أصبح الجنس البشرى بأسره ، معرّضا لمصير واحد ، وتبين أن فلسفة للحياة غير صالحة للتطبيق على الجنس البشرى كله ، لن يتأتى تطبيقها ـ على طول المدى ـ على أى جزء منه .

٢ ـ أما أسلوب الروس فى تناول مشكلة الصراع الطبقى ، فقد استمدوه (مثلما فعل الأمريكيون) من مثلهم الأعلى فى إقامة فردوس أرضى . وتبلور هذا الأسلوب (مثل الأسلوب الأمريكى) فى سياسة ترمى إلى التخلّص من الصراع الطبقى باستبعاد الانقسامات الطبقية .

وهنا تنتهى المشابهة بين الأسلوبين ، الروسى والأمريكى : إذ بينما يجدُ الأمريكيون فى درج الطبقة العاملة فى الصناعة بالطبقة الوسطى ؛ عمل الروس على إبادة الطبقة الوسطى ، وحرّموا جميع ضروب الاستثمار الخاص ؛ ولم يقتصر الحظر على الرأسماليين ، بل تعداهم إلى نقابات العمال .

---

(١) أى خطيئة آدم وحواء بمخالفتهما أوامر الله تعالى . وعند العقيدة المسيحية أن هذه الخطيئة قد ورثتها البشرية ، وأصبحت لاصقه بها . (المترجم)

(٢) يشير الأستاذ المؤلف هنا إلى الحيّة التى أسرّت إلى حواء بارتكاب المعصية . (المترجم)

وتتضمن السياسة الروسية الشيوعية عناصر قوية ، عجز خصوم الاتحاد السوفيتي من الغربيين عن التهوين من شأنها ؛ تأتي الأيديولوجية الشيوعية – ذاتها – في مقدمتها ، وهي أعظمها شأنا . وقد تثبت الأيام – على طول المدى – أن هذه الأيديولوجية ، قد تصلح بديلا من العقيدة الدينية لاتقنع به النفس . إلا أنها تقدّم – في المدى القصير – للنفوس المهجورة القلقة ، إشباعاً لإحدى احتياجات الإنسان الدينية العميقة ، بفضل تقديمها له هدفا يسمو على أغراض الإنسان الشخصية الحقيرة[1] .

فكان أن أصبحت رسالة تحويل العالم إلى الشيوعية – والحالة هذه – أعظم بهجة من رسالة إبقائه ميدانا صالحا لتحقيق حق المرء في إجتناء الربح ، أو حقه في الاضراب . إن « روسيا المقدسة »[2] أصبحت نداءً أعظم استثارة للحرب من نداء « أمريكا السعيدة » .

وثمة نقطة قوية أخرى في الأسلوب الروسي هي أن موقع روسيا الجغرافي ، جعل اعتناق الروس « وَهْم العزلة » أمراً مستحيلا . إذ ليس لروسيا « حدود طبيعية » . بالإضافة إلى أن الماركسية – كما يبشر بها الكرملين[3] – تجد هوى قوياً عند جمهرة فلاحي العالم : من الصين إلى بيرو ، ومن المكسيك إلى أفريقيا الاستوائية . ذلك لأن روسيا بحالتها الاجتماعية والاقتصادية ، أقرب كثيراً من الولايات المتحدة لقلوب ثلاثة

---

(١) اقتبس الأستاذ المؤلف في الأصل – تعبيراً عن رأيه – الآيات ٢٤ – ٢٦ من الإصحاح الحادي عشر من « إنجيل لوقا » وتذكر « متى خرج الروح النجس من الإنسان ، يجتاز في أماكن ليس فيها ماء يطلب الراحة . وإذ لا يجد ، يقول أرجع إلى بيتي الذي خرجت منه . فيأتي ويجده مكنوساً مزيّناً . ثم يذهب ، ويأخذ سبعة أرواح أخَر أشرّ منه فتدخل وتسكن هناك . فتصير أواخر ذلك الإنسان أشر من أوائله » . (المترجم)

(٢) لقب كان يطلق على روسيا القيصرية . (المترجم)

(٣) تعني كلمة كرملين بالروسية ، قلعة . لكن أصبح يراد بها مقر الحكم بموسكو حيث يجتمع السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي ، ومجلس الوزراء وغيرهما من هيئات الدولة الرئيسية . (المترجم)

أرباع الجنس البشرى الكبيرة ، تلك التى تتنافس الدولتان المتنابذتان على خطب ودها . وإن فى وسع روسيا أن تتباهى — وتتبدى للعيان فى هذا صادقة — بأنها قد أنقذت نفسها بجهدها ، وأن فى وسعها بالمثل إنقاذ بروليتارية العالم ، باحتذائها مثلها هذا .

هذا ، وإن ثمة جزءاً من هذه البروليتاريا ، يقيم داخل الولايات المتحدة نفسها . ولا تخفى طائفة من الدوائر الأمريكية المعادية للشيوعية خشيتها من أن يجد إغراء الشيوعية هدى فى نفوس أفراد هذه البروليتاريا الأمريكية ؛ بل تنقلب خشية هذه الدوائر فى بعض الأحيان إلى نوع من الهستريا :

٣ — أما أسلوب أوربا الغربية فى تناول مشكلة الصراع الطبقى — وهو أسلوب نراه أكثر ما يكون وضوحاً فى بريطانيا والدول الاسكندنافية — فإنه يختلف عن الأسلوبين الأمريكى والروسى ، من ناحية أنه أقل منهما تزمتا .

لقد اتضح للطبقة المتوسطة فى الغرب أنه يستحيل عليها — من الناحية العملية — أن تحذو حذو الطبقة المتوسطة فى أمريكا الشمالية ، فى بذلها عن طواعية للطبقة العاملة ، جماع مسراتها ممثلة فى مستوى معيشتها ، ووفرة من الفرص لإشباع طموحها الشخصى . سيما وأن أقطار الغرب كانت بسبيل فقدانها السلطان والثراء لتستأثر بهما الدولتان المماردتان[1] اللتان قامتا على أطراف العالم الغربى .

وأكثر من ذلك إمعانا فى الاستحالة العملية ؛ أن يقدم للطبقة العاملة فى الصناعة — فى غرب أوروبا — النظام الشيوعى بحذافيره .

وعلى هذا ؛ فإن الأسلوب السائد فى بريطانيا ودول سكانديناوا هو محاولة لإيجاد أسلوب وسط ، عن طريق تجربة الجمع بين النشاط الفردى

---

(١) أى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى . (المترجم)

والتنظيم الفردى والتنظيم الحكومى الدقيق بما يحقق العدالة الاجتماعية . وبات يطلق على تلك السياسية اسم « الاشتراكية » . وهو تعبير كان موضع تمجيد المعجبين به من البريطانيين ، بينما كان موضع إزدراء نقاده من الأمريكيين .

أما النظام البريطانى المعروف بـ « دولة الرفاهية » فقد شيد لبنة لبنة . وتعاونت فى بنائه – عن طريق التشريع – جميع الأحزاب السياسية ، عن رضى واختيار .

٤ – الأعباء المتوقعة للعدالة الاجتماعية

يستحيل أن تتوافر للإنسان حياة اجتماعية دون أن يكفل له قسط من الحرية الشخصية ، ومن العدالة الاجتماعية معاً .

والحرية الشخصية ، شرط لا غنى عنه للإنجازات البشرية ، أيا ما يكون نوعها ، خيراً كان أم شراً . على حين أن العدالة الاجتماعية هى القاعدة الأساسية ، التى تحكم التعامل بين البشر . وإذ تدفع الحرية الشخصية الطليقة بأضعف الناس إلى أسوأ منزلة ، لن يتأتى تطبيق العدالة الاجتماعية على علاتها ، بدون كبت الحرية التى بدونها تنتفى طاقة الإبداع من الطبيعة البشرية .

ومن ثم ، تقع جميع النظم الاجتماعية المعروفة فى موضع بين هذين الطرفين النظريين المطلقين . ويطالعنا – من قبيل المثال – عنصرا الحرية الشخصية والعدالة الاجتماعية ممتزجين بنسب مختلفة فى دستورى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى الساريين فى الوقت الحاضر . ولقد اصطلح فى أنحاء العالم الآخذ بأسباب الحضارة الغربية فى منتصف القرن العشرين على تسمية هذا المزيج – أيا ما تكون نسبته – بـ « الديمقراطية » . إذ غدا هذا الاصطلاح المقتبس من لغة السياسة عند اليونان – حيث كان يستخدم فى معنى التحقير – غدا شعاراً يلتزم به كل سياسى يحترم نفسه .

وباستعماله على هذا النحو ، أصبح اصطلاح « الديمقراطية » مجرد ستار

من الدخان لإخفاء الصراع الحقيقى بين المثلين الأعليين : الحرية والمساواة ؛ والمبدأ الوحيد الذى اكتُشف للتوفيق بين هذين المثلين الأعليين المتعارضين ، هو مبدأ وسط بينهما وهو « الإخاء » . وإذا كان خلاص الإنسان اجتماعيا يعتمد على أمله فى تحويل هذا المبدأ السامى من شىء نظرى إلى عالم الحقيقة ، فسيتضح للإنسان أن حذق السياسين وتفننهم لم يحملاه بعيداً . ذلك لأن تحقيق مبدأ الإخاء « ما برح بعيدا عن متناول البشر ؛ طالما وثقوا بقوتهم وحدها ولم يعتمدوا على سواها . « إن أُخوّة الإنسان منبعث من أبوة الرب » .

وإذ أصبحت الحرية الشخصية والعدالة الاجتماعية تتأرجحان فى كفتى الميزان ؛ فقد ألقت التكنولوجية بثقلها فى كفة العدالة الاجتماعية ، وهى خصم الحرية الشخصية ؛

ويمكن تصوير هذا الاستنتاج ودعمه ؛ بالتطلع إلى حالة مجتمع آتية ، وقد تبدت للعيان فعلا ؛ وإن لم تصبح قريبة المنال بعد :

فلنفترض — تيسيراً للمناقشة — أن أسلوبا تكنولوجيا جباراً ، قد أنجز بالفعل الأعمال الضخمة التالية من منجزاته . فإن التكنولوجية حين تضع القنبلة الذرية فى يد الإنسان ، تضطره حتما إلى إبطال الحرب . ثم إنها تعاون — حتما — على خفض معدل الوفيات إلى أدنى حد لم تصل إليه البشرية من قبل ؛ وذلك بفضل توزيعها منافع الطب الوقائى على جميع الطبقات والأجناس ، بلا أدنى تمييز .

ولنفترض كذلك — كما كان محتملا فعلا — أن هذه التحسينات السمحة فى الظروف المادية للحياة ؛ قد سارت بسرعة كبيرة عجزت التغيرات الاجتماعية عن مجاراتها ؛ فلنتصور أن ثلاثة أرباع البشر من الفلاحين لا يزالون محتفظين بنمط حياتهم المأثور عنهم ، ألا وهو تكاثر نسلهم بنسبة تفوق مقومات معيشتهم . ويقتضى هذا الافتراض — بدوره — أن نتصور أنهم بتكاثر أعدادهم لا بد مستهلكون كل المقومات الإضافية للمعيشة التى

وضعها العلم بين أيديهم ، وذلك بقيام « نظام عالمي » يجلب معه ثمار السلام ؛ وفي طليعتها : الأمن والصحة ، وتطبيق العلم لإنتاج الطعام .

ولسنا بمغالين في تصور هذه النُّذُر المشئومة ، فهي ليست سوى إنعكاساً في قابل الأيام لاتجاهات تجرى منذ أمد طويل . وتؤيد وجهة نظرنا هذه ؛ دراسة أحوال الصينيين . إذ ما برح تكاثر سكان الصين يستوعب زيادة وسائل المعيشة التي ترتبت على زراعة محصولات غذائية لم تعرفها البلاد ، وقد جلبت من الأمريكيتين خلال القرن السادس عشر ؛ كما كانت نتيجة لما نعمت به البلاد سلام في عصر الإمبراطورية المانشوكية في القرن السابع عشر . فإنه بفضل توطين الذرة في الصين حوالي عام ١٥٥٠ ميلادية والبطاطا حوالي عام ١٥٩٠ م والفول السوداني بعد ذلك ببضعة أعوام ؛ تزايد السكان من ٦٣٫٥٩٩٫٥٤١ نسمة وفقاً لتعداد ١٥٧٨ م إلى الرقم التقديري ١٠٨٫٣٠٠٫٠٠٠ عام ١٦٦١ . ثم ارتفع عدد السكان بعد ذلك إلى ١٤٣٫٤١١٫٥٥٩ عام ١٧٤١ وإلى ثلاثمئة مليون في منتصف القرن التاسع عشر فإلى ستمائة مليون في منتصف القرن العشرين . ولا تُبدى هذه الأرقام مجرد زيادة عادية ، لكنها تعبّر عن زيادة متواصلة تمّت وفقاً لمتوالية هندسية ، رغماً عما حلّ بالبلاد من أرزاء دورية مثل الطاعون والأوبئة والمجاعات والمعارك الحربية والقتل والموت المفاجئ .

ونفس الشيء حدث في الهند وإندونيسيا وغيرها من الأقطار .

فإذا كان هذا قد حدث بالأمس ، فما هي احتمالات الغد ؟

إن الخصب والازدهار المترتبين على التطبيق العلمي « قد أنتجا بالفعل وفرة ما برحت تفنّد تشاؤم مالتس[1] حتى اليوم . إلا أن مساحة الأرض محدودة ، وهذا أمر لا يمكن التغلّب عليه . ويترتب عليه وضع حد

---

(١) عالم اقتصادى إنجليزى قرر بأن السكان يتزايدون وفقاً لمتوالية هندسية ، بينما تتزايد الموارد الطبيعية وفقاً لمتوالية حسابية . (المترجم)

للزيادة المطّردة فى إنتاج الموارد الغذائية للبشر . ويبدو من المحتمل ، أن تصل الأرض إلى حدّها الأقصى فى إنتاج الطعام قبل أن ينبذ الفلاحون عادتهم فى الإقبال على التكاثر .

وإذ تتنبأ بتحقيق آراء مالتس بعد انقضاء عصره ؛ فأحرى بنا التنبؤ كذلك بقيام نوع من السلطة العالمية تأخذ على عاتقها أن تكفل الاحتياجات المادية الأساسية لسكان الأرض جميعاً ، خلال فترة « المجاعة الكبرى »[1] التى سيواجهها العالم . ولن يصبح الأطفال وقتئذ مسألة خاصة تتعلق بالزوجات والأزواج وحدهم ، بل تغدو من اختصاص سلطة عامة لا حد لسلطانها العارم .

وحرى بالذكر ؛ أن أبعد ما بلغته الحكومات حتى الآن فى تطفلها على هذا الحرم المقدس من الحياة الخاصة ؛ هو منحها مكافآت سلبية أو إيجابية[2] لأرباب الأسر الكبيرة الحجم . وذلك إذا كانت السلطات الحكومية حريصة على توفير القوة البشرية للعمل أو لتكون وقوداً للحرب . وما كان لها أن تتصور أن تحرّم على رعاياها تقييد حجم عائلاتهم ، بأكثر من إقدامها على إرغامهم على التكاثر . وحقاً ؛ ما برحت حرية الإنسان فى الإنجاب — أو الامتناع عنه — قضية مسلّماً بها دون جدال ؛ حتى أنه — فى وقت متأخر نسبياً عام ١٩٤١ — لم يخطر على بال الرئيس روزفلت أن يرفع عدد الحريات البشرية الأصلية التى أعلنها فى ميثاق الأطلسى « من أربعة إلى خمسة » بتسجيله — صراحة — حق الأبوين المقدس فى تحديد حجم عائلاتهما . ويبدو الآن كما لو أن المستقبل سيظهر ما كان فى إغفال روزفلت لهذه المسألة من منطق غير مقصود . إذ قد بدا — أخيراً — أن الحرية

---

(١) وهى الفترة التى يتوقع المؤلف مجابهة العالم لها بفعل زيادة السكان زيادة تفوق موارد الطعام . (المترجم)

(٢) الإعفاء من الضرائب هو قاعدة المكافآت السلبية . أما المكافآت الإيجابية فإنها تتمثل فى زيادة المرتبات ومنح المكافآت النقدية أو العينية . (المترجم)

الجديدة التى نادى بها وهى « التحرر من العوز » لن يمكن كفالتها للبشر إلا إذا نزعت منهم « حرية الإنجاب » .

أما كيف يتحقق هذا ، فمشكلة تثير طائفة من الأسئلة البالغة الدقة :

إذا جاء الوقت الذى يصبح فيه — حقاً — إنجاب الأطفال مسألة تتولاها بالتنظيم سلطة خارجية ، فكيف ينتظر أن تستقبل أغلبية البشر من الفلاحين هذا القيد على حريتهم الشخصية ؟

ومن الناحية الأخرى ؛ ترى ما هو موقف أقلية البشر التى حررتها التكنولوجية الصناعية فعلا من إسار عادة لم تكن قط موضع نقاش ، عادة الفلاحين فى التكاثر ؟

يُرجَّح نشوب جدال مرير بين هذين القطاعين من الجنس البشرى ؛ فإن لكل جانب ما يشكوه من الجانب الآخر . إذ يستنكر العمال الصناعيون أن يكونوا مسئولين — أدبياً — عن إعاشة جماهير الفلاحين التى لا يقف تكاثرها عند حد . أما الفلاحون فسيتملكهم الأسى لما يتهددهم من فقد حريتهم التقليدية فى تكثير نوعهم ؛ بحجة أن ذلك هو وحده البديل من الموت جوعاً . فإنهم سيطالبون ببذل هذه التضحية وقتما تزداد الهوة — على الأرجح — إتساعاً عما كانت عليه ، بين مستوى حياتهم الهزيل ، ومستوى حياة العمال الصناعيين : فى البلاد الغربية ، أو البلاد الآخذة بأسباب الحضارة الغربية .

والحق إن الاتساع المطرد لهذه الهوة ؛ هو إحدى النتائج التى يجب توقعها وذلك إذا صدقت نبوءتنا عن أنه فى الوقت الذى يصل فيه إنتاج العالم من الأغذية أقصى مداه ، ما فتئ الفلاحون المتكاثرون يستهلكون الموارد الإضافية من الغذاء لإعاشة أفواههم المتزايدة ، فى حين يستخدم العمال الصناعيون هذه الموارد فى رفع مستوى معيشتهم .

وفى هذه الحالة ، لن يرى الفلاحون داعياً – قبل أن يُطلب إليهم التخلّى عن أقدس حقوق الإنسان – أن تُطالب الأقلية المتخمة ، بالتخلّى عن نصيب أكبر من فائض مواردهم التى يسيل لها لعاب الفلاحين . إلا أن هذا المطلب لابد سيصطدم بالصفوة من أهل الغرب ، إذ يعدونه أمراً سخيفاً مجافياً للعقل .

فما هو الداعى لتحميل الصفوة الغربية (أو ذات الصبغة الغربية ، وهى التى تدين برضائها إلى حصافتها وبعد نظرها) ، وزر صدوف أهل الريف عن كبح جماحهم الجنسى ؟

يبدو هذا الطلب أشد مجافاة للعقل ، إذا أُخذ فى الاعتبار أن التضحية بمستويات المعيشة فى المغرب لن يستبعد طيف المجاعة العالمية ، لكنه سيؤخره فترة طفيفة من الزمن تؤدى التضحية خلالها إلى النزول بأعلى الطبقات مستوى ، إلى مستوى الأقوام المتخلفين .

إن ردّ فعل – بمثل هذه القسوة – لن يعين على التوصّل لحل المشكلة . وحقا ، نستطيع أن نستشف منذ الآن ، بأن ردّ الفعل الغالب عند الإنسان فى الغرب – إن حدثت مثل هذه المجاعة الغذائية التى تنبأنا بحدوثها – لن يتمشى وهذه الخطوط الثقيلة الوقع . إذ تؤلّف التقديرات الحصيفة للمصلحة الذاتية المستنيرة ، والنزعة الإنسانية فى التخفيف من آلام البشر ، والشعور بالتزام أدبى قد يكون هو التراث الروحى الباقى من عقيدة مسيحية نُبذت ، يؤلف هذا كله مزيجاً من الدوافع التى تُلهم – بالفعل – طائفة من الجهود الدولية لرفع مستوى الحياة فى البلاد الأسيوية والإفريقية . وإن من شأن هذه الدوافع الكريمة أن يُدفع الإنسان فى الغرب إلى أن يؤثر أداء دور السامرى الطيب على دور الكاهن أو اللاوى[1] .

---

(١) السامرى الطيب : لقب يطلق على الإنسان الخيّر . والتشبيه مقتبس من إنجيل لوقا – الإصحاح العاشر آيات ٣٠ – ٣٧ . وتذكر أن لصوصاً اعتدوا على أحد الأفراد –

فإن حدث أن قام هذا الجدل حينئذ ؛ يحتمل أن ينتقل من مجال الاقتصاد والسياسية إلى مجال الدين ، تبعا لاعتبارات كثيرة .

إن إصرار أهل الريف على تكثير نسلهم إلى أقصى حد تُتيحه لهم مواردهم من الغذاء ؛ ونتيجة اجتماعية لعامل دينى لايمكن تمديله ، من غير إحداث تغيير فى موقف أهل الريف من الدين ونظرتهم إليه .

إن نظرة أهل الريف للدين (تلك النظرة التى جعلت عادة الفلاحين فى التكاثر على مثل هذا الصمود للجدال) قد لا تكون خالية من المنطق فى أصولها ، فقد كانت بقية من ظروف مجتمع بدائى .

وقد قضت التكنولوجية الآلية على البيئة الاجتماعية والاقتصادية التى أضفت معنى اقتصاديا واجتماعيا على تمجيد الإخصاب العائلى . بيد أن التشبث بتلك العقيدة بعد أن فقدت كل معنى لها ؛ يعتبر نتيجة البطء النسبى لخطى النفس فى مجال الإدراك اللاشعورى ، إن قورن ذلك بسرعة خطى العقل والإرادة .

وهكذا ؛ تصعب رؤية حل للمشكلة العالمية المتصلة بتزايد السكان ، زيادة تفوق موارد الطعام[1] ؛

على أن أهل الريف ليسوا وحدهم طرفاً فى هذا الموقف الذى من شأنه أن يُحدث تحوّلا فى قلوب البشر ؛ إذا قُدّر للبشر أن يجدوا مخرجاً سعيداً من هذه الكارثة التى تنتظرهم . وإذا كان الإنسان « لايعيش بالخبز وحده » ؛ فأحرى بالأقلية الغربية التى تعيش فى رغد من العيش ، أن تقتبس شيئاً من المزاج الروحى لشعور أهل الريف .

= وتركوه بين حى وميت . فمر به كاهن فلم يعره إهتماماً ، كما مر به أحد اللاويين (رجال الدين اليهود) فلم يحفل بشأنه . ثم عطف عليه سامرىّ فضمّد جراحاته وأركبه دابته وأتى به إلى فندق وأوصى به صاحبه خيراً ، وأبدى استعداده لدفع جميع نفقات إقامته بالفندق .

(المترجم)

(١) جوهر فكرة الاقتصادى الإنجليزى « مالتس » كما بينا فيما سبق . (المترجم)

إن إنسان الغرب قد عرّض نفسه لخطر خسرانه ذاته ؛ حين كرّس جهوده (وقد وفّق فيها توفيقاً ملحوظا) لزيادة رخائه المادى . فإن قُيِّض له الخلاص ؛ فلن يجده إلا فى مشاركة نتائج جهوده المادية مع غالبية الجنس البشرى التى كانت أقل من أهل الغرب توفيقاً . إن أمام « اللاأدرى[1] » الذى يخطط لتقييد النسل ؛ أن يتعلم الشىء الكثير من ذلك الفلاح الطليق من قيود الجنس المؤمن بالخرافات ، بقدر ما يتعلم هذا الفلاح ممن يخطط ويرسم وفقا للأساليب العملية البحتة .

أما عن الدور الذى يُقدّر للأديان العالمية التاريخية السامية أن تؤديه فى تبصير الفريقين جميعا وفى التقريب بينهما فى تفاهم متبادل ، فأمر لا يمكن التكهّن به حتى اليوم .

ـ هل تمكن كفالة السعادة الدائمة

لو تصورنا مجتمعاً دولياً تخلّص فيه البشر قبل كل شىء من الحرب ومن صراع الطبقات ، ثم مضى يحل مشكلة السكان ؛ عندئذ نستطيع أن نستنتج أن المشكلة التالية للبشرية تتبلور فى الدور الذى يؤديه الفراغ فى حياة مجتمع قائم على التنظيم الآلى :

والواقع ؛ قام الفراغ بالفعل ، بدور فى التاريخ ذى أهمية جوهرية .

فإذا كانت الحاجة أم الحضارة ؛ فالفراغ مرضعها . وإن من المظاهر المميزة للحضارة ؛ الشوط الذى قطعه هذا الأسلوب الجديد للحياة فى تحقيق إمكانياته . لكن ؛ لم تكن تستمتع بالفراغ سوى قلة نابهة من بين طبقة متميزة بنعمة الفراغ ، وإليها يُعزى فضل تلقيح الحضارات بهذه الظاهرة . وإن جميع الإنجازات العظيمة التى حققتها البشرية فى الفنون

---

(١) اللاأدرية : مذهب ينكر المعرفة على الإنسان ، إلا فيما يتصل بالمسائل المادية الملموسة . (المترجم)

والعلوم ، كانت ثمرة لهذا الفراغ الذى تمتعت به تلك الأقلية المبدعة ، وأحسنت استخدامه فيما ينفع الناس .

لكن الثورة الصناعية قد قلبت — رأساً على عقب — العلاقة القائمة بين الحياة والفراغ .

وكان التغيّر السيكلوجى أهم هذه التغيّرات :

ذلك لأن استخدام الآلة قد ولّد فى ذهن العامل الصناعى ، توتّراً بين مشاعره تجاه عمله — من ناحية — ومشاعره تجاه فراغه ، من الناحية الأخرى . وهذا ما لم تتعرض له — قبل الثورة الصناعية — الأغلبية من أهل الريف ، ولا الأقلية المتميزة . ويُعزى هذا ، إلى أن دورة الفصول فى المجتمع الزراعى (التى تقوم للفلاح بدور التقويم) قد أتاحت كذلك للأقلية المتمتعة بالفراغ ، توزيع وقتها بين مجالس القضاء وبين الخروج للحرب ، أو توزيعه بين حضور جلسات البرلمان ، والصيد والقنص وصيد الأسماك . وهكذا ، سلّم أهل الفلاحة وحكامهم بأن العمل والفراغ مرحلتان للسكون والحركة[1] يتعاقبان فى رتابة ، تعاقب الليل والنهار والصيف والشتاء . وكل مرحلة ، راحة من الأخرى .

بيد أن هذا التكافل ، وهذا التزاوج بين العمل والفراغ — فى العهد السابق للثورة الصناعية — قد تعطّل فعلهما ، وقتما استحال العامل إلى مجرّد شىء ملحق بالآلة التى تستطيع أن تعمل ليل نهار على مدار السنة ، ووجد العامل نفسه مسوقاً إلى كفاح دائم حتى يمنع الآلة وضاحيها من أن يسخّراه للعمل حتى النفس الأخير ، الأمر الذى ملأ عقله بالعداء لحياة الكدّ التى آمن أسلافه من الفلاحين بأنها أمر طبيعى .

(١) استخدم الأستاذ المؤلف — كما مر بنا فى موضع سابق من هذه الدراسة — كلمتين صينيتين للتعبير عن حالتى السكون والحركة الدافقة ، وهما : إلين واليانج على التوالى . (المترجم)

وهذا الموقف الجديد للعامل إزاء العمل « أدّى إلى موقف جديد له ، إزاء الفراغ . لأنه إذا كان العمل — بطبيعته — شراً ، فلا بد أن يكون للفراغ فى ذاته — قيمة مطلقة :

وكان ردّ الفعل للطبيعة البشرية ضد العمل الرتيب فى المصنع والمكتب ، قد قطع بالفعل — قبل أن ينتصف القرن العشرين — شوطاً بعيداً ، جعل للتحرر من ضغط العمل المفرط ، قيمة أعظم من قيمة المال الذى يستطيع العامل أن يكسبه بالعمل إلى أقصى حدود طاقته : بيد أنه فى الوقت نفسه ، كان التقدم التكنولوجى — دون ضابط حتى اليوم — يقدّم لضحاياه من البشر دعابة عملية ساخرة . فى الوقت الذى يتهددهم فيه بالشغل — حتى النفس الأخير — كان يتهددهم أيضاً بالبطالة . ولهذا ، فإن كثيراً من القيود التى فرضتها نقابات العمال لكبح جماح الآلة فى زحفها المميت — وإن كانت قيوداً يعوزها التنظيم الكفء — قد خدمت غاية العمال البعيدة القائمة على استخلاص فضلة من العمالة ، ظاهر أنها قد انتزعت من أيدى البشر ، جملة[1] .

وكان من الميسور — فى ظل تلك الظروف — التنبؤ باستعادة نوع من الفردوس على الأرض[2] : تسوده « العمالة الكاملة » ، ويوزّع فيه على كل فرد — وبكل حرص — قدر مُعيّن من العمل لا يشغل من وقت العامل سوى قسط ضئيل من يومه . وهنا يتهيأ له قدر من الفراغ يكاد يعادل ما كانت تتمتع به الطبقة الممتازة — طبقة الأغنياء المتعطلين — التى انتهى أمرها منذ زمن ، والتى تعلّم أجداد هذا العامل إستهجان أفعالها . وفى مثل هذه الظروف ، تتضح — بلا ريب — أهمية الاستفادة من وقت الفراغ ، بأكثر مما كانت عليه من قبل :

---

(١) إن الفكرة القائلة باستفحال سيطرة الآلات ، إلى أن يأتى اليوم الذى تستغنى فيه عن مساعديها من البشر ، قد صاغها صموئيل بتلر فى كتابه **Erewhon** الذى نشره عام ١٨٧٠ .

(٢) أى استعادة الفردوس اللتى تمتع به آدم وحواء من قبل . (المترجم)

فكيف تستخدم البشرية أوقات الفراغ التى ينتظرها العالم جميعاً ؟

لقد سبق للسير ألفرد أوينج Sir Alfred Euwing أن أثار هذا السؤال — الذى يُثير القلق — فى خطاب ألقاه يوم ٣١ أغسطس سنة ١٩٣٢ بالجمعية البريطانية لتقدم العلوم ، بمناسبة انتخابه رئيساً :

« قد يتصور البعض مدينة فاضلة(١) يتحقق فيها توازن كامل بين العمل وثماره ، بين نشر العمال والأجور وتوزيع جميع ما تنتجه الآلات توزيعاً عادلا ؛ بيد أنه مع فرض تحقق هذا ، يبقى أمامنا السؤالان التاليان :

كيف ينفق الإنسان وقت الفراغ الذى كسبه حين ألقى — تقريباً — جميع أعبائه على عبد آلى لا يكلّ ؟

هل له أن يأمل فى أن يحقق من الارتقاء ا الروحانى ما يؤهله للانتفاع بالفراغ انتفاعاً مُجدياً ؟

إن الرب يمنح بركته ذلك الذى يكافح فى سبيل هذا الارتقاء الروحانى ويبلغه ؛ وإنه لن يجده إلا إذا سعى إليه . إننى لا أعتقد أن البشرية مقدّر لها الضمور والتوقّف عن النمو عن طريق تنمية ما هو — قبل كل شىء — أعظم عطايا الله لها ، ألا وهى : تفنن المبتكر المبدع . إن الإمبراطورية الرومانية قد عجزت عن تحقيق ذلك المستقبل الذى نحاول الآن أن نستشفه عن بُعد ، نتيجة لقصور السعَة التى أتاحها للوجود البشرى . ورغم ذلك ؛ فقد أحس مؤلف كتاب عنوانه (فخامة الأسلوب) كُتب فى تاريخ غير محدد خلال فترة ازدهار الإمبراطورية الرومانية ، بأن زوال حدّة التوتّر الناشئ عن تشييد الدولة العالمية الهلينية « أدّى إلى فساد السجايا الإنسانية » ؛

« إن الاسترخاء الروحانى الذى يقضى فيه جميع الناس أيامهم

---

(١) Utopia .

– هذا قلة مختارة من البشر – هو أحد الأمراض الخبيثة التى تُصيب الحياة الروحية فى نفوس أهل الجيل الحاضر . وإن مناط هدفنا الوحيد – فى عملنا وتجددنا على السواء – هو الحصول على الشهرة والتمتع بمباهج الحياة . إنه لا يعنينا قط أن نفوز بالركاز الروحى الحقيقى الذى لا يجده المرء إلا حين « يضع قلبه » فيما يقوم به من عمل » ويفوز بتقدير يستحقه حقا » .

وهذه الآراء التى اهتدى إليها هذا الناقد الهلينى ، قد أيّدها فى مستهل العصر الحديث من التاريخ الغربى » أحد روّاد الروحى العلمى الجديد . ونجد الفقرة التالية فى كتاب « تقدم المعرفة » الذى نشره فرنسيس باكون عام ١٦٠٥ ميلادية :

« ذلك لأنه ، لوحظ حقاً أن الفنون التى تزدهر فى الأوقات التى تترعرع فيها الفضيلة هى فنون الحرب . أما فنون المعرفة فتزدهر وقتما تتوقف الفضيلة عن النمو . وتروج فنون المتعة حين تتداعى قواعد الفضيلة . ومن ثم ، أشك فى أن يكون هذا العصر مشرفا على دورة الهبوط . وإلى فنون المتع ، أضيف إقبال الناس على المساخر . ذلك لأن خداع الحواس هو إحدى الحواس » :

إن ممارسة « المساخر » ، تستغرق قدراً كبيراً من استخدام وقت الفراغ فى عصر اللاسلكى والتليفزيون . وواضح أن الإرتفاع بالطبقة العاملة إلى المستوى المادى للطبقة الوسطى قد صاحبه تدنّى الحياة الروحية عند جانب كبير من أهل الطبقة الوسطى :

وهكذا ، سرعان ما ألفى ضيوف « سيرس »[1] أنفسهم أسرى حظيرة « سيرس » :

---

(١) سيرس : تذكر الأوديسية لهوميروس أنها كانت تغرى البحارة بضيافتها ثم تحيلهم الى خنازير . وقد استضافت رفقاء عوليس . (المترجم)

ولكن هل يظلون هناك إلى ما لا نهاية ؟

هل هذا مصير يُسلم به الجنس البشرى لنفسه ؟

وهل يرتضى الجنس البشرى ـ حقا ـ أن يحيا أبدا فى سعادة دائمة ، فى عالم جديد نبيل لا تغيير فيه ، إلا من رتابة الفراغ الغث إلى رتابة العمل الآلى ؟

إن مثل هذا التنبؤ لا يُلقى بالا ـ بالتأكيد ـ للأقلية المبدعة التى ظلت « عصب العالم »[1] فى جميع عصور التاريخ . فإن التشخيص القاتم الذى قام به مؤلف « فخامة الأسلوب » فى العصر الهلينى المتأخر ، قد أغفل عنصراً خطيراً غاية الخطورة ، عند فحص الحالة التى كانت تحت بصره ، إذ يبدو أنه لم يُلق بالا إلى شهداء المسيحيين .

ويظهر ـ وهذا هو الواقع ـ أن ثمة بوناً شاسعا يفصل بين التعطل التكنولوجى المنتظر ، وتوقع إستعادة الإزدهار الإقتصادى[2] . أو لعل القارئ يلقى هذا السؤال الشائك :

كيف تسير هذه الأمور ؟

والآن ونحن فى منتصف القرن العشرين بعد ميلاد المسيح ، يتعذر علينا أن نجيب على هذا السؤال ؛

على أن ثمة ما ينبئ بأن مثل هذا الأمل ليس مجرد فكرة مرجوة ؛

فإن من بين الحيل التى تلجأ إليها الحياة لاستبقاء نفسها فى الوجود ، هو أنها تعوض عجزها ـ أو فائضها ـ فى قطاع ، بتجميع فائض ـ أو إحداث عجز ـ فى قطاع آخر ؛ ومن ثم ، عسانا نتوقع مثل ذلك فى

(١) فى الأصل : ملح الأرض . (المترجم)

(٢) فى الأصل توقع حلول عيد العنصرة مرة أخرى . وهو عيد الحصاد عند اليهود . وكانوا يحتفلون به عند انتهاء عملية الحصاد التى تتم بدورها بعد مرور خمسين يوماً من اليوم الثانى من عيد الفصح . (المترجم)

محيط إجتماعى يوجد به عجز فى الحرية وفائض من القيود فى محيطى الاقتصاد والسياسة ؛ وهنا يتجلى — فى محيط الدين — تأثير قانون الطبيعة هذا ؛ فى التحريض على طلب الحرية ، وفى التخفيف من سيطرة القيود ، ولا مشاحة فى أن هـــذا هو ما حدث بالفعل فى عصر الإمبراطورية الرومانية .

ومن الدروس التى تُستفاد من عصور اليونان ؛ أن ثمة فى الحياة — دائما — حداً أدنى من طاقة الوجدان ، لا يقبل الكبت ويصرّ دائما على أن يعبر عن نفسه فى هذا الاتجاه أو ذاك . لكن يبدو ؛ أنه لا يقل صدقا عن ذلك ، أن ثمة حداً أقصى للقَدْر من طاقة الوجدان التى تجدها الحياة تحت تصرفها .

ويستتبع هذا ؛ أن الحياة إذا احتاجت إلى طاقة تُفرز بها نشاطها فى أحد المجالات ، فليس لها إلا أن تستمد هذه الطاقة الإضافية مما تقتصده من طاقات فى مجالات أخرى ، والتطبيق الآلى ، هو وسيلة الحياة لتوفير الطاقة ، ومن قبيل المثال ؛ أن الحياة إذ تجعل من نبض القلب وحركة الرئة فى انقباضها وانبساطهما عملا آليا ، هذه الحياة قد فكت إسار الفكر والإرادة البشرية ليُستخدما فى غايات أخرى غير مجرد الاحتفاظ المتصل بالحيوية ، من لحظة إلى أخرى ، وإذا تصوّر المرء أنه محتاج دوما إلى إعمال الفكر وإلى العمل الإرادى ليبعث فى رئته كل نفس وفى قلبه كل نبضة ، لما توفرت له قط أية فضلة من طاقة ذهنية أو إرادية يدخرها ؛ لا لشىء إلا لمجرد الحفاظ على حياته ، وبعبارة أدق ؛ ما كان ليتيسر لأى كائن شبه بشرى ، التطور إلى إنسان كامل .

ولعل هذه المشابهة بين التأثير الإبداعى لتوفير الطاقة فى الجسم الإنسانى ، تقودنا إلى فكرة تتصل بكيانه الاجتماعى ، وهى أن العقيدة الدينية عرضة للاعتلال طالما صرف الإنسان فكره وإرادته إلى الشئون الاقتصادية (وهذا

هو حال الغرب منذ نشوب الثورة الصناعية) ، أو انهمك فى الموضوعات السياسية (وهذا هو حال الغرب منذ بعث عبادة الدولة الهلينية[١] .

وعلى العكس من ذلك ، لعلنا نستنتج أيضاً أن القيود الشديدة التى تُفرض اليوم على الحياة الاقتصادية والسياسية للمجتمع الغربى ، قمينة بأن تُحرر نفوس أهل الغرب حتى يحققوا غاية الإنسان الحقة ؛ ألا وهى تمجيد الله والاستمتاع برضائه تعالى ؛

إن بلوغ هذا المطمح الروحى الجميل ، أمر مستطاع على الأقل . ولعل أهل الجيل الحاضر اليائس – من رجال الغرب ونسائه – تصلهم بارقة من الضياء الرقيق .

---

(١) يقصد الأستاذ المؤلف بأن عصر النهضة الأوربية قد صاحبه إبتعاث الفكرة اليونانية التى تمجد الدولة الإقليمية . وهى فكرة يعزو إليها الأستاذ المؤلف اضطراب أحوال أوروبا الغربية السياسية والاقتصادية ، مما ينذر بانهيار الحضارة الغربية . (المترجم)

الباب الثالث عشر

خاتمـــة



الفصل الرابع والأربعون

كيف قُدِّر لهذا الكتاب أن يُكتب

لِمَ يدرس الناس التاريخ ؟

يُجيب كاتب هذه الدراسة شخصياً بأن المؤرخ يستجيب – فى دراسة التاريخ – إلى نداء الله له بتتبع خلقه ، بالسعى لمعرفته تعالى ، والمؤرخ هنا – شأنه شأن كل امرئ – سعيد بأن تكون له فى الحياة غاية يسعى إليها .

وللمؤرخ زاوية رؤيا واحدة من بين زوايا الرؤيا التى لاتعد ولاتحصى ؛ وإن أخص ما تتميز به مساهمة المؤرخ فى التراث الإنسانى هو أنه يقدّم لنا صورة لإبداع الخالق فى حركته الدائبة ، داخل إطار هو – وفقا لتجربتنا البشرية عنه – ذو ستة أبعاد .

فإن زاوية الرؤيا للمؤرخ ، تُرينا الكون المادى ، يتحرك منحرفا عن المركز ، فى إطار ذى أربعة أبعاد من المكان ٪ الزمان ، كما تُرينا الحياة على كوكبنا تتحرك حركة دائرية فى إطار ذى خمسة أبعاد من الحياة الزمان ٪ المكان ، وتُرينا نفوس البشر ، وقد ارتفعت إلى البعد السادس بنفحة من الروح القدس ، وإنها لتتحرك – وهى تمارس ما قُدّر لها من التحرر الروحى – إما صوب خالقها ، أو بمنأى عنه .

فإن كنا على حق إذ نرى فى التاريخ صورة لإبداع الخالق فى حركته الدائبة ، فإننا لن نعجب إذا وجدنا أن القوة الفعلية لتأثير التاريخ فى العقول البشرية التى تماثل – فرضا – درجة قابليتها الداخلية لتأثير التاريخ ، وفقا للظروف التاريخية لمن يتلقاها ، إذ لا مناص من أن تقوم نزعة حسبه

الاستطلاع ، بتعزيز القابلية لاستيعاب التاريخ . ولكن حب الاستطلاع لن يثور إلا إذا بدت للعيان عملية التغيّر الاجتماعى . واضحة وضوحا ساطعا قويا .

ومصداقا لذلك ، لم يكن أهالى الريف يوماً ما ، أصحاب عقلية تاريخية . لأن الوسط الاجتماعى الذى يعيشون فيه ، لايحدثهم عن التاريخ ، ولكنه يحدثهم عن الطبيعة . وهذا ما تنبئ عنه أعيادهم ، فما كانت أعيادهم الرابع من يوليه[1] ، ولا يوم جاى فوكس Guy Fawks[2] ولا يوم إعلان الهدنة[3] . ولكن أعيادهم كانت أياما لم يسجلها التاريخ ، هى أيام السنة الزراعية التى تتعاقب فى كل عام .

بل إن الأقلية التى يحدثها وسطها الاجتماعى عن التاريخ ، لايكون تعرضها لإشعاع من الوسط الاجتماعى التاريخى ، كافيا — فى حد ذاته — لإلهام المؤرخ وتكوينه . إذ بدون هذا التطلع المثير الخلاق ، تبقى أعظم ما نعرف من هياكل التاريخ تأثيراً فى النفس ، خرساء لا تحدث أثراً ، لأن العيون التى تنظر إليها لاترى فيها شيئاً .

وهذه الحقيقة القائمة على أن شرارة الإبداع لن تشتعل إلا بفعل استجابة وتحد ، وعاها ذهن الفيلسوف الرحالة الغربى الحديث فولنى Volney ، وقتما زار العالم الإسلامى بين عامى ١٧٨٣ — ٨٥ . وكان فولنى قد قدم من بلاد دخلت إلى مجرى تاريخ الحضارات فى زمن حديث لايمتد إلى أبعد من حرب هانيبال . فى حين كانت البلاد التى زارها ، مسرحا للتاريخ طوال ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة قبل ظهور غالة (فرنسا) . وكانت وقت زيارته حافلة — بما يتفق وذلك التاريخ العريق —

---

(١) ٤ يوليه : عيد استقلال الولايات المتحدة الأمريكية . (المترجم)

(٢) يوم جاى فوكس : هو يوم ٥ نوفمبر . وفيه حاول أحد المتآمرين نسف البرلمان الإنجليزى . (المترجم)

(٣) إعلان هدنة الحرب العالمية الأولى فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ . (المترجم)

بآثار الماضى الماثلة للأنظار ؛ وعلى الرغم من ذلك ؛ كان الجيل من الناس الذى يعيش فى الشرق الأوسط فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر الميلادى ، يقبع — غير حافل — بين هذه الأطلال[١] الرائعة « لحضارات بائدة » لايتحرك للبحث عن كنه هذه النصب ؛ فى حين دفع هذا التساؤل نفسه ، فولنى من وطنه — فرنسا — إلى مصر . ثم جاءت فى أعقابه « هذه الجماعة من العلماء الفرنسيين النابهين الذين انتهزوا الفرصة التى هيأتها لهم حملة نابليون بونابرت بعد ذلك بخمسة عشر عاما ؛ ولقد كان نابليون يعلم أنه « يعزف لحنا » يستجيب له أفراد جيشه جميعا — حتى جمهرته من غير المتعلمين — حين ذكّرهم قبل نشوب القتال فى معركة امبابة الحاسمة بأن أربعين قرنا من التاريخ تنظر إليهم من فوق الأهرام . ولعلنا على ثقة من أن مراد بك قائد المماليك فى المعركة ، لم يفكر قط فى إضاعة لحظة من وقته سدى ليوجّه عبارة مماثلة تلهب حماسة رفاقه الخالين من حُبّ الاستطلاع .

ولقد ذهب فى الآفاق صيت العلماء الفرنسيين الذين جاءوا إلى مصر مع نابليون ، بفضل كشف فذ « ألقى مزيداً من الضوء على قضايا التاريخ[٢] ؛ قدموه للمجتمع الغربى الحديث النهم إلى التطلع لغزو المجهول . فكان أن بُعثت إلى الوجود فى العالم القديم منذ ذلك التاريخ ، ما لايقل عن إحدى عشرة حضارة بائدة عفى عليها الزمن ؛ هى الحضارات المصرية — البابلية — السومرية — المينووية — الحيثية ؛ بالإضافة إلى الثقافة السندية وثقافة شانج ؛ ويضاف إليها الحضارات : المايانية والياكوتية والمكسيكية والأنديانية ، فى العالم الجديد .

وصفوة القول ، لن يُقيّض للمرء أن يصبح مؤرخاً دون أن يحركه

---

(١) ألف فولنى بعد عودته من رحلته فى البلاد الإسلامية كتاباً أسماه « الأطلال » (المترجم)

(٢) يقصد المؤلف : حجر رشيد . (المترجم)

حب الاستطلاع : بيد أن هذا ـ فى حد ذاته ـ لا يكفى : فإن حب الاستطلاع إذا لم يوجّه نحو غاية معيّنة ، لايثير إلا مجرد إحاطة علمية شاملة لا هدف لها ، ومن ثم ، يتبلور دائماً حب الاستطلاع عند أى من كبار المؤرخين ، فى بذل الجهد للرد على طائفة من الأسئلة ذات مغزى عملى بالنسبة لجيله ، وهى أسئلة تمكن صياغتها فى عبارة عامة هى « كيف ترتب هذا على ذاك » ؟

حتى إذا استقصينا الأعمال العقلية التى كتبها كبار المؤرخين ، وجدنا أن ثمة ـ فى معظم الحالات ـ حادثة خطيرة مثيرة قد استثارت عند أولئك المؤرخين إستجابة اتخذت شكل محاولة التشخيص التاريخى لتلك الأحداث ، وقد يكون هذا الحدث مما شاهدوه هم أنفسهم ، أو شاركوا فيه بدور فعّال ؛ كما فعل توكيديديس فى الحرب الأثينية البلوبونيزية الكبرى وكلاريندون Clarendon [1] فى « الثورة الكبرى » [2] . أو قد يكون حدثاً طواه الماضى ، لكن ما تزال إنعكاساته تثير استجابة لدى عقل المؤرخ الحسّاس ، مثال ذلك ، ما أثاره إنحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها من تحدٍّ دفع جيبون إلى كتابة مؤلفه ، وقتما كان يتأمل أطلال الكابيتول بعد ذلك بعدة قرون ، وقد يكون الحافز الخلاّق حدثاً مدوياً يبعث على الرضا ، كما هو ظاهر فى مثال الحرب الفارسية التى جابهت هيرودوتس بتحدٍّ عقلى .

بيد أنه ـ فى أكثر الحالات ـ تكون كوارث التاريخ الكبرى ـ بتحديها نزعة التفاؤل الطبيعية فى الإنسان ـ هى التى تستدعى من المؤرخ أبدع جهوده .

---

(١) كلاريندون (١٦٠٩ ـ ٧٤) : سياسى ومؤرخ لعب دوراً هاماً فى عهدى الملكين شارل الأول والثانى . وكان من أنصار الملكية . وحاول تصحيح موقف الملك تجاه البرلمان إلا أن شارل الأول آثر سلوك سبيله الخاص القائم على تحدى سلطة البرلمان . فلما انتزعت الملكية من سلطانها ذهب كلاريندون مع شارل الثانى إلى المنفى . ولما عاد إلى عرشه عين كلاريندون وزيراً للمالية . (المترجم)

(٢) « الثورة الكبرى » تطلق على فترة حكم كرومويل وابنه (أى إعدام شارل الأول حتى عودة شارل الثانى . (المترجم)

إن مؤرخاً – كالمؤلف – ولد عام ١٨٨٩ وكان ولا يزال على قيد الحياة عام ١٩٥٥ ، قد شهد – حقاً – كثيراً من التغيّرات وسمع أصداء هذا السؤال البدائى يلح عليه مدوياً :

كيف ترتب هذا على ذاك ؟

كيف حدث أولا وقبل كل شىء أن عاش المؤلف ليشهد آمال الجيل السابق له – وواضح أنها معقولة – وقد خابت وتبددت فى قسوة وغلظة ؟

لقد بدا واضحاً لدى دوائر الطبقة الوسطى المقدّرة للحرية فى البلاد الديمقراطية الغربية التى تنتمى إلى جيل ولد حوالى عام ١٨٦٠ ميلادية (قبل أن يصل القرن التاسع عشر إلى ختامه) أن الحضارة الغربية إذ تسير قُدُماً ، غدت تحمل التقدم البشرى إلى نقطة تجد بعدها – مباشرة – الفردوس الأرضى .

فكيف حدث أن تبدد أمل هذا الجيل على هذا النحو المفجع ؟

وأى خطأ جرى على وجه التحديد ؟

وكيف حدث أن تغيّر المصور السياسى للعالم بحيث ضاعت معالمه بسبب الحرب والشرّ الذى جلبه معه القرن الجديد فى ركابه ؛ فهبط معه عدد الدول الكبرى من ثمان تتبادل العلاقات ، إلى دولتين متنابذتين تقعان خارج أوروبا الغربية ؟

ويمكن إضافة قائمة أخرى من هذه الأسئلة إلى ما لا نهاية . وقد انبثت عليها موضوعات تطلبت حشداً لا يقل عنها من التحقيقات التاريخية . وإذا كانت مرحلة « عصر الاضطرابات » تعتبر – من ناحية التعريف – نعيم المؤرخين ، فلقد ولد المؤلف – لحسن طالعه – فى هذا العصر . فأصبح مسيراً فى الواقع بإشباع رغبته فى كشف اللثام عن الأحاجى التاريخية التى ألقتها إليه الأحداث الجارية .

غير أن حسن طالعه كمؤلف ، لا ينتهي هنا . فقد وُلِد في الوقت المناسب ليتلقى ثقافة هلينية دسمة تحدّرت مما يعرف بعصر النهضة الغربية الحديثة . وكان قد أتمّ في صيف ١٩١١ خمسة عشر عاماً في دراسة اللاتينية واثنى عشر عاماً في دراسة اليونانية ، فكان لهذا التثقيف العريق ، أثره الناجع في إكسابه مناعة ضد داء النعرة الثقافية القومية : إذ يشقّ على رجل الغرب الذى تلقى ثقافة هلينية ، أن يقع بسهولة في خطأ إعتبار عالم المسيحية الغربية أفضل مجتمع يمكن أن يظهر في الوجود . كما أن ثقافته الهلينية ، لا تجعله يعالج المسائل التاريخية التي يضعها أمامه — من وسطه الاجتماعي الغربي — دون الرجوع إلى هيلاس[1] التي وجد فيها وطنه الروحي .

ومن قبيل المثال ، عجزه عن تقصّي أسباب خيبة آمال الجيل الماضي المقدّر للحرية ، إن لم يتذكر كيف تبددت أوهام أفلاطون في الديمقراطية الأثينية في عصر بركليس . وما كان له أن يعيش تجربة إندلاع حرب ١٩١٤ ، دون أن يدرك أن نشوب الحرب في عام ٤٣١ ق . م ، قد حملت نفس التجربة لتوكيديديس : وما إن كشفت له تجربته الخاصة مغزى كلمات توكيديديس وعباراته التي لم تكن — قبل ذلك — تعني له سوى القليل — أو لا شيء البتة — حتى أدرك أن كتاباً أُلّف في عالم آخر منذ أكثر من ألفين وثلاثمئة سنة ، قد يكون معيناً لتجارب توشك — في عالم القارئ — أن تجتاح الجيل الذي ينتمي إليه .

وهكذا ، وجد معنى في القول بأن التاريخين : ١٩١٤ م و ٤٣١ ق . م يعاصر — فلسفياً — أحدهما الآخر .

وسنرى أن ثمة — في الوسط الاجتماعي الذي عاش فيه الكاتب — عاملين لا يتصل أي منهما بشخصه وحده ، وكان لهما أثر حاسم في تناوله « دراسة للتاريخ A Study of History » :

---

(١) هيلاس : اليونان القديمة . (المترجم)

العامل الأول — التاريخ الحالى لعالمه الغربى .

العامل الثانى — ثقافته الهلينية .

وبالتفاعل المستمر بين هذين العاملين ، غدت نظرة المؤلف للتاريخ نظرة مزدوجة :

وهكذا ، كلما حملت إليه إحدى الأحداث المفجعة السؤال التقليدى الذى يتعرض للمؤرخ «كيف ترتب هذا على ذاك» ، ألفى نفسه وقد حوّل صيغة السؤال إلى «كيف ترتب هذا على ذاك فى كل من التاريخين الغربى والهلينى» ؟

وبالتالى ، غدا ينظر إلى التاريخ كمقارنة فى نطاق حدّين .

ولعل المعاصرين فى الشرق الأقصى ، يقدّرون فى بحث التاريخ «وجهة النظر المزدوجة هذه ويسلمون بها ، نظراً للدور الذى كانت تلعبه اللغة والآداب القديمة لحضارة سالفة فى مجال التربية التقليدية — حتى ذلك الوقت — على نحو لا يقل شأواً عن الدور الذى قامت به الثقافة اليونانية القديمة فى الثقافة الغربية الحديثة» . وإن مؤلفاً من مريدى كونفوشيوس «ليجد نفسه — كما فعل مؤلف هذه الدراسة — عاجزاً عن تفسير حدث من الأحداث الجارية ، دون أن يذكّره بحدث ماض مماثل ، له لديه قيمة أعظم . بل ربما كانت حقيقته أوضح من الأحداث التى جرت بعد ذلك ، والتى حفزته إلى إعمال الفكر فى تأثيرها الذى يماثل مع حكمة صينية قديمة .

والفارق الأساسى بين تفكير عالم صينى ذى ثقافة كنفوشيوسية فى عصر «تشينج Ching» المتأخر ، وعالم إنجليزى معاصر له صاحب ثقافة هلينية فى أواخر العهد الفيكتورى ؛ الفارق الأساسى بينهما هو أن الباحث الصينى فى شئون البشر ، قد يظل مكتفياً بإجراء مقارناته التاريخية فى نطاق حدّين اثنين فقط . على حين لن يقنع ذلك الباحث الإنجليزى من أواخر العصر الفيكتورى ،

بالبقاء فى إطار هذا اللون من التفكير ، ولا يرتاح حتى يتوسع مجاله الثقافى إلى مدى أرحب .

ولقد يبدو للباحث الصينى الذى تلقى ثقافته التقليدية فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، أن الفكرة القائلة بعدم وجود حضارة تستحق تفكيره الجدى — عدا الحضارة الصينية وحضارة الشرق الأقصى التى خلقتها هذه الفكرة — إلا بدعاً . ولن تخطر مثل هذه الفكرة على بال أى باحث غربى من أهل ذلك الجيل .

ذلك لأن المجتمع الغربى الذى ينتمى إليه الباحث الغربى ، قد اتصل اتصالا قوياً خلال القرون الأربعة الماضية بما لا يقل عن ثمان مجتمعات أخرى من نوعه . ومن ثم ، استحال على العقل الأوربى — استحالة مضاعفة — أن يتجاهل أهمية الحضارات الأخرى عدا حضارته ، أو ينكر قيمة الحضارة الهلينية . فلقد مضى هؤلاء الغربيون الذين لم يهدأ لهم — خلال القرن الماضى — بال فى البحث والتقصى ، والذين وفقوا فى غزو المحيط لأول مرة بعد أن اقتحمه كولومبوس وفاسكو دى جاما ، مضوا ينقبون عن ماض عفى عليه الزمن .

وإن مؤرخاً غربياً يعيش فى هذا الجيل الذى امتلك هذا الأفق التاريخى الرحب وتحمله ثقافته اليونانية على إجراء مقارناته التاريخية فى إطار حدين اثنين ؛ هذا المؤرخ الغربى لن يقنع إلا إذا راح يجمع — بقصد الدراسة المقارنة — أكبر عدد يستطيع جمعه ، من الظواهر المتصلة بأنواع المجتمعات المماثلة التى لم يكن المجتمعان الهلينى والغربى سوى مجتمعين اثنين منها :

حتى إذا وُفّق فى مضاعفة حدود مقارناته — أكثر من عشر مرات — لم يعد فى وسعه أن يتجاهل الموضوع الرئيسى الذى أوشكت أن تثيره مقارنته الأصيلة التى قامت على أساس حدين اثنين . فإن أشد أحداث تاريخ الحضارة الهلينية إنذاراً بالشؤم ، قد جرى عام ٤٣١ ق . م ، باندلاع الحرب الأثينية البلوبونيزية العظمى ، فكانت نذيراً بانحلال المجتمع الهلينى .

وإذا كان ثمة ما ينبئ عن جدوى الوسيلة التي جرى عليها الكاتب لعقد مقارنات بين تاريخي المجتمعين الهليني والغربي ، فلن يكون المجتمع الغربي بمنجي عن احتمال التردي في نفس المصير الذي لقيه المجتمع الهليني . وعندما وجد الكاتب — وقتما انتقل إلى دراساته الأوسع مدى — أن أغلبية واضحة من الحضارات التي أمكنه تجميعها ، قد أصابها الفناء فعلا ، بدا أن لا مناص له من أن يستنتج أن الفناء هو بالفعل احتمال يواجه أية حضارة ، بما في ذلك الحضارة التي ينتمي إليها .

فما هو « باب الفناء » هذا الذي اختفت وراءه حضارات عديدة ازدهرت وقتاً ما ؟

هذا السؤال دفع الكاتب إلى دراسة إنهيار الحضارات وتحللها ، ومن ثم ، انتقل إلى دراسات تكميلية عن نشوء الحضارات وارتقاءاتها .

وعلى هذا النحو ، جرت كتابة هذا الكتاب « دراسة للتاريخ » .



جداول تفسيرية

وردت الجداول الأربعة التالية – كما هى – فى مؤلف الأستاذ توينبى فى صورته المطولة ، وتحتوى على طائفة من الأسماء والوقائع لم يرد لها ذكر فى المختصر الذى نشره المستر سومرفيل Somervell . إذ قد اضطر بطبيعة عمله إلى اطّراح عدد كبير من التفسيرات التاريخية الواردة فى المؤلف الأصلى . كما أنه اقتضب قدراً كبيراً من الإيضاحات التفصيلية ، التى ما كان ليتأتى إستبقاؤها إلا باختزالها .

وللجداول فائدة إجمال طائفـــة من النتائج التى انتهى إليها بحث الأستاذ المؤلف .

الجـــدول الأول

الدول العالمـــــية

الحضارات	عصر الاضطرابات	الدولة العالمـــية	فترة النفوذ العالمي	أصـــــل بناة الأمبراطورية
السومرية	حوالى ٢٦٧٧–٢٢٩٨ ق.م	أمبراطورية سومر وأكّاد دول الجهات الأربع	حوالى ٢٢٩٨–١٩٥٥ ق.م	المؤسسون من نفس البلاد (من أور) – المجددون رجال حدود (عموريون)
البابلية	– ٦١٠ ق . م	الأمبراطورية البابلية المستحدثة	٦١٠ – ٥٣٩ ق . م	هل المؤسسون من نفس البلاد(١) (كلدانيون مثلا) . خلفاؤهم من البرابرة (أخيمينون) وأجانب (سلوقيون)
السندية	– ٣٢٢ ق . م؟	الأمبراطورية الموربة أمبراطورية جوبتا	٣٢٢ – ١٨٥ ق . م ٣٩٠ م – حوالى ٤٧٥ م	هل المؤسسون من البلاد ؟(٢) من ماجادا مثلا . المؤسسون من ماجادا
الصينية	٦٣٤ – ٢٢١ ق . م	أمبراطورية تسين وهان	٢٢١ ق . م – ١٧٢ م	المؤسسون رجال حدود (من تسين) . خلفاؤهم من البلاد (أسرة هان السابقة واللاحقة)
الهيلينية	٤٣١ – ٣١ ق . م	الأمبراطورية الرومانية	٣١ ق . م – ٣٧٨ م	المؤسسون رجال حـدود (رومانيون – المجددون رجال حدود من إيليريا
المصرية	حوالى ٢٤٢٤–٢٠٧٠/٦٠ ق . م	الأمبراطورية الوسطى الأمبراطورية الحديثة	حوالى ٢٠٧٠/٦٠–١٦٦٠ ق . م حوالى ١٥٨٠–١١٧٥ ق.م	رجال حدود (من طيبة) » » » »
المسيحية الأرثوذكسية (في روسيا)	١٠٧٥ م – ١٤٧٨ م	الأمبراطورية المسكوفية	١٤٧٨ م – ١٨٨١ م	رجال حدود (من موسكو)
الشرقية القصـوى (في اليابان)	١١٨٥ – ١٥٩٧ م	ديكتاتورية هيديوشي وشوجونية توكوجاوا	١٥٩٧ – ١٨٦٨ م	رجال حدود (من كوانتو)
الغربية (عالم مسيحية القرون الوسط)	١٣٧٨ – ١٧٩٧ م	أمبراطورية نابليون	١٧٩٧ – ١٨١٤ م	رجال حدود (من فرنسا)

(الوسطى)	١٢٧٧ – [illegible]	الامبراطورية نابليون	١٧٩٧ – ١٨١٤ م	رجال حدود (من فرنسا)
الغربية (درعا ضد هجوم العثمانيين)	١١٢٨(٣) – ١٥٢٦ م	ملكية هابسبرج الدانوبية	١٥٢٦ – ١٩١٨ م	رجال حدود (من النمسا)
الأنديانية	– ١٤٣٠ م	أمبراطورية الإنكا (الجهات الأربع)	١٤٣٠ – ١٥٣٣ م	رجال حدود (من كوزكو) – المستخلفون دخلاء (من أسبانيا)
السورية	حوالى ٩٣٧ – ٤٢٥ ق . م	الأمبراطورية الأخيمينية الخلافة العربية	حوالى ٥٢٥ – ٣٣٢ ق . م حوالى ٦٤٠ – ٩٦٩ م	رجال حدود (من إيران) » » (من الجزيرة العربية)
الشرقية القصوى (الكيان الأصلى) (دولة المانشو)	٨٧٨ – ١٢٨٠ م	أمبراطورية المغول دولة المانشو	١٢٨٠ – ١٣٥١ ق . م ١٦٤٤ – ١٨٥٣(٤)	برابرة دخلاء (مغول) » » (المانشو)
الأمريكية الوسطى	– ١٥٢١	نهـاية المُلك الأسبانى فى أسبانيا الجديدة	١٥٢١ – ١٨٢١ م	رواد – رجال الحدود البرابرة (أزاتكة ، المؤسسون دخلاء (أسبانيا)
المسيحية الأرثوذكسية (الكيان الأصلى)	٩٧٧ – ١٣٧٢	الأمبراطورية العثمانية	١٣٧٢ – ١٧٦٨ م	(دخلاء) عثمانيون
الهندية	حوالى ١١٧٥ – ١٥٧٢	السلطان المغولى » البريطانى	حوالى ١٥٧٢ – ١٧٠٧ » ١٨١٨ – ١٩٤٧	(دخلاء) مغول (دخلاء) بريطانيون
المينوية (فى كريت)	– ١٧٥٠ ق . م	أمبراطورية مينوس البحرية	حوالى ١٧٥٠–١٤٠٠ ق.م	لا يوجد دليل
اليابانية	حوالى ٢٠٠ ميلادية	الدولة اليابانية	٣٠٠ – ٩٦٠ م	لا يوجد دليل

(١) قد يُدرج الكلدانيون فى الحضارة البابلية إما تحت بند المؤسسين من نفس البلاد أو تحت بند المؤسسين رجال حدود .

(٢) قد ينظر إلى ماجادا Magadha إما كجزء من داخلية العالم السندى قبل العصر المينورى أو إبانه ، أو تعتبر الحد الشرقى للعالم السندى خلال تلك العصور .

(٣) تاريخ نشوب أولى الحرب بين المجر والكومنيين وهم أسلاف العثمانيين فى الأمبراطورية الرومانية الشرقية .

(٤) تاريخ استيلاء العصاة من تايبنج T'aip'ing على نانكنج .

الجـــدول الثانى

الفلســـــــفات

الحضـارة	الفلســـفة	
المصرية	الأتونية	Atonism (عقيمة)
الاندياتية	الفيراكوتشية(١)	Viracochaism
الصينية	الكنفوشيوشية	Confucianism
	الموية(٢)	moisn
	التاوية(٣)	Taoism
السورية	الزرفانية	Zervanism (عقيمة)
	البوذية الهينايانية	Hinayanism Buddhism
	الجانية	gainism
الغربية	الديكارتية	Cartesianism
	الهيجلية	Hegelianism
الهيلينية	الأفلاطونية	Platonism
	الرواقية	Stoicism
	الأبيقورية	Epicureanism
	البيروتية (الشك)	Pyrrhonism
البابلية	التنجيم	Astrology

(١) الفيراكوتشية : نسبة إلى فيركوتشا ملك الإنكا Inco فى أمريكا اللاتينية . وقد حاول فرض عقيدة دينية على رعيته ففشل . (المترجم)

(٢) نسبة إلى الفيلسوف الصينى مو تز Mo Tzu .

(٣) « تعنى كلمة تاو « الطبيعة إبان قيامها بدورها . ويترجمها بعض الكتاب الغربيين بـ « روح الكون » ، لكنها – كما ذكره لى أحد الأساتذة الصينيين فى بكين فى أبريل ١٩٦٥ – تفترط بفكرة الروح إبان نشاط تلقائى . (المترجم)

الجدول الثالث

الأديان العليا

الحضارة	الدين الأعلى	مصدر الإلهام
السومرية	عبادة تموز	أصيلة
المصرية	عبادة أوزيريس	هل هي دخيلة ؟ – هل أصلها سومري ؟
الصينية	بوذية المهايانا	دخيلة (من مصدر هندي – هيليني – سوري)
	التاوية المستحدثة	أصيلة ، لكنها محاكاة المهايانا
الهندوية	الهندوكية	أصيلة
السورية	الإسلام	أصيل
الهيلينية	المسيحية	دخيلة (أصلها سوري)
	الميثرية	دخيلة (أصلها سوري)
	المانوية Manichaeism	دخيلة (أصلها سوري)
	المهايانية	دخيلة (أصلها هندي)
	عبادة إيزيس	دخيلة (أصلها مصري)
	عبادة سيبيل	دخيلة (أصلها حيثي)
	الأفلاطونية الجديدة	أصيلة (فلسفة)
البابلية	اليهودية	دخيلة (أصلها سوري)
	الزرادشتية	دخيلة (أصلها سوري)
الغربية	البهائية	دخيلة (أصلها إيراني)
	الأحمدية	دخيلة (أصلها إيراني)
المسيحية الأرثوذكسية (الكيان الأصلي)	الشيعة الإمامية	دخيلة (أصلها إيراني)
	البدر الدينية	شبه دخيلة (ذات صبغة إيرانية)
المسيحية الأرثوذكسية (في روسيا)	الطائفية	أصيلة
	البروتستانتية الإحيائية	دخيلة (أصلها غربي)
الشرق الأقصى (الكيان الرئيسي)	الكاثوليكية	دخيلة (أصلها غربي)
	التايبنج T'aip'ing	شبه دخيلة (ذات صبغة غربية)
الشرق الأقصى (في اليابان)	جودو	شبه دخيلة (من الكيان الأصلي لحضارة الشرق الأقصى)
	جودو شينشو	أصيلة (من جودو)
	النيتشرية Nichirenism	أصيلة
	زن Zen	شبه دخيلة (من الكيان الأصلي لحضارة الشرق الأقصى)
الهندية	الكابيرية والسيخية	شبه دخيلة (صبغة إسلامية)
	براهمو ساماج	شبه دخيلة (صبغة غربية)

الجـــدول الرابع

عصابات الحرب من المتبربرين

ش ش = شمال شرق　　ج ش = جنوب شرق

ش غ = شمال غرب　　ج غ = جنوب غرب

الحضـــارة	الدولة العالمية	المورد	المتـبربرون	الشعـر	الديانة
السورية	إمبراطورية سومر وآكاد	ش ش	الجوتا Gutaeans		
			البحر الأوراسيون (والأرياس)	الملاحم السانسكريتية	مجمع آلهة الفيدا
			الكاسيون		
		ش غ	الحيثيون		مجمع الآلهة الحيثي
البابلية	الإمبراطورية البابلية الجديدة	ش ش	البحر الأوراســيون (والأسقوثيون)		الزرادشتية
			الميديون والفرس		
السندية	إمبراطورية الموريا إمبراطورية الجوبتا	ش غ	الساكاس Sakas	الملحمة السانسكريتية (مهذبة)	
		ش غ	الهون		
الصينية	إمبراطورية تسين وهان		الجوركا		
		ش غ	البحر الأوراسيون		
الهيلينية	الإمبراطورية الرومانية	ش غ	كلت الجزيرة	الملحمة الإيرلندية	المسيحية الغربية القصوى
			تيوتون القارة	الملحمة التيوتونية	مجمع الآلهة [illegible]
		ش ش	البحر الأوراسيون { السرماتيون، الهون		[illegible]
		ج ش	العرب	الشعر الجاهلي	الإسلام
		ج غ	البربر		
	الدولة الوسطى	جنوب	النوبيون		
المصرية		ش ش	الهكسوس		عبادة ست
	الدولة الحديثة	شمال	الآخيون	الملاحم الهومرية	مجمع الآلهة الأولمبية
		ش غ	الليبيون		
		شرق	العبرانيون والآراميون		عبادة ياهوى
المسيحية الأرثوذكسية (في روسيا)	الإمبراطورية المسكوفية	ج ش	البحر الأوراسيون { التتر، الكالموك		{ لامية البوذية المهايانية

(تابع الجدول الرابع)

الحضارة	الدول العالمية	الحدود	المتبربرون	الشعر	الديانة
الشرق الأقصى الغربية	شوجونية توكوجاوا في أوروبا	ش ش	الأيتو		
		ش غ	كلت الجزيرة	الملاحم الإيرلندية	مسيحية الغرب الأقصى
		شمال	السكندنافيون	الساجا الإيسلندية	عمم الأهالي السكندنافية
		ش ش	سكسون القارة		
			الونه		
			الليتوانيون		
		شرق	البدو الأوراسيون (المجر)		
		ج ش	البوسنيون	أشعار البطولة اليوجسلاف المسلمين	البوجومولية ثم الإسلام
الأنديانية	في أمريكا الشمالية	غرب	الهنود الحمر		نزعة اندفاعية بعيدة عن العنف
	إمبراطورية الإنكا	شرق	الأمازونيون		
		جنوب	الأروكانيون Araucaniens		
السورية	الإمبراطورية الإخمينية	ش غ	المقدونيون	أشعار رومانسية في الإسكندرية	
		ش ش	البارثيون		
	الخلافة العربية		الماكاسيون	الملاحم الإيرانية	
		ش غ	الفرنجة	الملاحم الفرنسية	الكاثوليكية
			رحال حدود الدولة الأناتالية الشرقية	الملاحم البيزنطية اليونانية	المسيحية الأرثوذكسية
		ج غ	البربر		الشيعة الإسماعيلية
		ش ش	العرب		الشيعة الإسماعيلية
		شمال	البدو الأوراسيون (الخزر)		اليهودية
		ش ش	البدو الأوراسيون { الأتراك / المغول }		المانيشية Manichasio / النسطورية
الشرقية القصوى	عصر اضطرابات				
		ش ش	البدو الأوراسيون { الكيتان / الكين / المغول }		
	إمبراطورية المانشو				
		ش ش	البدو الأوراسيون (المغول)		لامية المهايانا البوذية
		ش ش	البدو الأوراسيون (المغول)		
		ش غ	البدو الأوراسيون (كالموك زونجار)		
أمريكا الوسطى	نيابة الملك في إسبانيا الجديدة	شمال	التشتشيمك Chichinecs		

(تابع) الجدول الرابع

الحضارة	الدول العالمية	الحدود	المتبربرون	الشعر	الديانة
المسيحية الأرثوذكسية (الكيان الأصلي)	الإمبراطورية العثمانية	ش غ	الصرب	الأشعار القتالية للمسيحيين الأرثوذكس اليوجوسلاف	
			الألبانيون	الشعر البطولي الألباني	الطريقة البكتاشية
			يونان الروملي	شعر يونان الروملي وأشعار اللصوص	
		ش ش	اللاظ		
			الأكراد		
		ج ش	العرب		الوهابية النجدية
		جنوب	العرب		مهدية كردوفان
الهندية	الحكم المغولي	ش غ	الأزبك		
			الأفغان		
	الحكم البريطاني		الأفغان		
المينوية	إمبراطورية مينوس البحرية	شمال	الأخيون Achaeons	ملاحم هوميروس الشعرية	مجمع الآلهة الأوليمبية
		شرق	العبرانيون والآراميون		عبادة يهوى
الإيرانية	عصر الشطرابات	ش ش	الأزبك		
			الأفغان		
الحيثية		ش ش	الجاسجا Gasgas		
		ش غ	الفرجيون		
		ج غ	الأخيون	ملاحم هوميروس الشعرية	مجمع الآلهة الأوليمبية
البدوية الأوراسية	القطيع الأسقوطي الملكي	ش غ	الباستارنيون Bastbranal		
		شرق	السارماتيون		
	قطيع الخزر	ش غ	الفارانجيون Varangians	الأشعار القتالية الحماسية الروسية	المسيحية الأرثوذكسية
		شرق	البتشنجيون Pechenegs		
	القطيع الذهبي	ش غ	القوزاق		
		ش ش	قرغيز القازاق	أشعار قرغيز القازاق القتالية	



الباب الأول

المقدمة

الفصل الأول : وحدة الدراسة التاريخية

إن وحدات الدراسة التاريخية الواضحة المعالم ؛ ليست هى الأمم أو العصور ، لكنها المجتمعات . ويبدى فحص التاريخ الإنجليزى – فصلا – فصلا – عدم قابليته للفهم كشىء فى حد ذاته ؛ لكنه لا يفهم إلا جزءاً من كل أكبر : ويشغل هذا الكل أجزاءاً (من قبيل المثال : إنجلترا وفرنسا وهولندا) ؛ تخضع لعوامل مثيرة مطابقة ، أو تحديات . لكن تختلف طرائق رد فعلها عليها .

وتفسيراً لهذا الرأى ؛ أورد المؤلف مثالا من التاريخ الهلينى .

أما « الكل » أو « المجتمع » الذى تنتمى إليه إنجلترا ، فقد اصطلح المؤلف على تسميته بالمسيحية الغربية . ولقد حدد امتداده المكانى فى أوقات مختلفة ، كما عين أصوله الزمانية . فوجد أنه يرجع إلى زمن أبعد ، لكنه ليس أقدم كثيراً من تميز أجزائه بعضها عن بعض . ويكشف إرتياد أصوله عن وجود مجتمع آخر – غدا الآن ميتاً – هو المجتمع اليونانى الرومانى (أو الهلينى) الذى يتصل به المجتمع الغربى بصلة البنوة .

وواضح كذلك ؛ أن ثمة عدداً من المجتمعات القائمة الأخرى هى المجتمعات . المسيحية الأرثوذكسية – الإسلامية – الهندية – الشرقية القصوى ، يضاف إليها مخلفات المجتمعات المتحجرة الغير المعينة الشخصية فى هذه المرحلة ، مثل اليهود والبارسيين .

الفصل الثانى : الدراسة المقارنة للحضارات

يهدف هذا الفصل إلى التحقق من شخصية جميع المجتمعات ــ أو بالأحرى الحضارات ــ وتعيينها وتسميتها .

ومناط طريقة البحث الأولى ، تناول الحضارات القائمة التى تحققت شخصيتها بالفعل ، وفحص أرومتها والنظر فيما إذا كان فى وسعنا العثور على حضارات إندرست فى الوقت الحاضر ، تتصل بها الحضارات القائمة بصلة البنوة ؛ على غرار ما وجد من انتساب المسيحية الغربية إلى الحضارة الهلينية .

ومجمل أمارات هذه البنوة :

(أ) دولة عالمية (مثل الإمبراطورية الرومانية) .

(ب) فترة فراغ تظهر فيها :

١ ــ عقيدة دينية .

٢ ــ هجرات البرابرة خلال عصر بطولة .

ويعتبر ظهور العقيدة الدينيــة والهجرات « نتيجتين على التوالى » للبروليتاريا الداخلية والبروليتاريا الخارجية « لحضارة تموت .

وبالسير على هدى هذه القرائن ، نجد :

أن المجتمع المسيحى الأرثوذكسى ، يتصل بصلة البنوة ــ مثل المجتمع الغربى ــ إلى المجتمع الهلينى .

وإذا تتبعنا المجتمع الإسلامى إلى أصوله ؛ نجد أنه ذاته « حصيلة اندماج مجتمعين كانا فى الأصل متميزين هما : الإيرانى والعربى » وباقتفاء أثر هذين المجتمعين ، نجد ــ خلف ألف سنة من « المداخلة الهلينية » ــ مجتمعاً مندرسا يدعى « المجتمع السورى » .

ونجد وراء مجتمع الشرق الأقصى : مجتمعا صينيا ،

وتعتبر المجتمعات المتحجّرة بقايا واحد أو أكثر من المجتمعات البائدة .

ونجد المجتمع المينووى وراء المجتمع الهيليني . بيد أننا نلاحظ أن المجتمع الهليني — عكس المجتمعات التي تتصل بصلة البنوة إلى مجتمعات أخرى — لم يعتنق عقيدة دينية كشفتها البروليتاريا الداخلية للمجتمع المينووى . ومن ثم ، لعل المجتمع الهليني ، لا ينحدر تماما عن المجتمع المينووى .

وراء المجتمع السندى : نجد المجتمع السومرى .

وبالإضافة إلى المجتمع السندى ، نجد مجتمعين آخرين هما الحيثي والبابلى ، يعتبران عقيين للمجتمع السومرى .

ليس للمجتمع المصرى سلف ينتسب هو إليه ، كما أن ليس له خليفة .

وفى وسعنا أن نحقق فى العالم الجديد ، ذاتية أربعة مجتمعات : الأنديانى والياكوتى والمكسيكى والمايانى .

ومن ثم ، يصبح مجموع ما لدينا تسعة عشر نوعا للحضارات . ولو قسمنا المجتمع المسيحى الأرثوذكسى إلى : أرثوذكسى بيزنطى (فى الأناضول والبلقان) وأرثوذكسى روسى ، وقسّمنا مجتمع الشرق الأقصى إلى صينى ويابانى / كورى ، يصبح لدينا واحد وعشرون مجتمعاً

الفصل الثالث — قابلية الحضارات للمقارنة

١ — الحضارات والمجتمعات البدائية :

تشترك الحضارات على أية حال فى نقطة واحدة ، مدارها أنها نوع آخر ، غير نوع المجتمعات البدائية .

وهذه المجتمعات : أكثر عدداً بكثير من الحضارات لكنها — أفرادا — أصغر من أفراد الحضارات بكثير .

٢ ــ خطأ فكرة وحدة الحضارة :

ناقض المؤلف الفكرة التى وصفها بالضلال ، القائلة بأن ثمة حضارة واحدة هى الحضارة الغربية ؛ ولفظها . كما ناقش نظرية إستطارة الحضارة القائلة بأن مصر هى أصل جميع الحضارات ، ولم يقبلها .

٣ ــ الدفاع عن فكرة قابلية الحضارات للمقارنة :

تعتبر الحضارات ــ نسبيا ــ ظاهرة حديثة للغاية فى التاريخ البشرى . فإن أقدمها لم ينشأ أبعد من ستة آلاف سنة مضت . ولذلك رؤى معاملتها باعتبار أنها تنتمى لنوع واحد ، يعاصر بعضه بعضا من الناحية الفلسفية .

ويقر المؤلف أن القول بأن التاريخ لايعيد نفسه ، لايحول دون الإجراء المقترح ، وهو القاضى بأن الحضارات متعاصرة .

وقد وصف المؤلف هذا القول بأنه نصف الحقيقة .

٤ ــ التاريخ والعلم والمصنف الخيالى :

هذه هى وسائل ثلاث مختلفة لتقديم موضوعات الفكر وبحثها . ومن بينها ظواهر الحياة البشرية . ويفحص المؤلف الاختلافات بين هذه الأساليب الفنية الثلاثة ويناقش استعمالات العلم والمصنف الخيالى ، فى عرض مبحث التاريخ .

الباب الثالث

بدايات الحضارات

الفصل الرابع : المشكلة وكيف لاتحل

١ ــ استعراض المشكلة :

من بين مجتمعاتنا الحضارية الواحد والعشرين ، ثمة خمسة عشر تتصل بصلة البنوة بحضارات سابقة . لكن ستة مجتمعات فقط قد انبعثت مباشرة

من الحياة البدائية . والمجتمعات البدائية هى فى حالة سكون فى الوقت الحاضر ، لكن من الواضح أنها ما كانت – أصلا – إلا فى حالة تقدم ديناميكى . فإن الحياة الاجتماعية أقدم من الجنس البشرى نفسه ، إذ توجد فى محيط الحشرات والحيوانات . ولابد أن شبيه الإنسان قد برز إلى مستوى الإنسان ، ظل حماية المجتمعات البدائية . وهذا تقدم يعتبر أعظم من أى تقدم حققته حضارة من الحضارات . ومع ذلك ، فإن المجتمعات البدائية – كما نعرفها – هى حالة سكون . ومناط المشكلة هو : لماذا ، وكيف تحطمت « قرصة العادة » البدائية هذه ؟

٢ – الجنس :

إن العامل الذى نبحث عنه ، يجب أن ينحصر إما فى صفة خاصة فى فى الكائنات البشرية التى بدأت عملية التحضّر ، أو طائفة من مظاهر بيئتها وقت بداية الحضارة ، أو فى شىء من التفاعل بين الجنس والبيئة .

ولقد بحث المؤلف أول هذين الرأيين المتصل بوجود جنس متفوق تفوقا فطريا كالجنس النوردى مثلا ، وأثبت بطلانه .

٣ – البيئة :

بحث المؤلف الرأى القائل بأن أنواعاً من البيئات توفّر الأسباب السهلة الميسرة للحياة ، وتتيح مفتاح أصل الحضارات . وقد أثبت بطلان هذا الرأى :

الفصل الخامس : التحدى والاستجابة

١ – المفتاح الأسطورى :

يُعزى ضلال الرأيين اللذين سبق بحثهما ونبذهما ، إلى تطبيقهما منهاج العلوم المادية أى علمى الحياة والجيولوجيا ، على مشكلة ، هى فى الواقع معنوية .

ويوحي استعراض الأساطير الكبرى التي أودعها الجنس البشري حكمته ، باحتمال أن الإنسان قد حقق الحضارة – لا نتيجة لمواهب بيولوجية عُليا أو بيئة جغرافية – ولكن استجابة لتحدي موقف ذي صعوبة خاصة ، استثاره الإنسان لبذل جهد لم يقم به من قبل .

٢ – تطبيق الأسطورة على المشكلة :

كان السهب الأفراسي (الصحراء الكبرى والصحراء العربية) قبل فجر الحضارة ، أرض رعي عامرة بالمياه : وطالع الجفاف الطويل الأمد والمتتالي هذه المراعي ، فجابه سكانها بتحد استجابوا له بطرائق مختلفة :

تمسك البعض بأرضهم وغيروا عاداتهم ، فابتكروا نمط الحياة البدوية ؛

ونقل آخرون مواطنهم صوب الجنوب إلى المناطق الاستوائية ، متتبعين أثر المرعى المرتدة . ومن ثم احتفظوا بطريقة حياتهم البدائية ، التي ما يزالون يعيشونها حتى الآن .

وآخرون ولجوا مستنقعات وغابات دلتا النيل ، فجابهوا بذلك التحدي الذي تمثله . وعملوا على تجفيفها ، فكان أن أقاموا الحضارة المصرية .

وانبعثت الحضارة السومرية بنفس الطريقة ومن نفس الأسباب ، في دلتا الدجلة والفرات .

وانبعثت الحضارة الصينية في وادي النهر الأصفر . ولا تُعرف طبيعة التحدي الذي برز إلى الوجود . لكن يبدو من الاستقراء ، أن الظروف كانت أبعد من أن توصف بالسهولة .

وانبعثت الحضارة المايانية من تحدي غابة استوائية وانبعثت الأنديانية من تحدي هضبة كئيبة .

وانبعثت الحضارة المينووية من تحدي البحر . وكان مؤسسوها لاجئين من شواطئ أفريقيا التي أصيبت بالجفاف . فامتطوا البحر واستقروا في كريت

وغيرها من جزائر بحر إيجه . ولم يأتوا فى بدء عهدهم من البر الأقرب فى آسيا وأوروبا .

أما بالنسبة لحالات الحضارة التى تنتسب لغيرها ، فلا بد أن التحدى الذى أبرزها إلى الوجود ، قد جاء فى الأصل – لا من العوامل الجغرافية – ولكن من البيئة البشرية ، أى من الأقليات المسيطرة للمجتمعات التى تتصل بها بصلة الجنس .

وتعريف الأقلية المسيطرة ، أنها طبقة حاكمة تعطلت وظيفتها القيادية ، فانقلبت إلى طاغية . وتستجيب البروليتاريا الداخلية والبروليتاريا الخارجية للحضارة المنهارة لهذا التحدى ، عن طريق الانفصال عنها : ومن ثم تضع أسس حضارة جديدة .

الفصل السادس : فضائل المشقة

يمكن تفسير بدايات الحضارات – وفقا لما ورد فى الفصل السابق – فى الفرض القائل بأن الأحوال الصعبة – أكثر من السهلة – هى التى تولد هذه الأعمال المجيدة .

ويقرب المؤلف هذا الفرض إلى حيز الوقائع ، بفضل التفسيرات التى يحصل عليها من المواقع التى سبق أن ازدهرت الحضارة فى ربوعها ، لكنها أخفقت بعد ذلك . ثم كان أن انكفأت الأرض إلى حالتها الأصلية :

إن ما كان وقتا ما مشهداً للحضارة المايانية ، هو فى الوقت الحاضر ، غابة استوائية .

وازدهرت الحضارة السندية فى سيلان فى النصف الغربى المطر من الجزيرة لكنه أصبح الآن قاحلا تماما . وإن ظلت آثار نظام الرى السندى تشهد على ازدهار الحضارة هناك .

وتقوم أطلال بصرى وتدمر فى واحات صغيرة فى الصحراء .

وتدل التماثيل القائمة فى جزيرة ايستر – وهى من أقصى الأماكن بعدا فى المحيط الهادى – على أنها كانت مركزاً لحضارة بولونيزية .

وتعتبر إنجلترا الجديدة التى قام مستعمروها الأوربيون بدور غالب فى تاريخ أمريكا الشمالية ، من أكثر أجزاء القارة كآبة وجدبا .

وقامت المدن اللاتينية فى مقاطعة كامبانا الرومانية – وكانت حتى وقت قريب مباءة للملاريا – بدور عظيم فى قيام سلطان روما . عكس الدور الضئيل الذى قامت به كابوا التى تتمتع بمركز ممتاز .

كذلك يورد المؤلف صورا مستخلصة من المؤرخ اليونانى هيرودوتس ومن الأوديسية ومن سفر الخروج .

ولقد لبث أهالى نياسالند – حيث الحياة ميسرة – متوحشين بدائيين حتى وفد إليهم غزاة من أوروبا البعيدة القاسية المناخ .

الفصل السابع : تحدى البيئة

١ – حافز البلاد الشاقة :

يورد المؤلف سلسلة من أزواج البيئات المتجاورة . ونجد البيئة المبتدعة فى كل : المنطقة « الأشد وعورة » . ولها كذلك سجل أشد ضياءا ، كمنشئ لشكل أو آخر من أشكال الحضارة .

ويطالعنا فى هذا الشأن :

وادى النهر الأصفر ووادى اليانجتس – آتيكا وبوثيا – بيزنطة وكالخيدون – إسرائيل ، فينيقية وفلسطين – براندنبرج وأرض الراين – اسكتلندا وإنجلترا – الجماعات المختلفة للمستعمرين الأوربيين فى أمريكا الشمالية .

٢ – حافز الأرض الجديدة :

نجد أن الأرض « البكر » تبرز إستجابات أشد حيوية من الأرض التى

سبق اقتحامها بالفعل ، وشغلها مقيمون متحضرون ، فيسّروا المعيشة فيها ،

ومن ثم ؛ إذا ما تناولنا كل الحضارات التى تتصل بصلة البنوة بحضارات أخرى ، نجد أنها قد أبرزت أعجب تجلياتها فى أماكن خارجة عن المنطقة التى شغلتها الحضارة المُنشئة . ويتبدّى بصورة خاصة تفوق الاستجابة التى تستثيرها أرض جديدة ، إن كان الوصول إلى الأرض الجديدة يتطلب عبور البحر .

ويورد المؤلف أسباب ذلك ؛ كما يورد أسباب ظاهرة إرتقاء الدراما فى الموطن الأصلى ، والملاحم الشعرية فى المناطق المستوطنة عبر البحار .

٣ — حافز الضربات :

يورد المؤلف أمثلة مختلفة من التاريخ الهلينى والغربى لتفسير المراد بالقول بأن الهزيمة الساحقة الفجائية ، كفيلة باستثارة الجانب المهزوم ، لترتيب نظام داره ، والاستعداد لتحقيق إستجابة منتصرة .

٤ — حافز الضغوط :

تُبدى الأمثلة المختلفة أن الشعوب التى تشغل مواقع حدود وتتعرض لعدوان متصل ، تُظهر إستطالة أشد إشراقا من جيرانها أصحاب المواقع المحمية .

ومصداقا لذلك ؛ كان العثمانيون الواقعين تحت ضغط حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، فى موضع أفضل من القرمانيين القاطنين شرقهم . وكانت للنمسا حياة جارية أفضل من حياة بافاريا ، بفضل تعرض النمسا بإستمرار لعدوان الأتراك العثمانيين .

ويبحث المؤلف — من وجهة النظر هذه — موقف الجماعات المختلفة فى بريطانيا ومصائرهم خلال الفترة الواقعة بين سقوط روما والفتح النورمندى ،

■ – حافز النقم :

ما برحت طوائف وشعوب تعانى طوال قرون ، صنوفا مختلفة من النقم أنزلتها بها طوائف وشعوب كانت لها السيادة عليها . وتستجيب – بصفة عامة ، الشعوب والطوائف التى أصابتها النقم ، لتحدى الحرمان من المشاركة فى فُرص ومزايا معينة ، بإبراز طاقة استثنائية ، وإظهار أهليّة غير عادية فى الاتجاهات المفتوحة . ومثلها فى هذا الشأن ، مثل الأعمى الذى تقوى لديه حاسة السمع ، قوة خارقة .

وكان الرق ، أثقل تلك النقم . بيد أنه انبعثت خلال القرنين السابقين للميلاد ، من حشود الأرقاء الذين استُجلبوا إلى إيطاليا من الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ، طبقة من المعتوقين أحرزوا نفوذا يعمل له حساب . ومن عالم الرق هذا ، ظهرت العقائد الدينية الجديدة للبروليتاريا الداخلية ؛ وكانت المسيحية من بينها :

ويبحث المؤلف – من نفس وجهة النظر – مصائر الجماعات المختلفة للشعوب المسيحية ، التى أخضعها العثمانيون لحكمهم . وبصفة خاصة الفناريون . ويستخدم المؤلف هذا المثال – هو ومثال اليهود – للبرهنة على أن السمات التى توصف بأنها جنسية ، لا تمت فى الواقع إلى الجنس بحال . لكن مرجعها التجارب التاريخية التى تمر به الجماعات موضع البحث .

الفصل الثامن : الوسط الذهبى

١ – كاف وكثير جداً :

هل فى إمكاننا أن نقرر – بكل بساطة – أنه كلما اشتدت صرامة التحدى ؛ كلما ارتقى مستوى الاستجابة ؟

أو ، هل ثمة تحد ، أشد من أن يستثير استجابة ؟

بالتأكيد ، إن بعض التحديات التى دحرت فريقا أو أكثر ممن واجههم ؛ قد استثارت فى النهاية ، استجابة منتصرة . مثال ذلك : أن التحدى الذى مثله امتداد نطاق الحضارة الهلينية ، كان قويا للغاية على مقدرة استجابة الكلت ، بينما استجاب له بنجاح له خلفاؤهم التيوتون . واستثارت « المداخلة الهلينية » فى العالم السورى ، سلسلة من الاستجابات السورية الفاشلة — الزرادشتية ، اليهودية (حركة المكابيين) ، النسطورية المينوفيستية ، لكن نجحت الاستجابة ، ممثلة فى ظهور الإسلام .

٢ — المقارنة فى ثلاثة حدود :

وعلى أية حال ، لايتأتى التدليل على أن التحديات يمكن أن تتطرف فى صرامتها . بمعنى أن التحدى الأقصى ، لن يُبرز دائما الاستجابة المثلى . ومصداقا لذلك ، استجاب مهاجرو الفايكنج من النرويج استجابة رائعة لتحدى بيئة ايسلندا الصارمة ، لكنها انهارت أمام تحدى بيئة جرينلند . وكانت بيئة « ماساشوستس » ، تحديا صارما للمستعمرين الأوربيين ، أقسى من بيئة « دكسى » التى استثارت استجابة طيبة . لكن لابرادور التى أبرزت تحديا أشد قسوة من تحدى ماساشوستس ، لم يستطع المستعمرون الأوربيين الاستجابة لها .

ويتلو ذلك أمثلة أخرى : فإن حافز الضربات قد يتطرف فى صرامته سيما إن طال أمده ، مثل تأثير الحرب الهانيبالية على إيطاليا . ويستثير الصينيين تحدى اجتماعى ، قوامه هجرتهم إلى الملايو . لكنهم ينهزمون أمام تحدى اجتماعى أشد صرامة يقابلهم فى بلد سكانه من البيض مثل كاليفورنيا .

ويستعرض المؤلف فى النهاية درجات مختلفة من التحدى الذى تبرزه الحضارات ، لجيرانها البرابرة .

٣ ــ حضارتان عقيمتان :

هذا القسم استمرار لمناقشة المثال الأخير الوارد فى القسم السابق ،

كان ثمة جماعتان من البرابرة يقطنون خلال الفصل الأول من تاريخ المسيحية الغربية على حدودها ، بلغت استثارتهم درجة جعلتهم يشرعون فى إخراج حضارتين منافستين لحضارتهم الخاصة . إلا أنهما مع ذلك قد ذبلتا فى البرعمة . هاتان الحضارتان هما حضارة الغرب الأقصى التى اعتنقها مسيحيو الكلت (إيرلندا وأيونا) وحضارة الفايكنج الاسكندنافيين .

ويبحث المؤلف هاتين الحالتين ، ودرس الاحتمالات التى قد تنجم لو تغلبت على المسيحية الغربية « هاتان الحضارتان المنافستان لها ، لو لم تستوعبهما الحضارة التى أضاءت من روما ومن أرض الراين .

٤ ــ ضغط الإسلام على عالمى المسيحية :

كان تأثير ضغط الإسلام على المسيحية الغربية طيبا فى مجموعه ، فإن الثقافة الغربية خلال القرون الوسطى « تدين بالكثير إلى الأندلس المسلمة إلا أن الضغط الإسلامى على المسيحية البيزنطية ، كان متناهيا فى شدته واستثار نزعة ساحقة لإعادة تشييد الإمبراطورية الرومانية تحت حكم ليو السورى .

كذلك يتكلم المؤلف عن حالة الحبشة التى يعتبرها « مجتمعا مسيحياً متحجراً ، قائماً فى رباط محاط بالعالم الإسلامى . ... »

الباب الثالث

استطالات الحضارات

الفصل التاسع : الحضارات المتعطلة

١ ــ البولونيزيون والأسكيمو والبدو :

قد يبدو أنه ما دامت الحضارة قد ظهرت للوجود ، فإن ارتقاءها يصبح مؤكداً ؛ لكن الأمر ليس كذلك ، وفقاً لما يبديه سجل طائفة من الحضارات التي حققت لها وجودا ، لكنها أخفقت فى اتصال نموها .

وتمثل مصير هذه الحضارات المتعطلة ، فى مواجهتها تحد على خط الحد بين درجة من الشدة تستثير استجابة ناجحة ، وبين درجة أعظم شدة تجر إلى الهزيمة ؛

وتطالعنا ثلاث حالات انبعث فيها التحدى من هذا النوع من البيئة المادية ؛

وكانت النتيجة فى كل حالة ، عملا فذا حققه المستجيبون الذين استهلكوا كافة طاقاتهم للاستجابة للتحدى ؛ بحيث لم يعد لديهم مايؤهلهم لمزيد من الارتقاء ؛

فإن البولونيزيين قد حققوا عملا فذا قوامه الانتقال بين جزائر المحيط الهادى ، إلا أن المحيط قد هزمهم فى النهاية ، فكان أن انكفأوا إلى حياتهم البدائية على جزائرهم العديدة المنعزلة .

وحقق الإسكيمو دورة سنوية حاذقة ؛ تخصصت فى الحياة على شواطئ المحيط المتجمد ،

وأنجز البدو كرعاة دورة سنوية مماثلة على السهب شبه الصحراوى .

وثمة نقاط كثيرة مشتركة بين المحيط بجزائره والصحراء براحاتها . ويحلل المؤلف تطور البداوة خلال فترات الجفاف . ويلاحظ أن الصيادين يتطورون إلى زراعيين قبل أن يتخذوا الخطوة التالية المتصلة بصيرورتهم بدوا . ويعتبر قابيل وهابيل أنموذجين للزارع والبدوى . وتُعزى دائما إقتحامات البدو لمناطق الحضارات ؛ إما إلى إزدياد قسوة الجفاف ، فتدفع البدو عن السهب؛ أو إلى إنهيار حضارة من الحضارات ، فيخلف الإنهيار فراغا يجذب إليه البدوى ويجعله مشتركا فى مرحلة « هجرات » .

٢ – العثمانيون :

تمثل التحدى الذى كان النظام العثمانى استجابة له ، فى نقل جماعة بدوية إلى بيئة تضم جماعات مستقرة كان عليها أن تحكمها .

وحل العثمانيون مشكلتهم بمعاملتهم رعاياهم الجدد على أنهم قطعان وأسراب بشرية وابتكروا مكافئا بشريا لكلاب أغنام البدوى فى شكل رقيق « ملكى » يشغل وظائف المديرين والجنود .

ويورد المؤلف أمثلة أخرى للإمبراطوريات البدوية المماثلة ، كالمماليك مثلا . إلا أن النظام العثمانى قد فاق النظم الأخرى فى كفايته وزمن بقائه . على أنه كابد تلك الصلابة القتالة التى هى سمة البداوة .

٣ – الاسبرطيون :

كانت استجابة الإسبرطيين لتحدى إفراط السكان الذى ألمّ بالعالم الهليني ؛ عبارة عن إبراز عمل قد يشابه فى كثير من النواحى العمل الذى أظهره العثمانيون . مع فارق أنه فى الحالة الإسبرطية كانت الطبقة العسكرية هى الأرستقراطية الإسبرطية نفسها . لكنهم كانوا كذلك (أرقاء) استعبدهم الواجب الذى فرضوه على أنفسهم ، ومداره إخضاع شعب من مواطنى اليونان إخضاعاً دائماً .

٤ ــ خصائص عامة :

للإسكيمو والبدو والعثمانيين والإسبرطيين خاصيتان مشتركتان : التخصص والطبقة :

فالنسبة للإسكيمو والبدو ؛ يقوم الكلاب والرنة والجياد والماشية ، مقام الطبقات المسترقة عند العثمانيين :

ويحطُّ التخصص فى جميع هذه المجتمعات من شأن الكائنات البشرية ، فيُنْزلها إلى مرتبة : الإنسان القارب ، والإنسان الحصان ، والإنسان المحارب . إلا أن التخصص برفع الأدوات التى يستخدمها إلى مرتبة شبيهة بمرتبة الإنسان الكامل . والإنسان الكامل ، كان غاية بركليس التى أفصح عنها فى خطاب الرثاء الذى ألقاه . والإنسان الكامل هذا ، هو الذى فى وسعه تحقيق الإرتقاء الحضارى .

وتشابه هذه الجماعات المتعطلة مجتمعات النحل والنمل التى ما برحت فى حالة سكون قبل فجر الحياة البشرية على الأرض . وتشابه كذلك المجتمعات التى ترسمها (المدن الفاضلة) .

ويعلو ذلك كله ؛ مناقشة موضوع « المدن الفاضلة » . ومن رأى المؤلف أن المدن الفاضلة بصفة عامة ؛ نتاج الحضارات فى مرحلة تحللها . وهى محاولات ترنو إلى السعى لوقف الانهيار ، عن طريق وقف تطور المجتمع عند الحد الذى هو فيه وقت رسم البرنامج

الفصل العاشر : طبيعة إرتقاء الحضارات

١ ــ الدروب الخدّاعة :

يحدث الارتقاء وقتما تُصبح الاستجابة لتحد معين ، لا ناجحة فى نفسها فحسب ؛ لكنها تستثير تحديا إضافيا ، يُقابَل باستجابة ناجحة ،

فكيف يتأتى قياس مثل هذا الارتقاء ؟

هل يُقاس وفقا لسيطرة متزايدة على بيئة المجتمع الخارجية ؟

إن ثمة نوعين من مثل هذه السيطرة المتزايدة :

سيطرة متزايدة على البيئة البشرية التي تتخذ عادة شكل غزو الشعوب المجاورة .

وسيطرة متزايدة على البيئة المادية ، تُعبّر عن نفسها بتحسينات فى الأسلوب التكنولوجى المادى .

ويورد المؤلف أمثلة لبيان أى من هاتين الظاهرتين — سواء التوسع السياسى والحربى أو تحسين الأسلوب الفنى — لا يعتبر قاعدة مناسبة لقياس الارتقاء الحقيقى . فإن التوسع الحربى التكنولوجى عادة هو نتيجة نزعة حربية تعتبر بدورها قرينة للتدهور . ولا تُبدى التحسينات التكنولوجية سواء أكانت زراعية أو صناعية ، سوى ارتباطاً قليلا — أو لا شىء البتة — بينها وبين الارتقاء الصحيح . وحقا فقد يرتقى تماماً الأسلوب الفنى وفيما يكون التحضر الفعلى فى مرحلة إنحطاط . والعكس بالعكس .

٢ — التقدم صوب تقرير المصير :

يُظهر المؤلف أن قوام التقدم الحقيقى ، عملية يعرّفها بكلمة (التسامى) ويعنى بها التغلب على الحواجز المادية . وتعمل عملية « التسامى » على إطلاق طاقات المجتمع من عقالها لتستجيب للتحديات التى تغدو — منذ الآن وصاعدا — داخلية أكثر منها خارجية ، روحانية أعظم منها مادية .

ويُفسّر المؤلف هذا التسامى بأمثلة من التاريخين الهلينى والغربى الحديث .

الفصل الحادى عشر : تحليل الارتقاء

١ ـ المجتمع والفرد :

ثمة وجهتا نظر تقليديتان شائعتان تتصلان بعلاقة المجتمع بالفرد :

تجعل إحداهما من المجتمع مجرد حشد من ذرات هى الأفراد .

وتعتبر الأخرى المجتمع كائناً حياً ، وما الأفراد إلا أجزاء منه لا يُدركون إلا « أعضاء » أو « خلايا » فى المجتمع الذى ينتسبون إليه .

ويُبدى المؤلف عدم رضائه عن كلا الرأيين . وعنده أن المجتمع عبارة عن نظام للعلاقات بين الأفراد . ولا يتأتى للكائنات البشرية أن تحقق وجودها الحقيقى ، إلا بتفاعلها مع رفاقها . وهنا يكون المجتمع ميداناً للعمل لعدد من الكائنات البشرية .

بيد أن الأفراد هم « مصدر الفعل » ، ذلك لأن جميع أسباب الارتقاء تنبعث عن أفراد مبدعين أو أقليات صغيرة من الأفراد . ويتكون عملهم من جزءين :

تحقيق إلهامهم أو كشفهم « مهما يكن من أمره .

وهداية المجتمع الذى ينتمون إليه « إلى سبيل الحياة الجديد هذا .

ويتأتى ـ من الناحية النظرية ـ حدوث هذه الهداية بطريق أو بآخر ،

إما بتعريض الجمع للتجربة الواقعية التى حوّلت الأفراد المبدعين .

وإما تقليد الناس لمظاهر الهداية الخارجية . وبعبارة أخرى « الهداية بفضل المحاكاة .

ويُعتبر الطريق الأخير ـ من الناحية العملية ـ هو مجال الاختيار الوحيد المفتوح للجميع ، ما خلا أقلية بسيطة من الجنس البشرى . فإن المحاكاة طريق مختصر ، لكنه طريق فى وسع عامة الناس جميعاً سلوكه فى إثر زعمائهم .

٢ ـ الانسحاب والعودة :

قد يمكن وصف فعل الفرد المبدع بأنه حركة مزدوجة قوامها الانسحاب والعودة :

الانسحاب بغية الاستنارة .

والعودة ، رجاء إثارة رفقائه :

ويوضح المؤلف رأيه من مثال أفلاطون عن (الكهف) ، وقياس القديس بولس عن البذرة ، ومن قصة الإنجيل ، ومن غيرها من المصادر .

ثم يوضح المؤلف الفعل العملى فى حياة الرواد العظام : القديس بولس — القديس بندكت — القديس جريجورى الكبير — البوذا — الرسول محمد — ماكيافيللى — دانتى .

٣ — الانسحاب والعودة : الأقليات المبدعة :

إن الانسحاب الذى تعقبه عودة ، هو كذلك سمة « شبه المجتمعات » التى تؤلف الأجزاء الأساسية فى المجتمعات بمعناها الأصيل . وتتقدم الفترة التى تبذل فيها مثل هذه المجتمعات الشبيهة ، مشاركتها فى ارتقاء المجتمعات التى تنتمى إليها ، فترة ترتد فيها بجلاء عن الحياة العامة لمجتمعها .

ومن قبيل المثال : أثينا فى الفصل الثانى من إرتقاء المجتمع الهلينى ، وإيطاليا فى الفصل الثانى من إرتقاء المجتمع الغربى » وإنجلترا فى فصله الثالث ،

ويقرر المؤلف إحتمال قيام روسيا بتأدية دور مماثل فى الفصل الرابع من إرتقاء المجتمع الغربى .

الفصل الثانى عشر : التمايز من خلال الإرتقاء

يتضمن الإرتقاء بجلاء — وفقاً لوضعه فى الفصل السابق — تمايزاً بين أجزاء مجتمع فى مرحلة النمو . فإن بعض الأجزاء ستُبرِز استجابة ناجحة فى

كل مرحلة ، وسينجح بعضها فى تتبع خُطاها بفضل المحاكاة . وسيفشل بعضها فى تحقيق الإصالة أو المحاكاة على السواء ؛ ومن ثم تتهاوى .

وسيكون ثمة كذلك تمايز متزايد بين تواريخ المجتمعات . وواضح أن للمجتمعات سمات غالبة مختلفة . إذ يتفوق بعضها فى الفن والبعض فى الدين ، والآخر فى الابتكارات الصناعية : بيد أنه لن تغفل المشابهة الجوهرية فى غايات الحضارات ؛ فإن لكل حبة مصيرها ، لكن جمع البذور من نوع واحد « يبذرها » باذر » واحد على أمل إجتناء نفس المحصول .

الباب الرابع

إنهيارات الحضارات

الفصل الثالث عشر : طبيعة المشكلة

من الواحد والعشرين حضارة (ومن ضمنها الحضارات المتعطلة الواردة فى القائمة) تحققنا من وفاة ست عشرة منها وأن تسعا من العشر الباقية — أى ما خلا الحضارة الغربية — يبدو عليها مظاهر الانهيار بالفعل .

ويمكن إجمال طبيعة الانهيار ، فى ثلاث نقط :

إخفاق الطاقة الإبداعية فى الأقلية المبدعة . وتتحول هذه الأقلية منذ الآن فصاعدا إلى مجرد أقلية مسيطرة .

وردّ الأغلبية على تحكم الأقلية بسحبها ولاءها والعدول عن محاكاتها .

ويتلو ذلك ضياع الوحدة الاجتماعية » فى المجتمع فى مجموعه .

وسيكون علينا كشف عوامل مثل هذه الانهيارات .

الفصل الرابع عشر : حلول حتمية

تصر بعض المذاهب الفكرية على نسبة إنهيارات الحضارات إلى عوامل خارج نطاق سلطة البشر :

١ — نادى الكتاب الوثنيون والمسيحيون على السواء إبان انحطاط الحضارة الهلينية بأن إضمحلال مجتمعهم ، مرده « تهافت كونى » : على أن علماء الطبيعة المحدثين قد أبعدوا عصر « التهافت الكونى » إلى مستقبل قصى « لا يسهل تصوره وهـــذا يعنى إنتفاء تأثيره كلية على الحضارات سواء فى الحاضر أوفى الماضى .

٢ — اعتنق شبنجلر وغيره فكرة أن المجتمعات هى كائنات لها صفات التحوّل الطبيعىّ من الشباب والنضوج إلى الاضمحلال ، مثلها فى ذلك مثل المخلوقات الحية .

لكن المجتمع ليس كائناً من هذا النوع .

٣ — نادى آخرون بوجود شىء حتمى من شأنه تعويق سير الوراثة الأمر الذى يؤثر تأثيرا سيئاً على الحضارة وعلى الطبيعة البشرية ، وأنه بعد إنقضاء فترة من التحضّر لا يتيسر إنعاش الجنس إلا بفضل سكب (دم جديد همجى) .

ويناقش المؤلف هذا الرأى ويدحضه .

٤ — تتبقى نظرية أكوار التاريخ كما أبداها أفلاطون فى كتابه (تيمايوس) وكما وردت فى الأنشودة الرابعة لفرجيل وفى غيرها .. ولقد يكون هذا منشأ الفكرة فى كشوف الكلدانيين الخاصة بنظامنا الشمسى . بيد أن النظرية الحديثة الواسعة النطاق المتصلة بعلم الفلك ، قد جردت هذه النظرية من أساسها الفلكى . ولا يوجد دليل على صحة النظرية ، بل يوجد الكثير ضدها :

الفصل الخامس عشر : فقدان السيطرة على البيئة

إن الحجة الخاصة بهذا الفصل ، هى المناقض لحجة الفقرة الأولى من الفصل العاشر حيث أُبدى أن حدوث زيادة فى السيطرة على البيئة المادية — مقياسها التحسن فى الأسلوب التكنولوجى — وحدوث زيادة فى السيطرة على البيئة البشرية — بقياسها على أساس التوسع الجغرافى أو الغزو العسكرى — ليست هى مقاييس الارتقاء أو عوامله .

هنا يُظهر المؤلف أن إضمحلال الأساليب التكنولوجى والتقلص الجغرافى بفعل الغزو العسكرى الخارجى ، ليست مقاييس الانهيارات وعواملها .

١ — البيئة المادية :

يورد المؤلف عدّة أمثلة لإظهار أن إضمحلال العمل الفنى الفذ ، ما برح نتيجة — لا سيما — لانهيار الحضارة : ومصداقا لذلك ، كان التخلى عن الطرق الرومانية ، وهجر نظام الرى فى العراق ؛ نتيجة — لا سيما — لانهيار كل من الحضارتين اللتين دأبتا على الاحتفاظ بهما من قبل . وأظهر المؤلف أن تفشى الملاريا الذى يقال إنه يُحدث « إنهيارات الحضارات » يعتبر نتيجة لها ، لا سيما .

٢ — البيئة البشرية :

يناقش المؤلف هنا نظرية جيبون التى تعزو « إنهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » إلى البربرية والدين (أى الى المسيحية) ، ونجده ينقضها . فإن مظاهر البروليتاريتين الخارجية والداخلية للمجتمع الهلينى ؛ كانت نتائج لانهيار المجتمع الهلينى التى كانت قد اتخذت بدورها مكانها فعلا .

ويعيب المؤلف على جيبون أنه لا يعود لبدء حديثه إلى أزمنة أقدم مما اختار . وأنه ليخطئ إذ يجعل العصر الأنطونى « عصراً ذهبياً » بينما هو فى الحقيقة « صيف هندى » (أى صيف كاذب) .

ويستعرض المؤلف أمثلة مختلفة للعدوان الموفّق ضد الحضارات ثم يُبدى أن العدوان الناجح ، يَحدُث – فى كل حالة – بعد الانهيار .

٣ – قضية سلبية :

يستثير عادة العدوان ضد مجتمع ما يزال فى غمار عملية الارتقاء ، هذا المجتمع ليبذل جهدا أعظم . وحتى إن كان المجتمع قد أصبح فى طور الانحطاط ، فإن العدوان عليه قد يبث فيه روح النشاط ويمنحه فترة حياة إضافية .

(يضيف الملخّص حاشية تفسر المعنى المستخدم فى هذه الدراسة المقصود بكلمة « الإنهيار ») .

الفصل السادس عشر : إخفاق تقرير المصير

١ – آلية المحاكاة :

المحاكاة ، هى الوسيلة الوحيدة التى تستطيع بفضلها الأغلبية العاطلة عن الإبداع ، اقتفاء أثر الزعماء المُبدعين ، والمحاكاة نوع من « التدريب » ، أى تقليد آلى وسطحى للأصالة الملهمة . ويجر هذا « الطريق الأقصر » إلى الارتقاء – الذى لا مناص من سلوكه – إلى أخطار واضحة ، إذ قد يصبح القادة متأثرين بالروح الآلية التى تأصلت فى رفاقهم ، فتتولد عن ذلك حضارة متعطلة . أو قد يستبدل القادة – مترمين – مزمار الزمار ذى الثوب المخطط الذى يستخدمه فى الاستهواء ، بسوط القسر والضغط .

هنا ، تتطور الأقلية المبدعة إلى أقلية « مسيطرة » ، ويغدو « المريدون » « بروليتاريا » نافرة مبعدة .

وعندما يقع هذا ، يلج المجتمع طريقا يقوده إلى التحلل . وعندئذ يفقد القدرة على تقرير المصير .

وتفسر الفقرات التالية الطرائق التى يتم بها ذلك .

٢ – نبيذ جديد فى أوعية قديمة :

يجب – من الناحية المثالية – على كل طاقة اجتماعية جديدة تطلقها الأقليات المبدعة ، أن توجد نظما جديدة تستطيع بوساطتها أن تؤدى رسالتها ، ولكنها تُنجز عملها فى الواقع ، باستخدام النظم القديمة فى غير ما خصصت له ، أكثر مما تنجزه باستخدام النظم الجديدة . بيد أن كثيراً ما تدل النظم القديمة على عدم صلاحيتها وعلى رعونتها . ويستتبع ذلك ظهور إحدى نتيجتين :

إما تفكك النظم ؛ أى اندلاع ثورة .

وإما بقاء النظم ، وما يستتبع ذلك من انحراف القوى الجديدة ؛ التى عن طريقها تُنجز عملها .

وقد تُعرّف الثورة بأنها فعل بطىء للمحاكاة ، يتحول بفعل ذلك إلى انفجار . فهى إذن مظهر عنيف شاذ لإخفاق نزعة المحاكاة . ويستمر الارتقاء ، إذا حدث وتحقق الاتفاق بين النظم والقوى ، وإن لم يتم الاتفاق بين النظم والقوى . وإن تمّ الاتفاق وحدثت الثورة ، يصبح الارتقاء محفوفا بالخطر . وإن تولّد عنه الطابع المتسم بالعنف والشذوذ ، تسهل ملاحظة وجود الانهيار .

ويُلحق المؤلف آراءه السالفة الذكر ، بسلسلة من أمثلة عن ضغط القوى الجديدة على النظم القديمة . وتتألف المجموعة الأولى من ضغوط القوتين الجديدتين الكبيرتين اللتين تسريان فى المجتمع الغربى الحديث ؛

تأثير الصناعة (أى الاتجاه صوب الصناعة الآلية) على الحرب ، وبالأحرى ازدياد حدة الحرب منذ الثورة الفرنسية ،

وتأثير الديمقراطية والصناعية على نظام الدولة الإقليمية ؛ ويوضح ذلك استفحال العصبية القومية ، وإخفاق حركة التجارة الحرة ؛ . وتأثير الصناعة على نظام الملكية الخاصة ، ويوضحه قيام الرأسمالية والشيوعية ، وتأثير

الديمقراطية على التربية والعلمية ، ويصوّره قيام الصحافة الصفراء والديكتاتوريات الفاشية . وتأثير الأهلية الإيطالية على حكومات البلاد الواقعة وراء جبال الألب ، ويوضحه (فيما خلا إنجلترا) انبعاث ملكيات استبدادية . وتأثير الثورة الصولونية على المدن الهلينية ، ويوضحه ظواهر ، الطغيان والحرب بين الطبقات وبسط السلطة على الغير . وتأثير العصبية الإقليمية على الكنيسة المسيحية الغربية ، وتوضحه الثورة البروتستانية وحق الملوك الإلهي وحجب الروح الوطنية للمسيحية . وتأثير الشعور بالوحدة على الدين ، ويوضحه انبعاث التعصب الديني والاضطهاد وتأثير على النظام الطبقي ، ويوضحه ما ظهر في الحضارة الهندية . وتأثير الحضارة على مبدأ تقسيم العمل ، ويوضحه تفشّي النزعة الباطنية في الزعماء الذين يصبحون « إيثاريين » ، وتصيبهم الرخاوة ، وتصبح جماهيرهم مسترخية بالمثل .

ويصور المؤلف التأثير الأخير من حالات الأقليات التي أصابتها النقمة ، مثال اليهود . كما تصورها انحرافات الروح الرياضية الحديثة .

وينتهي المؤلف أخيراً إلى بحث تأثير الحضارة على نزعة المحاكاة . وهذا ما يبدو في توقف المجتمعات البدائية عن التوجه صوب تقاليد القبيلة » وانصرافها إلى محاكاة الرواد . وغالبا ما لا يكون الرواد المختارين للمحاكاة زعماء مبدعين ، ولكن مستغلين تجاريين ، أو قادة جماهير .

٣ — آفة الإبداع : عبادة الذات الفانية :

يُظهر التاريخ « أن الجماعة التي تستجيب بنجاح إلى تحدٍّ واحد » نادرا ما تستجيب بنجاح إلى التحدى التالى .

ويعرض المؤلف أمثلة مختلفة ، يظهر فيها إتفاق هذه الظاهرة مع قضايا أساسية مسلم بها في معطيات اليونانية والمصرية على السواء .

فإن أولئك الذين يُقيض لهم التوفيق ذات مرة ، نزّاعون في الفرصة

التالية إلى « الاستلقاء على مجاذيفهم » . ومصداقا لذلك ، نجد اليهود بعد ما استجابوا للتحديات الواردة فى العهد القديم « ينهزمون أمام التحدى الذى أبرزه العهد الجديد . ونجد أثينا أيام بركليس « تتضاءل إلى أثينا إبان عصر القديس بولص . ونجد فى عصر الإحياء أن المراكز التى استجابت للنهضة تدل على قصورها ، فكان أن استأثرت بالزعامة بيد مونت التى لم يكن لها دور فى أمجاد إيطاليا القديمة .

ولقد كانت كارولينا الجنوبية وفرجينيا ، ولايتين رئيسيتين للولايات المتحدة الأمريكية إبان الربعين الأول والثانى من القرن التاسع عشر ، لكنها أخفقتا بعد الحرب الأهلية ، فى استعادة مركزهما ، بالمقارنة بكارولينا الشمالية التى كانت مغمورة من قبل .

٤ — آفة الإبداع : عبادة النظام الفانى :

دلّت عبادة نظام المدينة فى المراحل الأخيرة للتاريخ الهلينى ، على أنه شَرَك تردى فيه اليونانيون : بينما نجا منه الرومان .

ولقد تسبب قيام « شبح » للإمبراطورية الرومانية ، فى انهيار مجتمع المسيحية الأرثوذكسية .

ويسوق المؤلف كذلك تفسيرات للتأثيرات المعوّقة لعبادة الملوك ، والمجالس النيابية والطوائف الحاكمة ، سواء أكانت بيروقراطية أو نظام قساوسة .

٥ — آفة الإبداع : عبادة أسلوب فنى :

تُبدى التفسيرات الخاصة بالتطور البيولوجى أن « الأسلوب الفنى » الكامل أو التكييف المكتمل لبيئة ما « غالبا ما يدل على أنه طريق تطورى مغلق ، وأن الكائنات الأكثر « تجريبية » تبرهن على طاقتها الحيوية . مثال ذلك أن البرمائيات « إذا ما قورنت بالأسماك تعتبر أنجح » وأن أسلاف

الإنسان الشبيه بالفأر إذا ما قورنت بمعاصريها « الزواحف الهائلة » تعتبر هى أيضاً أنجح .

ونجد فى المجال الصناعى « أن نجاح جماعة معينة فى المراحل الأولى لأسلوب فنى جديد (مثال ذلك اختراع الدولاب البخارى) ؛ يجعل تلك الجماعة أبطأ من غيرها فى استخدام المراوح اللولبية .

ويُظهر استعراض قصير لتاريخ فن الحرب من أيام داود وجالوت الوقت الحاضر ، أن المخترعين والمنتفعين من إبتكار واحد ، يشرعون فى كل مرحلة فى « الاستلقاء على مجاذيفهم » . ويدعون الابتكار التالى لأعدائهم .

٦ ــ انتحارية النزعة الحربية :

قدمت الفقرات الثلاث السابقة « تفسيرات لعبارة « إستلقاء المرء على مجاذيفه » التى تعتبر الطريقة السلبية للإستسلام إلى آفة الإبداع . وإننا ننتقل الآن إلى الشكل الإيجابى . للانحراف الذى عبرت عنه صيغة يونانية تعنى : التخمة « السلوك الأحمق ، الدمار . وتعتبر النزعة الحربية مثالا واضحا . ولم يكن السبب الذى دعا الأشوريين إلى استجلاب الخراب على أنفسهم ، كونهم ــ مثل المنتصرين الذين استعرضناهم فى نهاية الفصل السابق ــ قد تركوا حرابهم يعلوها الصدأ . فإنهم من الوجهة العسكرية كانوا دائماً أكفاء مبرزين فى فنهم . إن الدمار قد حل بهم « لأن عدوانهم قد استنفد طاقاتهم ، كما أن عدوانهم جعل جيرانهم لا يطيقون احتمالهم . ويعتبر الأشوريون مثالا للمقاطعة الحربية على الحدود التى توجه سلاحها ضد المقاطعات الداخلية لمجتمعها .

ويبحث المؤلف كذلك « الحالات المماثلة للفرنجة الاستراسيين ولتيمورلنك كما يذكر غير ذلك من الأمثلة .

٧ ــ سكرة النصر :

يوضح المؤلف فى المجال الغير الحربى ، مبحثا مشابها لذلك المبحث

الوارد فى الفقرة السابقة ، بإيراد مثال بابوية هيلدبراند ، وهى نظام فشل بعد ما رفع مركزه ومركز المسيحية من الأعماق إلى القمة ، ويعزى فشله إلى انتشائه بنجاحه الذاتى . فكان أن حلول استخدام الأسلحة السياسية فى صورة غير شرعية ، جريا وراء غايات جاوزت الحد .

ويبحث المؤلف من هذه الزاوية الخلاف الذى ثار حول تدخل الأمراء فى إقامة رجال الدين فى مناصبهم .

الباب الخامس

تحلل الحضارات

الفصل السابع عشر : طبيعة التحلل

١ – عرض عام :

هل التحلل ضرورى ، ونتيجة لإنهيار لامحيص عنها ؟

يظهر التاريخ المصرى وتاريخ الشرق الأقصى ، أن ثمة بديلا أطلقنا عليه اسم :

التحجّر ، وإلى التحجر يعزى ما آلت إليه الحضارة الهلينية . وقد يكون التحجّر عُقبى الحضارة الغربية .

إن ميزان التحلل البارز ، هو انقسام الجسم الاجتماعى إلى كسور ثلاثة :

أقلية مُسيطرة .

وبروليتاريا داخلية .

وهنا يلخّص المؤلف ما سبق قوله بشأن هذه الكسور ، ويشير إلى منهاج الفصول التالية :

٢ — الإشقاق ورجعى الميلاد :

تجهر فلسفة كارل ماركس المبهمة ، بأنه سيتلو الحرب الطبقية — بعد ديكتاتورية البروليتاريا — نظام للمجتمع جديد .

وبصرف النظر عن التطبيق الخاص لفكرة كارل ماركس ، فإن هذا هو ما يحدث فعلا وقتما يتردى مجتمع ، فى إنشقاق سبقت لنا ملاحظته ذى ثلاثة مظاهر . وينجز كل كسر عملا إبداعيا متميزا :

تُنجز الأقلية المسيطرة ، دولة عالمية .

وتُحقق البروليتاريا الداخلية ، عقيدة دينية عالمية .

وتُنشئ البروليتاريا الخارجية عصابات حربية بوبرية .

الفصل الثامن عشر — الاشقاق فى الجسم الاجتماعى

١ — الأقليات المسيطرة :

على الرغم من أن الحربيين والمستغلين ، هم — كما هو معروف — من بين الأنواع المميزة فى الأقليات الميطرة ، فإن ثمة كذلك أنواعاً أخرى أكثر نبلا : المشترعون ورجال الإدارة ، وهم يذودون عن الدولة العالمية ، وثمة الباحثون الفلاسفة الذين يَنبُون المجتمعات إبان إضمحلالها ، المذاهب الفلسفية المميزة .

وتطالعنا فى هذا الصدد ، السلة الطويلة من الفلاسفة الهلينين من سقراط إلى أفلوطين .

ويورد المؤلف أمثلة من مختلف الحضارات الأخرى .

٢ — البروليتاريا الداخلية :

يُبدى تاريخ المجتمع الهلينى ، وجود بروليتاريا داخلية تكوّنت من ثلاثة مصادر :

مواطنو الدول الهلينية الذين حرمتهم من ميراثهم ، الثورات السياسية والاقتصادية وجلبت عليهم الحرب .

والشعوب التى أُخضعت .

وضحايا تجارة الرق .

ويشترك جميعهم فى كونهم بروليتاريين من ناحية شعورهم وأنهم « فى » مجتمع ، لكنهم ليسوا من هذا المجتمع . وكان العنف هو أول ردود الفعل التى أظهروها .

لكن تلا ذلك إنبعاث ردود فعل « وديعة » تُوِّجت بكشف « العقائد الدينية العليا » مثل المسيحية . ولقد إنبعثت المسيحية — مثلما انبعثت الميثْرية وغيرها من العقائد المنافسة لها فى العالم الهلينى — فى مجتمع أو آخر من المجتمعات « المتحضرة » الأخرى التى أخضعتها الجيوش الهلينية .

ثم يبحث المؤلف البروليتاريات للمجتمعات الأخرى ، ويلاحظ ظواهر مشابهة بمعنى : تشابه أصول اليهودية والزرادشتية فى البروليتاريات الداخلية للمجتمع البابلى » مع أصول المسيحية والميثْرية فى المجتمع الهلينى ؛ وإن اختلف فيما بعد تطور تلك العقائد الدينية لأسباب يذكرها المؤلف .

ولقد كان تحوّل الفلسفة البوذية البدائية إلى العقيدة الماهايانية » مما زوّد البروليتاريا الداخلية الصينية بدين « أعلى »

٣ — البروليتاريا الداخلية للعالم الغربى :

يتيسر إيراد شواهد وفيرة عن وجود بروليتاريا داخلية فى المجتمع الغربى ؛ يدل عليها — إلى جانب أشياء أخرى — وجود طبقة مثقفة عُبئت من البروليتاريا ، وأصبحت وسيطا للأقلية المسيطرة .

على أن البروليتاريا الداخلية للمجتمع الغربى الحديث ، ما برحت — مع ذلك — تُنبى عن عُقم ملحوظ بالنسبة لإنجاب « أديان عليا » جديدة ؛ ويفسر سبب ذلك » بالحيوية المستمرة للكنيسة المسيحية التى خرجت منها الحضارة المسيحية الغربية .

٤ ـ البروليتاريات الخارجية :

ما دامت الحضارة فى طور إرتقائها « يتألق تأثيرها الثقافى صوب جيرانها البدائيين » وتنفذ إلى مسافات شاسعة « يغدو هؤلاء الجيران البدائيون ، جزءاً من « الأغلبية العاطلة عن الإبداع » التى تتبع قيادة الأقلية المبدعة .

ولكن عندما تنهار الحضارة ، يبطل فعل فُتُونها ، فيصبح البرابرة معادين لها . ويقوم خط حدود قد ينتقل موغلا فى الابتعاد « لكنه يستقر فى النهاية فى مكان واحد . فإذا ما وصلت الحال هذه المرحلة ، يغدو الوقت فى جانب البرابرة .

ويستخدم المؤلف التاريخ الهلينى لتعزيز رأيه : ويشير إلى ما ترتب عن ضغط حضارة معادية ، من تحليل العقائد الدينية البدائية للبروليتاريا الخارجية ـ وهى عقائد تقوم فى الأصل على فكرة الخصوبة ـ إلى أديان من نوع عصابة الحرب الأوليمبية الإلهية » .

ويعتبر شعر الملاحم « أبرز إنتاج البروليتاريات الخارجية .

٥ ـ البروليتاريات الخارجية للعالم الغربى :

يستعرض المؤلف تواريخ البروليتاريات الخارجية للعالم الغربى « ويوضح ردود فعلها العنيفة والوديعة . ويرد إختفاء البربرية من النوع التاريخى من العالم الغربى تقريبا « إلى الكفاية المادية الساحقة للجمتمع الغربى .

ومع ذلك فإن بربرية أفظع قسوة ، قد انتشرت فى المراكز القديمة للمسيحية الغربية نفسها .

٦ ـ مصادر الإلهام الوطنية والأجنبية :

تواجه الأقليات المسيطرة والبروليتاريات الخارجية عراقيل مختلفة وقتما تستقى إلهامها من مصدر أجنبى عنها . مثال ذلك الدول العالمية التى تؤسسها

أقليات مسيطرة أجنبية (مثل الهند أيام خضوعها للبريطانيين)، وهذه الدول أقل توفيقا فى اجتذاب رعاياها إليها؛ عكس الدول العالمية الوطنية مثل الإمبراطورية الرومانية. وتستثير عصابات الحرب البربرية مقاومة أشد عناداً وأعظم حماسا؛ إن كانت نزعتها البربرية - مثل الهكسوس فى مصر أو المغول فى الصين - مصطبغة بتأثير حضارة أجنبية.

ومن الناحية الأخرى تدين بصفة عامة الأديان العليا - التى تُنجبها البروليتاريات الداخلية - بجاذبيتها، إلى إلهام أجنبى المصدر، وتبرهن على هذه الحقيقة «جميع «الأديان العليا» تقريبا.

وتُبدى الحقيقة القائلة بعدم إمكان استيعاب تاريخ «الدين الأعلى» إلا بدراسة حضارتين: الحضارة التى استمد منها إلهامه والحضارة التى تأصلت فيها جذوره، تبُدى أن الفرض الذى قامت على أساسه هذه الدراسة - (أى الفرض القائل بأن الحضارات إن أخذت بمفردها هى ميادين واضحة للدراسة) - فرض ينهار عند هذه النقطة.

الفصل التاسع عشر - الانشقاق داخل الروح

١ - طرائق بديلة فى السلوك والشعور والحياة:

عندما يبدأ مجتمع فى التحلل» يحل محل الطرائق المختلفة للسلوك والشعور والحياة - ويتميز بها الأفراد خلال مرحلة الارتقاء - مجالات إختيار أخرى، إحـــداها (المذكورة أولا فى كل زوج) سلبى، والآخر (الأخير) إيجابى.

ويعتبر «التراخى» و «ضبط النفس» مجالى الاختيار البديلين للإبداعية. ويعتبر «الشرود» و«الاستشهاد» مجالى الاختيار البديلين لأتباع «المحاكاة».

وإن الشعور بالانسياق والشعور بالخطيئة» هما مجالا الاختيار البديلين للابتداع الحيوى الذى يصاحب الارتقاء. وإن الشعور بالابتذال والشعور

بالاتحاد ، هما مجالا الاختيار البديلين للشعور بـ « أناقة الأسلوب » الذى يُعتبر بدوره الصفة الذاتية المقابلة للعملية الموضوعية للتمايز ، وهى عملية تصاحب الارتقاء .

ويوجد على سطح الحياة ، زوجان بديلان من التغيرات على الحركة المتجهة نحو تحويل ميدان الحركة من الكون إلى الإنسان . ويضم ذلك بين ثناياه عملية سبق أن وصفناها بـ « الأثيرة » .

ويعجز الزوج الأول من البديلين – أى السلفية والمستقبلية – عن إنجاز هذا التحول ، ومن ثم يولدان العنف .

أما عن الزوج الثانى – أى الاعتزال والتجلى – فإنه يوفق فى إنجاز التحويل . ويتسم بالدعة .

وتسعى السلفية إلى « إرجاع الساعة إلى الوراء » . أما المستقبلية ، فإنها محاولة لسلوك طريق قصير لتحقيق عالم على الأرض يستحيل تحقيقه عمليا .

أما الاعتزال – وهو الارتقاء الروحى للسلفية – فإنه هجران عالم الحياة .

أما التجلّى – وهو الارتقاء الروحى للمستقبلية – فإنه فعل تقوم به النفس التى تُنجب « الأديان العليا » .

ويورد المؤلف أمثلة لجميع طرائق الحياة الأربع ويبين علاقات بعضها بالبعض الآخر .

وأخيراً ، يظهر المؤلف أن بعضا من طرائق الشعور هذه ، هو – أساسا – مظهر مميز للنفوس فى الأقليات المسيطرة .

ويعرّف المؤلف التراخى وضبط النفس ويورد الأمثلة .

ويعرف المؤلف الشرود والاستشهاد ويورد أمثلة .

٤ – الشعور بالانسياق والشعور بالخطيئة :

يقود الشعور بالانسياق إلى إحساس بأن العالم بأسره تحكمه « المصادفة

أو الضرورة » ويدلل المؤلف على تماثل الكلمتين . ويفسر مجال الإيمان المتسع الأرجاء » ويُبدى أن طائفة من العقائد الدينية القائلة بالجبر — مثل مذهب كالفين — تتسم بتوليدها طاقة وجرأة أخاذتين . ويبحث المؤلف تلك الحقيقة التى تبدو غريبة لأول وهلة .

وبينما يعمل الشعور بالانسياق عادة مُسكّنا ، فإن الشعور بالخطيئة ينبغى أن يعمل حافزا .

ويبحث المؤلف مذهبى « الكارما » و « الخطيئة الأصلية » (التى تجمع بين فكرتى الخطيئة والحتمية) . وفى المثال التقليدى للاعتقاد بأن الخطيئة هى العلة الحقيقية — وإن لم تكن الظاهرة — للكوارث القومية ، أخذت الكنيسة المسيحية بتعاليم أنبياء اليهود هذه ، وطفقت طوال قرون عدة تقدمها للعالم الهلينى الذى كان يعد نفسه — قرونا كثيرة — لقبولها ، دون أن يشعر .

وإنه وإن كان المجتمع الغربى قد ورث التقليد المسيحى ، لكن لعله أصبح ينزع إلى نبذ مسألة الشعور بالخطيئة ، وهو جانب جوهرى من هذا التقليد .

■ — الشعور بالابتذال :

يعتبر هذا بديلا للشعور بـ « أناقة الأسلوب » الذى هو سمة الحضارة فى سياق ارتقائها . ويتبدّى فى طرائق مختلفة :

(أ) السوقية والبربرية فى طرائق السلوك — فإن الأقلية المسيطرة تُظهر نفسها مكبّة على « الاتجاه البروليتارى » متخذة سوقية البروليتاريا الداخلية ، وبربرية البروليتاريا الخارجية ، إلى أن يحدث فى المرحلة النهائية للتحلل ، أن تُصبح طريقة حياة الأقلية المسيطرة ، لا يمكن تمييزها عن طريق حياة البروليتاريين .

(ب) السوقية والبربرية فى الفن – هو الثمن الذى يؤدى فى العادة للاستفادة الواسعة الخارقة للعادة ، لفن حضارة متحللة .

(حـ) اللغات العامة – يقود إمتزاج الشعوب إلى البلبلة والمنافسة المتبادلة بين اللغات ؛ وينتشر كلغات . وبسبب انتشارها ، حدوث إنحطاط يقابل درجة إنتشارها . ويورد المؤلف أمثلة وتفسيرات عدة .

(د) التركيب فى الأديان – يميز فى هذا الشأن ثلاث حركات هى :

١ – إندماج المدارس الفلسفية .

٢ – إندماج العقائد الدينية المنفصلة (مثال ذلك تخفيف مذاق دين إسرائيل بمزجه بالعقائد المجاورة . وهى حركة عارضها الأنبياء العبرانيون معارضة قيض لها النجاح فى النهاية) .

٣ – إمتزاج أو التركيب بين المذاهب الفلسفية والعقائد الدينية وبعضها بعضا .

ولما كانت المذاهب الفلسفية ، نتاج أقليات مسيطرة ، والأديان العلية هى نتاج البروليتاريات الداخلية ؛ فإن التفاعل هنا شبيه بما ورد فى الفقرة (أ) . ويظهر هنا – مثلما ظهر هناك – أنه رغما عن أن البروليتاريين يتحركون بعض الشىء نحو الأقلية المسيطرة ، تتحرك الأقلية المسيطرة مقدارا أكبر كثيراً نحو موقف البروليتاريا الداخلية . ومن قبل المثال : أن الدين المسيحى يستخدم أداة الفلسفة الهلينية فى تأويلاته اللاهوتية . بيد إن هذا يعتبر ترخصا صغيراً ، إن قورن بالتحول الذى طرأ على الفلسفة اليونانية فى غضون الفترة بين عصرى أفلاطون ويوليان .

(هـ) الأمير يعين الدين – هذا البحث جاء إستطرادا لبحث موضوع الإمبراطور الفيلسوف يوليان الذى أشير إليه فى الموضوع السابق

فهل فى وسع الأقليات المسيطرة أن تعالج ضعفها الروحانى ، باستخدام السلطة السياسية لفرض الدين أو الفلسفة التى تختارها ؟

مناط الإجابة ، أن الأقليات المسيطرة تفشل فى هذا السبيل ، ما خلا حالات استثنائية . فإن الدين الذى ينشد تأييد القوة ، يصيب نفسه بهذا العمل بضرر بالغ « أوالاستثناء الوحيد الملفت للنظر » إنتشار الإسلام . ولكن يدل تعمّق البحث هنا أيضاً على معنى الاستثناء فى حالة إنتشار الإسلام من هذه القاعدة .

ولعل الصيغة المضادة وهى « دين الشعب دين الأمير » أقرب للحق . فإن حدث أن اعتنق الحاكم — سواء بدافع الاستخفاف أو الإيمان — عقيدة أتباعه الدينية ، فإن الإجراء يقود إلى توطيد ملكه .

٦ — الشعور بالاتحاد :

هذا هو « مضاد » إيجابى الطابع للشعور بالابتذال السلبى الطابع .

ويعبّر الشعور بالاتحاد عن نفسه فى صورة مادية ، فى إيجاد الدول العالمية . ويلهم الشعور بالاتحاد « إدراكاً يسود كل شىء وإدراكاً بوجود إله حاضر فى كل مكان محيط بكل شىء متسلط على العالم .

ويبحث المؤلف هذه الآراء ويفسرها .

ويعرض المؤلف فى سياق موضوع الكائن الإلهى الكلى الوجود « إلى سيرة « يهوى » إله العبرانيين « الغيور » » منذ بداية ظهوره جنياً فى بركان من براكين سيناء ، إلى إرتفاع شأنه فى نهاية المطاف ، واعتباره الحامل التاريخى لفكرة — صافية متدرجة — عن « الإله الواحد الحق » الذى تعبده الكنيسة المسيحية .

ويقدم المؤلف تفسيراً لانتصار « يهوى » على جميع منافسيه ،

٧ — السلفية :

هى محاولة للفرار من حاضر لا يمكن احتماله ، عن طريق إعادة تشييد مرحلة سابقة من تاريخ حياة مجتمع متحلل .

ويقدم المؤلف أمثلة قديمة وحديثة . وتشتمل الحديثة على إحياء النزعة القوطية ؛ والإحياء الاصطناعى للغات إنقرضت كليا أو جزئيا لأسباب تتصل بإحياء الروح القومية .

وخلص المؤلف إلى القول بأن الحركات التى تنزع صوب السلفية : هى فى الغالب إما عقيمة أو تستحيل إلى نقيضها ، أى إلى « مستقبلية » .

٨ — المستقبلية :

هى محاولة للفرار من الحاضر ، بالقفز إلى ظُلمة مستقبل مجهول . وتقتضى محو الروابط التقليدية مع الماضى ، فهى فى الواقع نزعة ثورية . وتعبِّر عن نفسها فى الفن ، فى نزعة تحطيم المقدسات .

٩ — التسامى الذاتى للمستقبلية :

إذا كانت السلفية تتردى فى هوة المستقبلية ، فإن المستقبلية قد تصعد إلى قمم التجلّى . وبعبارة أخرى ؛ تنبُذُ المستقبلية المحاولة اليائسة للعثور على مجتمعها المثالى فى المجال الدنيوى ، وقد تنشده فى الحياة الروحية ؛ دون أن يعوّقها الزمان والمكان .

ويبحث المؤلف فى هذا الشأن ، تاريخ اليهود بعد الأسر البابلى . وقد عثرت المستقبلية على ذاتها فى سلسلة من المحاولات الانتحارية لإيجاد إمبراطورية يهودية على الأرض . محاولات بدأت منذ أيام زروبابل حتى باركوباكا ، وانتهت أخيراً باعتناق فكرة التجلّى التى تقوم عليها العقيدة الدينية المسيحية .

١٠ ــ الاعتزال والتجلي :

يعنى الاعتزال ، إتخاذ موقف يجد أصلب وأسمى تعبير عنه ، فى تعاليم البوذا : إن نتيجتها المنطقية هى الانتحار . ذلك لأن الاعتزال العام ممكن للإله وحده . أما الدين المسيحى فإنه ينادى بالمنبذ مختارا إعتزالا كان من الواضح أنه يستطيع أن يستمتع به لو شاء . وهذا الإله « يحب العالم كثيراً » .

١١ ــ جدة المولد :

إن التجلى ــ من طرائف الحياة الأربع التى بحثت هنا ــ يُعتبر الطريقة الوحيدة التى تُهيئ طريقا موصلا لسالكيه . ويتم بفضل نقله ميدان الفعل من الكون الأكبر (أى الله) إلى الكون الأصغر (أى الإنسان) .

ويصدق هذا بالمثل على الاعتزال . مع فارق أنه بينما الاعتزال لا يعتبر إلا حركة إنسحاب فحسب ، فإن التجلى حركة انسحاب وعودة ، هى جدة المولد .

لكن جدة المولد هنا لا تعنى إعادة ميلاد مثال آخر لنوع قديم ، لكنه يعنى ميلاد مجتمع من نوع جديد .

الفصل العشرون ــ العلاقة بين المجتمعات المتحللة والأفراد

١ ــ العبقرى المبدع مخلّصا :

يتزعم أفراد مبدعون فى مرحلة الارتقاء ، إستجابات ناجحة لتحديات متعاقبة ، ويظهرون فى مرحلة المتحللة مخلّصين للمجتمع المتحلل أو مخلصين منه .

٢ ــ المخلّص الممتشق حساما :

هم مؤسسو الدول العالمية ومعاضدوها . لكن جميع أعمال السيف فانية .

٣ ـ المخلص صاحب آلة الزمان :

هم أصحاب نزعتى السلفية والمستقبلية : ويلجأون إلى السيف كذلك ؛ ويلاقون مصير ممتشق السيف .

٤ ـ الفيلسوف فى قناع ملك :

هو علاج أفلاطون المشهور . ويصيبه الإخفاق من جراء التناقض بين إعتزال الفيلسوف ، وطرائق القهر التى يستخدمها الزعماء السياسيون .

٥ ـ الإله المتجسد فى إنسان :

يبين المؤلف كيف تختنق المحاولات الناقصة ، وينتصر يسوع الناصرى وحده على الموت .

الفصل الحادى والعشرون ـ إيقاع التحلل

يمضى التحلل قدماً ، لا بصورة متجانسة ـ ولكن بفعل تعاقب ـ كسرات ونهضات .

ومن قبيل المثال :

يعتبر إنشاء الدولة العالمية ، نهضة بعد الكسرة التى حدثت فى عصر إضطرابات : ويعتبر تفكك الدولة العالمية كسرة نهائية . ولما كان يوجد عادة نهضة تعقبها كسرة فى سياق عصر اضطرابات ، كذلك توجد كسرة تعقبها نهضة فى تاريخ دولة عالمية . فيبدو أن الإيقاع المألوف هو : كسرة ـ نهضة ـ كسرة ـ نهضة ـ كسرة ـ نهضة ـ كسرة ، أى ثلاث دقات ونصف دقة .

ويصور هذا النمط فى تواريخ مختلف المجتمعات المندرسة ، ثم يطبق على تاريخ مجتمع المسيحية الغربية من زاوية تحقيق مرحلة النمو التى بلغها هذا المجتمع .

الفصل الثانى والعشرون – توحيد المقاييس

إذا كان التمايز هو سمة الارتقاء ، فإن توحيد المقاييس هو علامة التحلل :

ويختم المؤلف بحثه بالإشارة إلى المشكلات التى يترك بحثها للأجزاء الآتية من الدراسة .

الباب السادس

الدول العالمية

الفصل الثالث والعشرون – غايات أم ذرائع

يلخص المؤلف نهج الكتاب حتى النقطة الحالية ، ثم يورد الدوافع التى تدعوه إلى المضى فى البحث – فى أجزاء متتابعة – فى موضوع الدول العالمية ، والأديان العالمية ، وعصابات الحرب من المتبربرين :

فهل يُنظر إلى الدول العالمية على أنها المراحل النهائية للحضارات ، أم على أنها مقدمات لمراحل ارتقاء تالية ؟

الفصل الرابع والعشرون – سراب الخلود

لا يرحب مواطنو الدول العالمية – فى معظم الأحيان – بإقامتها فحسب ، ولكنهم يؤمنون بخلود هذه الدول : ويظلون عاكفين على اعتقادهم هذا ، ليس فقط حين يتضح أن الدول العالمية تُشرف على الانهيار ، بل يستمر إعتقادهم حتى بعد زوالها . ويترتب على هذا ، عودة نظام الدولة العالمية إلى الظهور كـ « شبح » للدولة العالمية الأصيلة : ويطالعنا – من قبيل المثال – ظهور الدولة الرومانية المقدسة فى المجتمع الذى تبنته المسيحية ، شبحاً للإمبراطورية الرومانية فى العالم اليونانى – الرومانى :

وقد نجد تفسيراً لذلك فى الحقيقة القائلة بأن الدولة العالمية تقف داعية للتجمع بعد فترة من الاضطرابات .

الفصل الخامس والعشرون – وهكذا تكدّ لغيرك

تُمنى نظم الدولة العالمية بالفشل – على طول المدى – فى الاحتفاظ ببقائها . لكنها – فى الوقت نفسه – تخدم أغراض نظم أخرى ، وبصفة خاصة ما اتصل منها بالأديان العليا للبروليتاريات الداخلية .

١ – قدرة الدول على التوصيل :

تتيح الدول العالمية – بفضل فرضها النظام والتجانس – وسيلة للتوصيل الجيد ، ليس فقط من الناحية الجغرافية بين الأجزاء التى كانت فيما مضى دولا إقليمية منفصلة ولكن – من الناحيـــة الاجتماعية – بين طبقات المجتمع المختلفة .

٢ – سيكلوجية السلام :

إن التسامح الذى يراه حكام الدول العالمية أمرا لازما للمحافظة على كيانهم ، يشجع على انتشار الأديان العليا . وهذا ما تصوره الفكرة الشائعة (التى عبر عنها ملتون فى أنشودته عن عيد الميلاد) القائلة بأن الإمبراطورية الرومانية قد أرسلتها العناية الإلهية لصالح الكنيسة المسيحية .

على أن مثل هذا التسامح ليس عالميا أو مطلقا . وفضلا عن ذلك فإن هذا التسامح نفسه – فى صورة نزعة مناهضة للعسكرية – سيثبت أنه فى صالح المعتدين الدخلاء ، سواء أكانوا برابرة ، أو أصحاب حضارات مجاورة .

٣ – صلاحية النظم الإمبراطورية للعمل :

(ا) المواصلات :

تخدم الطرق البرية والمسالك البحرية وصيانتها بانتظام الناس

خدمتها لأغراض الحكومة : مثال ذلك أن القديس بولص قد استخدم الطرق الرومانية فى أداء رسالته .

فهل ستستفيد الأديان العليا فى الوقت الحاضر من نظام المواصلات العالمى الواسع النطاق الذى يهيئه الأسلوب التكنولوجى الحديث ؟

إن تم ذلك ؛ فإن الأديان العليا ستجابه مشكلات يمكن توضيحها من خلال استعراض تاريخ البعثات المسيحية التبشيرية فى العوالم الغير المسيحية فى عصور سابقة .

(ب) الحاميات العسكرية والمستعمرات :

تخدم غايات الحضارة مثلما تخدم غايات الحكومة . بل إنها تساهم كذلك فى التجويل البروليتارى الذى يميّز المجتمعات المتحللة .

ومن الواضح أن عصابات الحرب من المتبربرين هم أكثر المستفيدين من ذلك : ولكن الديانات العليا ، تستفيد هى الأخرى . ويسوق المؤلف أمثلة لتعزيز رأيه من إنتشار الإسلام . كما انتشرت عبادة ميترا ، من حامية إلى أخرى على طول حدود الإمبراطورية الرومانية . وانتشرت المسيحية من مستعمرة إلى أخرى . ومن قبيل المثال ، أهمية مستعمرتى كورنث وليون — وكلتاهما أنشأتهما الحكومة الرومانية — فى تاريخ الكنيسة المسيحية فى عصورها الأولى .

(حـ) الأقاليم :

يستخرج المؤلف سياسات متناقضة من تاريخ الدولة العالمية الصينية ؛ كما يستخلص من إنتشار العقيدة المسيحية ، أمثلة لجدوى استخدام الديانات العليا للتنظيم الإقليمى .

(د) الأمصار :

تؤثر عوامل مختلفة فى تحديد موقعها : وقد يثبت أن العاصمة الأصلية

التى أقامها الغزاة الذين أنشأوا الدولة العالمية ، غير صالحة دواما للغاية من إنشائها .

ويسوق المؤلف عرضا للعواصم وانتقالاتها . وتظل بعض العواصم التى فقدت أهميتها السياسية ، محتفظة بذكراها كمراكز للديانات .

(هـ) اللغات الرسمية والكتابات الخطية :

يبين المؤلف المشكلات التى تجابه حكام الدول العالمية فى اختيار اللغات الرسمية ، ومختلف الحلول التى يوفقون إليها . ويذكر أن تداول بعض اللغات — مثل الأرامية واللاتينية — قد جاوز كثيرا فى الزمان والمكان ، اتساعا أبعد مدى ، من حدود الإمبراطوريات التى انتشرت فيها أولا .

(و) القانون :

هنا كذلك اختلف حكام الدول العالمية كثيراً — أحدهما عن الآخر — فى المدى الذى ذهبوا إليه فى فرض نظمهم الخاصة على رعاياهم . وقد طُبقت أنظمة قانونية لدول ، على طوائف لم تشرع لها هذه الأنظمة . مثال ذلك : استخدام المسلمين القانون الرومانى ، وانتفاع الكنيسة المسيحية به ، واقتباس مؤلفى شريعة موسى من قوانين حورابى .

(ز) التقويم والموازين والمقاييس والنقود :

يبين المؤلف مشكلات تعيين التقويم ، والارتباط الشديد بين التقاويم والدين . ويذكر أن الطرائق المستخدمة فى الوقت الحاضر لحساب الزمن ، ما يزال بعضها من مخلفات الرومان أو السومريين . ثم يقرر أن الثورة الفرنسية قد فشلت فى الاستغناء عنها .

ويوضح المؤلف بالنسبة للموازين والمقاييس ، المعركة بين النظام العشرى والاثنى عشرى . ويبين — بالنسبة للنقود — أهميتها وأساسها فى المدن اليونانية ،

ثم انتشارها بفضل دخول هذه المدن فى نطاق الإمبراطوريتين اللبابية والاخيمينية . ثم يتناول « بالبحث النقود الورقية فى العالم الصينى :

(ح) الجيوش القائمة :

يعتبر المؤلف الجيش الرومانى ، مصدر إلهام للكنيسة المسيحية :

(ط) الإدارة الحكومية :

يوضح المؤلف مشكلات الإدارة الحكومية ، بعقد مقارنة بين سياسة كل من أغسطس وبطرس الأكبر « والحكم البريطانى فى الهند . ثم يوضح طابع الإدارة الحكومية فى كل من الصين ، والهند تحت الحكم البريطانى : ثم يذكر مدى تأثير الإدارة الرومانية الحكومية فى إعداد ثلاثة من كبار مؤسسى المسيحية الغربية .

(ى) المواطنة :

يعتبر توسيع حقوق المواطنين ميزة يُضفيها حكام الدول العالمية على رعاياهم . وتعاون على خلق جو من المساواة ، تزدهر فى ظله الأديان العليا :

الباب السابع

الأديان العليا

الفصل السادس والعشرون – أفكار بديلة للعلاقات بين الأديان العالمية والحضارات

١ – الأديان باعتبارها سرطانات :

طالما أن العقائد الدينية تنمو فى الكيانات الاجتماعية المتداعية للدول

العالمية ، فطبيعي أن ينظر إليها كسرطانات ، سواء من جانب المعارضين لها من المعاصرين ، أو من جانب مدرسة من المؤرخين المحدثين .

ويسوق المؤلف أدلة على خطل هذا الرأى . ومن رأيه أن الأديان تميل إلى إنعاش الشعور بالواجب الاجتماعى فى مريديها أكثر من اتجاهها إلى حطمه .

٢ ــ الأديان باعتبارها يقعات :

إن لكل من حضارات الجيل الثالث التى ما تزال قائمة فى الوقت الحاضر ، عقيدة دينية تعتبر قوام تلك الحضارة . وعن طريق الدين ، تتصل الحضارة بصلة النسب ، بحضارة أخرى من حضارات الجيل الثانى .

ويحلل المؤلف ما تدين به الحضارة الغربية الحديثة للعقيدة المسيحية .

وعلى العكس من ذلك ، تنتسب حضارات الجيل الثانى إلى الحضارات السابقة عليها ، بروابط أخرى . ويرى المؤلف أن هذه الحقيقة تُوحى بإعادة النظر فى الخطة التى سلّم بها فى سياق التاريخ ، حتى الآن .

٣ ــ الأديان باعتبارها أنواعا سامية من المجتمع :

(ا) تصنيف جديد :

يقرر المؤلف قيام الحضارات وسقوطها ، بدورات عجلة دولاب تدفع عربة الدين إلى الأمام . ويعرض المؤلف خطوات التقدم الدينى ماثلة فى أسماء : إبراهيم وموسى والأنبياء العبرانيين والمسيح . ويعتبر كل منهم ــ على التوالى ــ ثمرة لتحلل المجتمعات : السومرية والمصرية والبابلية والهلينية .

فهل يتيح توحيد عالم اليوم ، الأمل فى تقدم أسمى ؟

فإن كان الأمر كذلك ، تعين على الأديان العليا أن تتعلم دروسا صعبة ،

(ب) مغزى ماضى الأديان :

يسلّم المؤلف بأن تاريخ الأديان العليا – حتى اليوم – يلوح أنه لا يهيئها للدور الذى يرسمه المؤلف فى دراسته .

(ج) الصراع بين القلب والعقل :

إن ضغط العلم الحديث على الدين ، لم يكن الصراع الأول من نوعه ، فإن الصراع بين المسيحية الأولى والفلسفة الهلينيـــة ، قد انتهى بإيجاد حل وسط يوفق بينهما ، وارتضى الفلاسفة بمقتضاه « حقيقة » الوحى المسيحى ، على شريطة أن يُسَرْبِل ذلك الوحى نفسه بلغة الفلاسفة ؛ ولقد أصبحت هذه السرابيل الهلينية البالية – منذ أمد طويل – مصدرا للحيرة ، بتحميلها الكنيسة المسيحية وزر إخفاق عدد من القضايا الغير الدينية التى لا تتصل بالمسيحية بسبب .

ويبين المؤلف أن الدين يجب أن يسلّم للعلم فى جميع ميادين المعرفة الثقافية التى يستطيع العلم أن يقيم لنفسه فيها مجالا . وعنده أن الدين والعلم يُعنيان بضربين مختلفين من الحقيقة وأن دراسة اللاشعور فى علم النفس الحديث ، تُلقى ضوءا عميقاً على طبيعة الاختلاف .

(د) بشائر مستقبل الأديان :

إن السمة المميزة للأديان ، إجماعها على الإيمان بإله واحد حق ، وهذا ما يفرقها عن جميع أنواع المجتمعات الأخرى . ويفصح المؤلف عن نتائج هذا الاختلاف .

الفصل السابع والعشرون – دور الحضارات فى حياة الأديان

١ – الحضارات باعتبارها إفتتاحيات :

يبحث المؤلف معجم الاصطلاحات التكنولوجية التى استعارتها الكنيسة المسيحية من الحضارة الهلينية ، ثم حولتها إلى إستعمالات جديدة .

ويعتبر ذلك مثالا لما يدعوه بظاهرة « الأثيرية » (أى النسامى) .

ومن رأيه أن الحضارة الهيلية قد أدت دور الافتتاحية للعقيدة المسيحية .

٢ - الحضارات باعتبارها نكوصا :

يبين المؤلف ما يتلو ذلك من إنحطاط لهذه المصطلحات التكنولوجية عندما يستخدمها المجتمع الغربى فى مجالاته الدنيوية ؛ هذا المجتمع الذى إنبعث عن الكنيسة المسيحية ، ثم تحرر من سلطانها .

الفصل الثامن والعشرون ـ نشر الدعوة الدينية فى العالم

إن خروج الحضارة المنتمية إلى دين على هذا الدين ، يرجع إلى خطوات خاطئة ارتكبتها العقيدة الدينية : هذه الخطوات نتيجة حتمية لتضمين روح الدين فى نظام كهنوتى يهدف إلى بث الدعوة إلى العقيدة الدينية فى أنحاء العالم .

ويسجل المؤلف أربعة نماذج للخطوة الخاطئة :

(أ) سيطرة سياسية تهيئ سببا معقولا للمساس بالسلطات الدنيوية ، بحسبانه تدخلا فى قيامها على أداء واجباتها المنوطة بها :

(ب) النجاح الاقتصادى الذى لابد وأن يلازم أداء الواجبات الاقتصادية « بحرارة » كما لو كانت تؤدى للخالق ، لا للإنسان :

(جـ) تحويل الكنيسة بمجموع ذاتها إلى إله يُعبد .

فهل يعجز الدين عن الوعد بـ « عصر ذهبى » يتراءى فى نهاية المطاف ؟

ربما يتيسر ذلك فى « العالم الآخر » . لكنه لن يقع فى عالمنا هذا . فإن الخطيئة الأزلية تقف عقبة كأداء . و « هذا العالم » إقليم فى ملكوت الرب ، لكنه إقليم متمرد ، ومن طبيعة الأشياء أن يبقى كذلك .

الباب الثامن

عصور البطولة

الفصل التاسع والعشرون – سياق المأساة

١ – حاجز اجتماعى :

عصر البطولة ؛ نتيجة اجتماعية وسيكلوجية لتبلور الثغور – أو التخوم الحربية – القائمة بين الدولة العالمية لحضارة متحللة ، والمتبربرين القاطنين وراء هذه التخوم . ويُمثَّل بحاجز أو سد مقام على واد ، فيوجد – بذلك – خزانا عليه .

ويورد المؤلف فى هذا المبحث وفى غيره من مباحث الفصل التالية ؛ ما يتضمنه هذا التشبيه .

٢ – تراكم الضغط :

يتزايد الضغط على الثغور – أو السد – كلما تعلم المتبربرون القاطنون خلف التخوم ، الأساليب التكنولوجية الحربية للحضارة التى يقفون إزاءها بالمرصاد . ويجد حراس الحضارة أنفسهم مضطرين إلى استخدام المتبربرين أنفسهم . ثم ينقلب هؤلاء الجنود المرتزقة على سادتهم ، ويوجهون ضرباتهم إلى قلب الإمبراطورية :

٣ – الاجتياح ونتائجه :

لا مناص من أن يتطور نجاح البرابرة المنتصرين ، إلى أداة لهزيمتهم : فإنهم – إجمالا – غير أكفاء لمجابهة الأزمة التى أوجدوها بأنفسهم : ومع ذلك فإن البرابرة يقومون خلال محنتهم ، ببطولات أسطورية ومُثُل عليا للسلوك ، مثل تلك التى وردت فيما كتبه هوميروس عن آلهة النقمة ،

وما ورد فى فضيلة : « الحلم » عند الأمويين : وينتهى المطاف بعصر البطولة المشوش — فجأة — فى صورة مذهلة : ويتلو « عصر مظلم » تعود — فى خلاله — قوى القانون والنظام تؤكد وجودها بالتدريج : وهكذا تنتهى « فترة الفراغ » لتنبعث حضارة جديدة :

٤ — الخيال والحقيقة :

يشير المؤلف إلى تصنيف « هسيود » الغريب للعصور ، إذ يجعلها وفقا للمعادن : الذهب ، الفضة ، البرونز ، الحديد . وأن ثمة عصرا هو « عصر الأبطال » يندرج بين عصرى البرونز والحديد :

و« عصر الأبطال » هو فى الواقع عصر البرونز ، ويضفى عليه هوميروس من الخيال مايجاوز الحقيقة : وعند المؤلف أن فتنة شعر البطولة الذى أنتجته البربرية الظافرة ، هى التى خدعت « هسيود » وشاعر العصر المظلم التالى : ولقد خدع شعر البطولة التالى هذا أيضا ، أتباع الرايخ الثالث الذين مجدوا « الوحوش الشقراء » للبربرية « النوردية » :

على أن البرابرة كانوا حلقة إتصال ارتبطت عن طريقها حضارات الجيل الثانى — التى أنتجت الأديان العليا — بحضارات الجيل الأول :

حاشية — كتيبة الجند من النساء الشيطانات :

يسوق المؤلف تفسيرا لما قامت به النساء الشيطانات من دور بارز فى ماضى عصور البطولة ، ليس فقط فى الأسطورة ، وإنما فى الواقع كذلك :

الباب التاسع

الاتصال بين الحضارات فى المكان

الفصل الثلاثون — إمتداد ميدان الدراسة

إن الحضارات التى يمكن دراستها دراسة وافية — كل منها على حدة —

فى مراحل نشوئها ونموها واستطالتها وانهيارها ، إن هذه الحضارات تصبح دراستها غير مفهومة فى مرحلة تحللها النهائى ،

ومن ثم يرى المؤلف ضرورة دراسة إتصالاتها ، وهى فى هذه المرحلة الأخيرة : ويذكر أن طائفة من المناطق الجغرافية مثل ؛ سوريا وحوض نهرى سيحون وجيحون ، كانت معالم بارزة فى تاريخ هذه الاتصالات ؛ وليس من قبيل المصادفة ، أن هذه المناطق نفسها والأجزاء المجاورة لها مباشرة ؛ قد ضمت المواطن التى شهدت مولد الأديان العليا .

الفصل الحادى والثلاثون

عرض للتلاقى بين الحضارات المعاصرة

١ – منهاج العمل :

نقترح البدء ببحث التلاقى بين الغرب الحديث وجميع الحضارات المعاصرة له . ويمكن تأريخ بداية العصر الحديث ، من تاريخ المجتمع الغربى بحدثين :

وقع الحادث الأول مباشرة بعد بداية القرن السادس عشر .

ووقع الثانى مباشرة بعد بداية القرن السادس عشر ؛

والحدث الأول هو إمتلاك ناصية فنون الملاحة فى المحيطات ،

والحدث الثانى هو تفكك عرى وحدة العالم المسيحى . تلك الوحدة التى أقامتها البابوية وحافظت عليها .

وكان « الإصلاح » البروتستانتى – بالطبع – مرحلة فى عملية طويلة من التطور بدأت فى القرن الثالث عشر ، ولم تستكمل حتى القرن السابع عشر ؛ بيد أن « الإصلاح » نفسه ؛ قد باغت نفس الجيل الذى شهد رحلات كولومبوس وجاما :

وبعد هذا « نخطو فى التاريخ خطوة إلى الوراء وندرس صلات الغرب فى مرحلة تاريخه الوسيط ، مع المجتمعين المنافسين له ، اللذين تلاقى بهما ؛ ثم ندرس بعد ذلك صلات المجتمع الهلينى ؛ ونختتم البحث بإلقاء نظرة على صلات أسبق من نفس النوع .

وإذ نعالج موضوع صلات العالم الغربى الحديث ، سنرى أن هذه الفصول من التاريخ – ولو أنها معروفة لنا بالتفصيل حتى الوقت الحاضر – غير مستكملة كلها – أو ربما أكثرها – ولاتزال تحمل علامة استفهام .

٢ – العمليات وفقا لمنهاج :

(ا) التلاقى بالحضارة الحديثة :

أولا : الغرب الحديث وروسيا :

كابد المواطن الأصيل للمسيحية الأرثوذكسية الروسية « الشىء الكثير من إغارات وغزوات قامت بها دولة بولندا – ليتوانيا وهى إحدى الدول الغربية الإقليمية ، منذ القرن الرابع عشر وما بعده ، ومنيت بخسائر لم تستطع استردادها كلها إلا فى عام ١٩٤٥ ميلادية . ولقد تلقى بطرس الأكبر إشعاع الثقافة الغربية باستجابة تتسم بالمسايرة والترحيب . بيد أنه بعد أن مر قرنان على خطط الاقتباس من الغرب طبقا لخطوط وافق عليها الغرب نفسه ، وجد أن نظام بطرس الأكبر – بعد أن وضع موضع التجريب – تبينت أغلاطه وأخطاؤه » وقتما صدمته محنة الحرب العظمى الأولى . فكان أن اقتلعه ، وحل محله نظام غربى الأصل ، مرتد من المبادئ الغربية ، هو : الشيوعية .

ثانيا : الغرب الحديث والكتلة الرئيسية للمسيحية الأرثوذكسية :

تغلغلت الثقافة الغربيه فى هذا المجتمع الذى ضُمّت أجزاؤه بعضها الى بعض تحت حكم دولة عالمية دخيلة عليه هى الإمبراطورية العثمانية . ولقد تغلغلت هذه الثقافة ، بادئة بالطبقات الدُّنيا إلى العُليا ، على عكس ما حدث

فى روسيا ؛ وحدث ذلك ابتداء من القرن السابع عشر وما بعده ؛ وكان من المحتمل أن يؤدى ذلك إلى غلبة التأثير الغربى على إمبراطورية الباديشاه بتأثير اليونانيين الفناريين . بيد أن الحركات الوطنية قد تغلبت لسوء الحظ ، فأدت إلى حطم الإمبراطورية إلى دول إقليمية ؛ وأخفقت روسيا فى أن تكفل لنفسها زعامة هذه الشعوب : سواء وفقاً لأسس جامعة أرثوذكسية ، أو جامعة إسلافية ؛ وإن كان قد فُرض على بعضها أخيراً نظام جامعة شيوعية روسية ؛

ثالثا : الغرب الحديث والعالم الهندى :

فرض الغرب نفسه هنا فى شكل دولة عالمية دخيلة ، حلت على دولة عالمية دخيلة أخرى ؛ هى الإمبراطورية الإسلامية المغولية التى كان قد أصابها التفكك ؛ ولقد استخدم الحاكم البريطانى صفوة من الهنود ، مثلما استخدم الباديشاه العثمانى صفوة من المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين ؛ وجاء الوقت الذى نجحت فيه هذه الصفوة الهندية — فى حين عجز الفناريون — فى تغليب العنصر الهندى فى إدارة الأملاك البريطانية السابقة ، مع الاحتفاظ به سليماً ، ما خلا الاستثناء الضخم المتصل بانفصال باكستان .

وناقش المؤلف النقاط القوية والضعيفة فى الإدارة البريطانية الهندية ؛ وأبدى أن مشكلة السكان هى السحابة السوداء التى تخيم فى أفق مستقبل الهند .

رابعاً : الغرب الحديث والعالم الإسلامى :

فى مطلع العصر الحديث من تاريخ الغرب ، كان المجتمعان الإسلاميان الشقيقان « الإيرانى » و« العربى » يقفان سداً فى وجه جميع المسالك البرية التى تصل ممتلكات المجتمعين الغربى والرومى بسائر أنحاء العالم . بيد أنه تلا ذلك مباشرة ، إنقلاب مثير لمصير العالم الإسلامى وفى غير مصلحته ؛ وترتب على ذلك الإنقلاب فى ميزان القوى أن عدداً من حكام الدول

الإسلامية قد راحوا يطبقون سياسة بطرس الأكبر القائمة على « مسايرة للغرب » ، بدرجات متفاوته فى التوفيق :

ويضم العالم الإسلامى مواطن ثلاثة من الحضارات الأربع الرئيسية ، ولقد تعززت الثروات الزراعية الطبيعية لهذه المناطق ، بفضل الكشف عن ثرواتها المكنونة من النفط . ونتيجة لذلك ؛ أصبحت المناطق الإسلامية ، بمثابة بستان الكرم لعالم القرن العشرين الذى تتصارع فيه روسيا والغرب :

خامسا : الغرب الحديث واليهود :

لم تتلاءم فكرة « التشتت اليهودى » مع النظام الغربى القائم على دول إقليمية متجانسة : وفى استعراض تاريخى يبدأ ، لا من مستهل العصر الحديث من التاريخ الغربى ، ولكن من بداية المجتمع المسيحى الغربى نفسه ؛ تمكن ملاحظة ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى (أى فى تاريخ القوط الغربيين) — استبانت خلالها فائدة اليهود رغما عن كراهية الجماهير لهم ، ولسوء معاملتهم إياهم ؛ إذ كان المسيحيون الغربيون (كما قال سيسيل رودس عن الرؤساء المتخرجين من من أكسفورد) أطفالا فى الشئون المالية :

المرحلة الثانية — تعلم فيها المسيحيون الغربيون أن يكونوا لأنفسهم يهودا منهم . فكان أن طرد اليهود (ويطالعنا فى هذا الصدد طرد اليهود من إنجلترا عام ١٢٩١) :

المرحلة الثالثة — كان فيها المجتمع الغربى قد أصاب من الكفاءة ما جعله يسمح لليهود بالعودة إليه مرة أخرى (مثال ذلك عودتهم إنجلترا عام ١٦٥٥) و الترحيب بخبرتهم فى عالم المال والتجارة :

بيد أن العصر الذى اتسم بتحرره والذى تلا ذلك ، لم يثبت أنه آخر القصة :

ويختتم هذا القسم بدراسات للنزعة المناهضة للسامية ، وللصهيونية :

سادساً : الغرب الحديث وحضارتى الشرق الأقصى والحضارات الأمريكية الأصيلة :

لم يكن لهذه سابق اتصال بالغرب قبل أن يدخل الغرب فى مرحلته الحديثة ؛ وقد بدا للعيان أن جميع الحضارات الأمريكية قد زالت من الوجود ، ولو أن هذه الفكرة قد تكون مضللة . ومن عجب أن تسير جنبا إلى جنب ، قصص ضغط الغرب الحديث على الصين واليابان . فى كلتا الحالتين ، لقيت الثقافة الغربية ترحيباً فى شكلها الدينى المبكر الحديث . لكن تلا الترحيب ، إعراض عنها . ثم جاء بعد ذلك تأثير الأسلوب التكنولوجى الغربى . ويُعزى — إلى حد كبير — الاختلاف بين تاريخى البلدين ، إلى حقيقة مبناها أن الصين إمبراطورية واسعة مفتوحة الأبواب ، فى حين أن اليابان جماعة جزرية محكمة . ولكن المجتمعين فى حالة خسوف وقت كتابة هذه السطور . فالصين رزحت تحت السيطرة الشيوعية ووقعت اليابان تحت السيطرة الأمريكية . وكان المجتمعان كلاهما — يواجهان مشكلة تضخم السكان .

سابعاً : خصائص التلاقى بين الغرب الحديث والمجتمعات المعاصرة له :

إن الحضارة الغربية الحديثة ، هى حضارة « طبقة متوسطة » . ولقد رحبت المجتمعات الغير الغربية التى نمت طبقتها المتوسطة فيها ، بالطابع الغربى الحديث. فإن رغب حاكم حضارة غير غربية لايضم مجتمعه طبقة متوسطة وطنية أن يصبغ بلاده بالصبغة الغربية ، فإن عليه أن يصطنع تحقيقاً لغرضه ، طبقة متوسطة فى شكل طبقة مثقفة . وهذه الطبقات المثقفة ، تنقلب فى النهاية على سادتها .

(ب) التلاقى مع مسيحية الغرب الوسيط :

أولا : مد الحروب الصليبية وجزرها :

دخلت المسيحية الغربية فى القرون الوسطى ، حقبة من التوسع فى القرن الحادى عشر ، وتلتها فترة من الأقوال ثم الارتداد على بعض الحدود دون أخرى ، بعد ذلك بقرنين .

ويحلل المؤلف عوامل هذا الامتداد ، وما تلاه من إرتداد .

ثانياً : الغرب الوسيط والعالم السورى :

كان ثمة أوجه شبه مشتركة بين كثرة الصليبيين وخصومهم المسلمين . فلقد كان « الفرنج » النورمنديون والسلاجقة الأتراك — كلاهما — فى سالف عهدهما برابرة اعتنقوا حديثا الدين الأممى للمجتمع الذى انخرطوا فيه والذى سيطروا عليه من عدة وجوه . ولقد أثر إشعاع الحضارة السورية فى المجتمع المسيحى الغربى الأقل تقدما ، وبدا ذلك فى الشعر والعمارة ، وفى الفلسفة والعلوم .

ثالثاً : الغرب الوسيط والمسيحية اليونانية الأرثوذكسية :

قام بين هذين المجتمعين المسيحيين ، نفور أشد مما كان بين أى مجتمع منهما وبين جيرانه المسلمين . ويظهر هذا النفور المتبادل فى اقتباسات من تقرير ليوتبراند الأسقف اللومباردى عن مهمته إلى القسطنطينية ، كما يظهر أيضاً فى الصورة التى رسمتها حنا كومنينا — فى تاريخها — للصليبيين .

(جـ) التلاقى بين حضارات الجيلين الأولين :

أولا : التلاقى مع الحضارة الهلينية فى عصر ما بعد الإسكندر :

تلاقت الحضارة الهلينية فى هذه الحقبة مع كل حضارة معاصرة لها فى العالم القديم ، ولكن النتائج التى ترتبت على الإشعاع الهلينى الذى أعقب

هذا التلاق ، لم تثمر ثمرتها ، ولم تستكمل فاعليتها ، إلا بعد انقضاء بضعة قرون من تحلل المجتمع الهليني نفسه ؛ ولقد جاوز إنتشار الثقافة الهلينية فتوحات الجيوش الهلينية كثيرا ، مثال ذلك ، إنتشارها فى العالم الصينى .

ويتميز عهد الإسكندر فى التاريخ الهلينى ، بتوسع تمكن مقارنته بشق المحيطات فى تاريخ المسيحية الغربية ؛ بيد أنه بينما كان الغرب — فى طوره الحديث — يحرر نفسه من عقيدته الدينية اليفعة (أى المسيحية) لم يكن لدى الحضارة الهلينية مثل هذه اليفعة ، ومن ثم عظُم توقها للدين واشتد .

ثانياً : التلاقى مع الحضارة الهلينية فى عصر ما قبل الإسكندر :

كان ثمة صراع بين ثلاثة متنازعين فى سبيل السيطرة على حوض البحر المتوسط وهم : المجتمع الهلينى فى عصر ما قبل الإسكندر ، والمجتمع السورى ، وبقية متحجرة من المجتمع الحيثى تتكون من الأتروريين . ولقد تبدّى المجتمع السورى على السواء : فى قوة الفينيقيين البحرية ، وفى الإمبراطورية الإخيمينية ، فى المراحل التالية من القصة . وقد ثبت أن أهم الفتوحات الثقافية هى صبغ روما بالصبغة الهلينية ؛ وقد تم هذا بطريق غير مباشر ، هو تحول الأتروريين أولا إلى الثقافة الهلينية .

ثالثاً : الشيلم والقمح :

إن النتائج الوحيدة المثمرة للتلاقى بين الحضارات ، هى ما يتم إنجازه فى ظل السلام . وأورد المؤلف أمثلة لهذا من التلاقى بين الحضارات : السندية والصينية والمصرية والسومرية .

الفصل الثانى والثلاثون — مأساة التلاقى بين المتعاصرين

١ — ترابط التلاقى :

إن تحديا من جانب واحد ، يقود — على الصعيد الحربى — إلى إحداث

تحد من الجانب الآخر ، ويواصل التحدى الأخير سيره ليصبح عدوانا ، يثير بدوره دفعاً .

ويتتبع المؤلف سلسلة من مظاهر التلاقى بين « الشرق » و « الغرب » ابتداء من عدوان الإمبراطورية الإخيميفية على اليونان ، حتى ردود فعل الشعوب الغير الغربية خلال القرن العشرين ضد الاستعمار الغربى .

٢ – اختلافات الإستجابات :

ليست الإستجابة الحربية ، بالاستجابة الوحيدة المتاحة : ومصداقا لذلك ، تعزز روسيا الشيوعية أسلحتها بالحرب الأيديولوجية . وحينما تتعذر الإستجابة الحربية أو تفشل تجربتها ، تُحدث الشعوب المغزوة ردّ فعل بوساطة الاحتفاظ بذاتيتها كجماعات . ويتم ذلك عن طريق إستتباب دينها إستتبابا كثيفا . ويطالعنا المثال التقليدى عن تلك الإستجابة المتمثلة فى اليهود منذ تشتتهم .

وتتمثل الإستجابة السامية ، فى إيجاد دين أعظم سمواً يأسر إليه آسريه على طول المدى .

الفصل الثالث والثلاثون – نتائج التلاقى بين المتعاصرين

١ – أعقاب الاعتداءات الفاشلة :

قد يترتب عن النجاح فى صد العدوان ، إشاعة النزعة الحربية فى المنتصر ، بما يتلو ذلك فى النهاية من نتائج جائحة .

ومصداقا لذلك ، قاد انتصار اليونانيين على المعتدى الإخيمينى إلى انهيار الحضارة الهلينية فى خلال خمسين سنة .

٢ – فى أعقاب الإعتداءات الناجحة :

(ا) تأثيرات تصيب الكيان الاجتماعى :

يتمثل الثمن الاجتماعى الذى يقتضى الحضارة – التى وفقت فى عدوانها –

أداءه ، فى تسرّب ثقافة ضحايا الغرباء إلى مجرى حياتها ذاته : ويشابه ذلك فى تأثيره على ضحايا العدوان ، ولكن مع زيادة فى التعقيد . ويطالعنا فى هذا الشأن أن إدخال المثل والنظم الغربية على المجتمعات الغير الغربية ، غالبا ما يُنتج نتائج محيرة : ذلك لأن ما هو طعام لشخص ، قد يكون سماً لآخر . والواقع أن الفشل هو مصير محاولة إدخال عنصر من عناصر ثقافة أجنبية ، مع إستبعاد بقية العناصر .

(ب) إستجابات النفس :

أولا : تجريد من صفات الإنسانية :

يستسلم المغير إلى الكبرياء المتعجرفة ، فيعتبر الشعوب المغزوة « كلابا خاسرة » . وهكذا يتنكر لمبدأ أخوة الإنسان للإنسان . وعند ما يُعتبر « الكلب الخاسر » كافراً ، فإنه قد يستعيد منزلته البشرية بفضل « الهداية » . وعند ما يُنظر إليه على أنه « متبربر » ، قد يستعيد منزلته البشرية عن طريق اجتيازه إمتحانا . بيد أنه عند ما يُنظر إليه وفقاً للإصطلاح الشائع عند المستعمرين « وطنى » . عندئذ يفقد الأمل ، إذ يغدو عاجزاً عن خلع سيده أو هدايته إلى عقيدته .

ثانيا — التزمت والمسايرة :

ويتضمن الاصطلاحان تميزاً قريب المنال « بين الأعراض عن طباع الفاتح وقبولها . بيد أن القيام بفحص أشد قربا ، يوحى إلى الذهن بأن التمييز ليس قريب المنال بالدرجة التى تظن فى بداية الأمر .

ويفسر المؤلف هذه النقطة بدراسة اليابان الحديثة وبدراسة سيرتى غاندى ولينين .

ثالثاً — التبشير :

ويذكر المؤلف أن الانهزام الذاتى للمتزمتين والمسايرين الأصليين ، قد وقف حائلا ضد عمل القديس بولص الفذ .

حاشية : آسيا وأوروبا ـ حقائق وأوهام .

تولد آسيا وأوروبا ، اسمين للسواحل البرية المقابلة التي تواجه الملاحين اليونانيين في رحلاتهم بين بحر إيجه والبحر الأسود . ولم يسفر إضفاء مغزى سياسي أو ثقافي على الاصطلاحين عن شيء سوى البلبلة إذ تعتبر أوروبا ، شبه قارة من قارة أوراسيا محددة تحديداً سيئاً .

الباب العاشر

الاتصال بين الحضارات : في الزمن

الفصل الرابع والثلاثون ـ عرض لحركات البعث

١ ـ تقديم ـ البعث :

يبين المؤلف أصل لفظ « البعث » ، ويشرح المعنى الوارد له في هذه الدراسة .

٢ ـ بعث الآراء والنظم السياسية :

بدأت حركة البعث الإيطالية المتأخرة الوسيطة ، مبكرة وكان تأثيرها على المستوى السياسي ، أعظم وأطول مدى من تأثيرها على المستوى الأدبي أو الفني . ويسوق المؤلف تأييداً لقوله الآراء عن : دول المدن ، الملكيات العلمانية ، الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

ويذكر أن التتويج الكنسي يعتبر إحياءً لأحد طقوس الكتاب المقدس (العهد القديم) .

٣ ـ بعث النظم القانونية :

يذكر المؤلف مظاهر إحياء القانون الروماني في المسيحية الأرثوذكسية الشرقية وفي المسيحية الغربية ، ونتائج ذلك على الكنيسة والدولة .

٤ — بعث المذاهب الفلسفية :

يُعتبر إحياء الفلسفة الكنفوشيوسية الصينية فى مجتمع الشرق الأقصى فى الصين، وإحياء فلسفة أرسطوا الهلينية فى مسيحية القرون الوسطى الغربية ؛ حدثين متماثلين من جملة وجوه . ولقد عاشت المدرسة الفلسفية الكنفوشيوسية حتى تغلبت عليها مداخلة المزاج الغربى الحديث فى بداية القرن العشرين ، أما مدرسة أرسطو الفلسفية ، فقد تزعزعت دعائمها بفعل النهضة الأدبية الهلينية إبان القرن الخامس عشر . ثم تغلبت عليها فى نهاية الأمر ، حركة « باكون » العلمية ، إبان القرن السابع عشر .

٥ — بعث اللغات والمصنفات الأدبية :

قام نظام الأسر الحاكمة بدور كبير فى تشجيع النهضات فى هذا المجال ، ومن قبيل المثال ؛ قيام طائفة من الأباطرة الصينيين بجميع المكتبات الضخمة . ولقد كان لحركة البعث الإيطالية المتصلة بإحياء اللغات والآداب الهلينية ؛ سابقة عقيمة تمثلت فى حركة الإحياء الكارولنجى التى لها بدورها جذور فى حركة بعث حدثت فى نورثمبريا .

ولا يتأتى لحركات البعث أن تنجح ، مالم يبلغ المجتمع الذى يسعى إلى بعث شبح حضارة ميتة إلى الوجود « المرحلة المناسبة من النمو تؤهله للقيام بالتنبؤ » عن طريق تحضير أرواح الموتى »

٦ — بعث الفنون المرئية :

يورد المؤلف عدداً من الأمثلة إلى جانب المثال الغربى الشائع المعروف بـ « النهضة » . ويتتبع المؤلف النهضة الأوربية فى العمارة والنحت والرسم ، وكانت النتيجة النهائية فى هذه الميادين الثلاثة هى إصابة الأصالة بالعقم .

٧ — بعث النظم والمُثُل العليا الدينية :

يناقش المؤلف الازدراء الذى وقفته اليهودية إزاء خليفتها الظافرة :

العقيدة المسيحية ؛ ثم يبحث موقف الكنيسة المسيحية المتقلقل الغامض تجاه المُثُل اليهودية العليا المتصلة بالوحدانية ومناهضة التماثيل والصور .

واعتبر المؤلف نزعة « السبتية » وعبادة الكتاب المقدس عند البروتستانت — منذ القرن السادس عشر وما بعده — مثالا واضحاً لنهضة تتسم بالقوة والشعبية ، تهدف إلى إحياء اليهودية بين ظهرانى الحظيرة المسيحية الغربية .

الباب الحادى عشر

القانون والحرية فى التاريخ

الفصل الخامس والثلاثون — المشكلة

١ — معنى القانون :

يفرّق المؤلف بين « قانون الطبيعة » و « ناموس الله » .

٢ — اعتناق المؤرخين الغربيين لنظرية القانون الإلهى :

لم يعد الرأى القائل بأن التاريخ يُفصح عن أعمال عناية إلهية — وهو الرأى المعوّل عليه حتى عصر بوسويه — موضع ثقة . بيد أن المشتغلين بالعلم الذين حلّ قانونهم الطبيعى محل القانون الإلهى فى معظم نواحى البحث ؛ قد ألفوا أنفسهم مُكرهين على ترك التاريخ فى حالة لايحكمها قانون ، حيث يمكن توقّع حدوث أى شىء ، من أى شىء آخر . وهذا ما رآه ا . ل . فيشر :

الفصل السادس والثلاثون – انقياد شئون البشر لقانون الطبيعه

١ – عرض للدليل :

(ا) شئون الأفراد الخاصة :

تعتمد شركات التأمين على انتظام قابل للتقدير فى الشئون البشرية .

(ب) الشئون الصناعية لمجتمع غربى حديث :

يجد الاقتصاديون أنفسهم قادرين على قياس أطوال موجات الدورات الاقتصادية والتجارة .

(جـ) تنافس الدول الإقليمية : توازن القوى :

يشرح المؤلف التواتر المنتظم الظاهر ، لدورتى الحرب والسلم فى تاريخ جملة من الحضارات المختلفة .

(د) تحلل الحضارات :

يعرض المؤلف أمثلة على انتظام تعاقب الهزيمة والانتصار ، ويقدّم تفسيرات له .

(هـ) نمو الحضارات :

يذكر المؤلف انتفاء الانتظام الذى يمكن تتبعه فى مراحل الانحلال والانهيار .

(و) لا درع يقى من القدر :

يسوق المؤلف مزيداً من الأمثلة عن الانتظام الذى به ينتهى اتجاه تعترضه عقبات ، تارة عند نقطة ، وتارة عند نقطة أخرى ؛ إلى الفوز فى بعض الأحيان .

٢ — التفسيرات المحتملة لسريان قوانين الطبيعة فى التاريخ :

قد تعزى الانتظامات التى عرفناها ، إما :

إلى أثر قوانين سارية فى البيئة غير البشرية للإنسان .

أو إلى أثر قوانين سارية فى البيئة غير البشرية للإنسان نفسه :

ويبحث المؤلف هذين الاحتمالين البديلين ، ويخلص من بحثه إلى القول ، بأن اعتماد الإنسان على القوانين ذات الطبيعة غير الإنسانية ، يتناقص مع تقدم الإنسان التكنولوجى . ويجد المؤلف لتعاقب الأجيال البشرية مغزى عظيما . ويعتبر أن ثلاثة أجيال ، هى المعدل الزمنى لبضعة أنواع من التغيرات فى العادات الذهنية .

ثم يستعرض المؤلف قوانين العقل الباطن الذى كان علماء النفس قد اكتشفوه أخيراً وقت كتابة هذه السطور ، باعتبارها مؤثرا فى مجرى التاريخ .

٣ — هل قوانين الطبيعة الجارية فى التاريخ حاسمة أو يمكن السيطرة عليها ؟

أما بالنسبة للقوانين ذات الطبيعة غير البشرية ، يعجز الإنسان عن تغييرها . لكن فى استطاعته الانتفاع بها لتحقيق أغراضه . وأما بالنسبة للقوانين التى تؤثر فى الطبيعة البشرية نفسها ، فأحرى أن تلتزم الإجابة جانب الحذر . وستتوقف النتيجة على صلات الإنسان — لا على مجرد صلاته مع رفاقه من الناس وشخصه — ولكن على صلاته مع الرب مخلصه

الفصل السابع والثلاثون

تمرد — الطبيعة البشرية على قوانين الطبيعة

يفسر المؤلف هذا التمرد بعدد من أمثلة للتحدى والاستجابة ، فإن الإنسان إذ يجابه التحدى ، فإنه حر — فى نطاق معين — فى تغيير سير الاتجاه ،

الفصل الثامن والثلاثون – ناموس الله

لايعيش الإنسان فى ظل قانون الطبيعة وحده ، لكنه يعيش كذلك فى ظل القانون الإلهى وهو ناموس الحرية الكاملة .

ويناقش المؤلف الآراء المتباينة عن طبيعة الرب وناموسه .

الباب الثانى عشر

طوالع الحضارة الغربية

الفصل التاسع والثلاثون – الحاجة إلى هذا البحث

تميّز هذا البحث بابتعاد المؤلف عن الرأى الذى اتخذه هاديا والذى التزمه حتى الآن ، طوال هذه الدراسة : ومدار الرأى : النظر إلى جميع الحضارات المعروفة للتاريخ نظرة إجمالية : ويبرر هذا الإجراء الحقائق القائلة بأن المجتمع الغربى هو المجتمع الوحيد الباقى الذى لاتظهر عليه بوادر الانحلال جلية ؛ وأنه قد أصبح عالميا فى كثير من النواحى ، وأن طوالعه هى فى الواقع طوالع « عالم يصطبغ بصبغة غربية » .

الفصل الأربعون – قصور الردود الأولية

لم يكن ثمة ما يبرر الافتراض القائم على أسس شبه علمية مزيفة – بأنه لما كانت جميع الحضارات الأخرى قد فنيت أو أنها فى طريق الفناء – فإن الغرب مقيّض له كذلك سلوك نفس الطريق .

ويرى المؤلف أن ردّى الفعل المتسمين بالانفعال – مثل التفاؤل إبان عصر فيكتوريا والتشاؤم الذى يبديه مذهب شبنجلر – يعتبران كلاهما دليلين يفتقران إلى الإقناع .

الفصل الحادى والأربعون - فحوى تاريخ الحضارة

١ - التجارب الغربية مع الحضارات الغير الغربية السابقة :

ترى ما هو الضياء الذى تلقيه دراستنا السابقة عن الانهيارات والانحلالات على مشكلتنا الحاضرة ؟

لقد لاحظنا أن الحرب والنزعة العسكرية ، تعتبران أشد الأسباب تأثيراً فى إنهيار المجتمع ؛ وأن الغرب قد فشل حتى الآن فى مصارعة هذا الداء : على أنه من الناحية الأخرى ؛ قد حقق أسباب نجاح لم يسبق لها مثيل فى اتجاهات أخرى مثل إلغاء الرق وارتقاء الديمقراطية والتعلم .

ويبدى الغرب كذلك انقساماً مشئوماً إلى أقلية مسيطرة وبروليتاريتين : داخلية وخارجية . على أنه لا يعزب عن البال تحقيق أسباب نجاح ملحوظة فيما يتصل بمسايرة مشكلات تباين البروليتاريات الداخلية فى العالم الذى يصطبغ بالصبغة الغربية .

٢ - تجارب غربية فريدة :

إن سيطرة الإنسان على الطبيعة غير البشرية ، وسرعة التغير الاجتماعى المتزايدة ، لانظير لهما فى تواريخ الحضارات السابقة . ويسوق المؤلف منهاج الفصول التالية .

الفصل الثانى والأربعون

التكنولوجية والحرب والحكومة

١ - احتمالات حرب عالمية ثالثة :

يناقش المؤلف السمات الأساسية للولايات المتحدة الأمريكية وللاتحاد السوفييتى ، وموقف بقية الجنس البشرى تجاه كل منهما .

٢ - نحو نظام عالمي للمستقبل :

يقارن المؤلف بين مصائر الجنس البشرى ومصائر طوف « هايردال المدعو كونتيكى » وهو يقترب من الصخور . ويرى أن لا مناص من أن يكون نظام عالم المستقبل شيئاً مختلفاً تماماً عن منظمة الأمم المتحدة الحاضرة ؛ ويناقش المؤلف وضع الأمة الأمريكية وهل تتوفر فيها المؤهلات اللازمة لتولى الزعامة .

الفصل الثالث والأربعون - التكنولوجية والصراع الطبقى والعمالة

١ - طبيعة المشكلة :

قادت انتصارات التكنولوجية الحديثة إلى طلب لم يسبق له مثيل على « التحرر من الحاجة » . ولكن « هل البشرية على استعداد لأن تؤدى الثمن اللازم لإجابة هذا الطلب ؟

٢ - تأثير استخدام الآلات على المشروع الخاص :

أدت التكنولوجية الحديثة إلى شيوع نظام آلات التشغيل أو تجنيد « لا العمال اليدويين فحسب ؛ ولكن كذلك مخدوميهم (التأميم . . . الخ) من موظفى الإدارة الحكومية (الوثائق الرسمية) ، وكذلك تجنيد السياسيين (النظام الحزبى) . ولقد تطلبت الهيئات التى تمثل مقاومة العمال (مثل اتحادات النقابات العمالية) مزيداً من التجنيد . ومن الناحية الأخرى ، فإن رجال الثورة الصناعية » قد برزوا من مجتمع غير مجند .

٣ - محاولات بديلة لتحقيق التوافق الاجتماعى :

يتناول المؤلف أساليب الدراسة الأمريكية والروسية والأوربية الغربية - لاسيما البريطانية - بالتحليل والمقارنة .

٤ — الأعباء المتوقعة للعدالة الاجتماعية :

إن الحياة الاجتماعية مستحيلة دون قدر معين من الحرية الشخصية والعدالة الاجتماعية على السواء ، وتعمل التكنولوجية على إمالة كفة الميزان نحو العدالة الاجتماعية .

وفى عصر تم فيه إنقاص نسبة الوفيات بفضل الطب الوقائى ، ماذا تكون عواقب الحرية غير المنظمة من حيث زيادة الجنس البشرى ؟

يناقش المؤلف احتمالات حدوث مجاعة كبرى على مر الأيام ، والمنازعات التى يبدو احتمال تولدها عن ذلك .

٥ — هل يمكن كفالة السعادة الدائمة ؟

لنفترض أن المجتمع العالمى قد وجد حلا موفقاً لجميع هذه المشكلات ؛ فهل يتيسر للجنس البشرى أن يحيا بعد ذلك حياة سعيدة دائمة ؟

هـــذا ما لن يتحقق : لأن كل طفل يفد إلى هذا العالم يحمل معه « الخطيئة الأزلية » مرة أخرى .

الباب الثالث عشر

الخاتمـــة

الفصل الرابع والأربعون — كيف قُدر لهذا الكتاب أن يكتب

ولد الكاتب خلال العصر الفيكتورى المتأخر الذى سادته روح التفاؤل ، وجابهته الحرب العالمية الأولى فى مطلع رجولته ، فكان أن أخذته الدهشة أمام أوجه الشبه بين تجربة المجتمع الذى يعيش فيه ، وتجارب المجتمع الهلينى ،

تلك التجارب التي كانت الركن الأساسي فى تعليمه . وهذا أثار فى ذهنه السؤالين التاليين :

لماذا تموت الحضارات ؟

هل يقدر للغرب الحديث أن يلقى مصير الحضارة الهلينية ؟

ونتيجة لذلك ، امتدت أبحاثه لتشمل إنهيارات الحضارات الأخرى المعروفة وانحلالها ، باعتبارها دليلا آخر يلقى ضوءاً على سؤاليه .

وأخيراً تابع المؤلف بحثه عن أصول الحضارات ونموها :

وهكذا ، تمت كتابة هذه الدراسة للتاريخ .

تصويب

صفحة	سطر	خطأ	صوابه
٦٥	١٨	الخطر	الحظر
١٠١	١٧	يمملوا	يحتقروا
١٠٧	٨	قبل	قيل
١١٢	٢٢	، وحتى يتكون	(تشطب)
١٢٦	١	تقم	تُقدّم
١٣١	٢٠	المزّن	الملوّن
١٣٩	٧	البقاع	بقاع
١٦٠	٥	بالشيء الجديد الملكة فيكتوريا	للملكة فيكتوريا ، بالشيء الجديد
١٦٢	٤	يفي	يعني
١٧٦	١١	من	بين
١٧٨	١٠	تكتفي	فكتفي
١٨٠	١	الأولى	الأول
١٨٢	٢	الحكومية	الحكومة
١٨٣	٤	أن	تأدية
١٨٦	٦	برج	برح
١٨٦	١٠	كما أن	كما لو أن
١٨٨	٤	تذهب	تنهب
١٨٨	٤	المتصلة	المتأصلة
١٩٣	١٥	الشمف	الشّغب
١٩٤	١٩	يكل	يكن
١٩٨	٨	المكابد	المكابدة
٢٠١	٨	عالتة	عالة
٢٠٩	٩	العالية	العُليا
٢١٠	١١	مارستا	ما دوستا
٢١٢	٩	العالية	العُليا

فهـــرس

الجزء الرابع من « مختصر دراسة للتاريخ »

الموضــوع ... صــفحة

الباب العاشر

الاتصال بين الحضارات فى الزمن

الباب الحادى عشر

القانون والحرية فى التاريخ

الباب الثانى عشر

الموضــوع صــفحة

الباب الثالث عسر

الخاتمــة



الإشـــــراف اللغـــوى : حسام عبد العزيز

الإشــــراف الفـــــنى : حـسـن كـامــل

التصميم الأساسي للغلاف : أسـامـة العـبـد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة





يذهب توينبى فى هذا الكتاب إلى أن دراسة التاريخ تعنى – فى حقيقتها – دراسة المجتمعات أو الحضارات، وهو يقسمها إلى إحدى وعشرين حضارة اندرس معظمها ولم يتبق منها فى زماننا الذى نعيشه سوى خمس حضارات هى المسيحية الغربية، والمسيحية الأرثوذكسية، والإسلامية، والهندية، والشرق الأقصى، ثم مخلفات حضارات متحجرة غير معينة الشخصية كاليهودية.

يدور الكتاب حول ثلاثة محاور: انبعاث الحضارات، وارتقاء الحضارات، وانهيار الحضارات.

بخصوص انبعاث حضارة ما فإن توينبى يصدف عن الفكرة التى تذهب إلى تفوق عرق ما وتفرده بصنع الحضارة فالأعراق – فى معظمها- ساهمت فى صنع الحضارات وفى تقدمها، كما أنه يصدف عن البيئة الجغرافية كعامل أهم فى انبعاث الحضارة.

ويرى توينبى أنه بين إحدى وعشرين حضارة هناك خمس عشرة حضارة تتصل بصلات البنوة بحضارات سابقة عليها؛ فالحضارة الإسلامية- على سبيل المثال – هى محصلة اندماج حضارتين كانتا متميزتين فى الأصل هما الإيرانية والعربية وهما – معا – ترجعان إلى حضارة مندرسة هى الحضارة السورية التى تتفرع بدورها من الحضارة السومرية.

تصميم الغلاف: نسرين كشك